القائمة القصيرة للجائزة العالميّة للرواية العربيّة «البوكر 2022»

محمّد النعّاس

خبز على طاولة الخال ميلاد



رواية

الطبعة الرابعة



إهداء

إلى أحمد فكرون عن النورس الحالم على شطّ البحر.

إلى مو مصراتي، الصديق والكاتب الملهم والرفيق، على أمل أن نلتقي.

إلى الصديق المنتصر، صديقي ومصرفي وأخي ومستشاري العاطفيّ والنفسيّ والمادّيّ والاجتماعيّ ومستقرّ نكاتي وأسراري الفاحشة.

إلى سالم العالم، الشاعر والأب الروحيّ والشخصيّة الروائيّة العظيمة، أنت كزوربا بالنسبة إليّ.

إلى حسين النّعاس ولطفية مروان، والديّ وسبب وجودي. رغم معرفتي بأنّ كلماتي هذه لن تمرّ عليكما، فإنّني أحبّكما حبًّا جمًّا، وآكل التراب الذي تمشيان عليه أكلًا لمًّا.

إلى ريما إبراهيم، لولاكِ... لما كنت أتمكّن من كتابة هذا العمل.

إلى نفسي، أهديكِ هذه الرواية.

المخبز

«عيلة وخالها ميلاد»، مقولةٌ شعبيّةٌ منتشرةٌ بين الليبيّين، يعيّرون بها الرجل الذي لا يملك سلطةً على النساء اللّائي يتبعنه، وهو إلى ذلك يقدح في أخلاق النساء أنفسهنّ.

(١)

آه أهلًا، لقد جئت في الموعد المناسب. أشكرك على رغبتك في لقائي، أخبرتني المدام بمدى لهفتك على معرفة ما أودّ البوح به، لا داعي إلى الخجل. زينب تغطّ في نومٍ عميقٍ. وقد جهّزتُ الجوّ المناسب لفِلمنا. هل وقع اختيارك على اسمٍ معيّنٍ؟ آه يجب تصوير القصّة قبل ذلك. أنا لا أفهم في الأفلام كثيرًا. أحبّ مشاهدتها، ولكنّ خبير العائلة هو العبسي، أنا الخبّاز. انتهيتُ الساعةَ من تزيين كعكة البرتقال والليمون. لحظة سأحضر لك كرسيًا، لنجلسْ معًا في الحديقة: شاي أم قهوة؟ أنا أحبّ الشاي بعود القرفة، كما كانت تعدّه زينب في أيّام زواجنا الأولى.

جهّزتُ نفسي جيّدًا لهذا اللقاء. نظّفتُ البيت، ومسحتُ الغبار عن الصور واللوحات والأثاث، ولمّعتُ زجاج النوافذ والمصابيح ليكون كلّ شيءٍ جاهزًا لمغامرتك. استيقظتُ فجرًا ودخلتُ في روتيني. ارتديتُ قميصي الذي أهدته إليّ المدام. تمعّنتُ في تفاصيله وخطوطه الورديّة التي تتقاطع مع الخطوط البيضاء. تحسّست جلدي ودوّرت إصبعيَّ الإبهام والسبّابة حول الكمّ، نزعتُ الشاش عن إصبعي الخنصر بعد يومين من صبغه. غنّيتُ مع الشابّ خالد عن بختة. تزحلقتْ يدي وهي تضغط على ضلوعي، لأطمئن على وجودها جميعًا في مكانها الصحيح. شعرتُ لوهلةٍ بأنّني أخطأت العدّ، ربّما يكون هناك ضلعٌ ناقصٌ، ربّما هو ذاك الضلع الذي اختلسه الله من آدم وهو نائمٌ.

عندما رنّ جرسُ البيت معلنًا حضورك، أسرعتُ في ارتداءِ حزام العبسي وضغطته على جسدي. لأكون صريحًا زاد تعرّقي كلّما اقتربت المقابلة، ولا أعلم، حتّى الآن، ما الذي يمكنني قوله وما الذي يجب عليّ تركه جانبًا؛ لهذا أعتذر، أوّلًا، عن أيّةِ مشاكل في سردي لقصّتي. هيّا إلى سقي النباتات، وتناول الكعك، ولنتحدّث عمّا أخبرتك به المدام.

(٢)

كانت عضلاتُ يدي مشدودةً، بينما كنتُ أحاول خَبز رغيفٍ جديدٍ، في زحمةِ أيّام الصيف الأولى، أطرد به ذباب فكرةٍ سوداويّةٍ أكلتْ دماغي في تلك الظهيرة. وجدتُ الوصفة في كتابٍ قديمٍ لوالدي كُتِب بالإيطاليّة، وظلّت الوصفة حبيسة المكتبة، وحيدةً بين كتب زينب -التي تجمعها كدودةٍ- إلى أن فكّت المدام الشفرة بترجمتها. المدام ملاكٌ ربّانيٌّ نزل عليَّ في أيّام بحثي عن خيطٍ يعزّز ثقتي بنفسي رجلًا وخبّازًا. حاولت مع هذه الوصفة مرّاتٍ عديدةً، حتّى نجحت في إنتاج رغيفٍ مثاليٍّ. في أحيانٍ كثيرةٍ، واجهت مشاكل مع نوعيّة الدقيق. وفي أحيانٍ أخرى، مع درجة حرارة الماء، عدد ساعات التخمير، أو حتّى درجة الحرارة داخل البيت. مشاكل عديدة كانت تُخرج لي أشكالًا وأنواعًا مختلفةً من الخبز، رميتُ بها إلى سلّة القمامة. كنت أعلم أنّه ليس الرغيف الذي أريد. كلّها لم تكن بلذّة «الشيباتا» الذي كان يخبزه والدي ولم يسمح له الوقت ولا المزاج بأن يلقّنني إيّاه. عندما خرج الرغيف بالرائحة التي استدرجتْ ذكريات طفولتي، وبالطعم الذي جرى على لساني أوّل مرّةٍ منذ عشرين عامًا، قفزت من شدّة الفرح، وفي اللّحظة ذاتها رنّ الهاتف في الصالون، فركضتُ كي أرفع السمّاعة. ولكن سرعان ما ذكّرني رنينه بحادثة الأمس فجلستُ على الكرسيّ بقرب طاولة الهاتف. كان إصبعي الخنصر ينهشني طيلة الصباح وأنا أفكّر فيما حدث بيني وبين العبسي، وظلّ ينهشني حتّى وأنا أعجن الخبز، وهو أمرٌ نادر الحدوث. قاومتُ حكّه، لكن عندما تضخّم رنين الهاتف وارتفع كدتُ أمزّق جلدي من الحكّ، تسرّب العرق من جبهتي، وبدأت في طرق ركبتي بيدي اليسرى. وفي الأخير رفعتُ السمّاعة قبل أن يصمت الجهاز. ومع قليلٍ من التشويش، استطعت تبيّن صوتٍ ضفدعيٍّ كان للعبسي ابن عمّي يقول لي:

- ميلاد أيّها الخراء، أين ذهبت أمس يا صنم؟

- عبد السلام؟

- لا، شبحي بعدما ناكني الصداع والكلح.

- آسف، لكنّي تذكّرت شيئًا مهمًّا كان عليَّ فعله.

- لقد تركتني بلا سجائر.

- أتأسّف يا عبسي، كان أمرًا مهمًّا جدًّا.

- حسنًا، ليس هذا سبب اتّصالي بك، أتّصل بك الآن من البدّالة وليس لديّ الكثير من القروش، اسمعني يا ميلاد.

- نعم أسمعك. اعتقدتُ أنّه سألني.

- أعرف أنّك تسمعني يا مغفّل، اسمع... إنّ سبب اتّصالي بك هو موضوعنا الذي حدّثتك به أمس.

أغلقت سمّاعة الهاتف في وجهه. كنت أعرف ما سيجري به لسانه من كلامٍ بعد جملته هذه، علاقتي به سادتها مشاحناتٌ عديدةٌ منذ طفولتنا، ولكن زادت حدّتها بعد أن صرّح لي، ولأوّل مرّةٍ، بما يظنّه بي وبحياتي في وجهي الخجول المنفعل والمختبئ وراء دخان السجائر وسحر بوخة النعناع التي يصنعها في برّاكته. تهربّت أسبوعًا من معرفة الحقيقة التي يتداولها الجميع. عدتُ إلى رغيف خبزي. وضعته على الطاولة بعد أن خفّت الحرارة التي تحثّ بخاره على الرقص في الفضاء. فتحته كجرّاحٍ، ببطءٍ، متلذّذًا صوتَه وهو يقطّع، ومخدّرًا برائحته التي ملأت المطبخ. تناولته وفحصت ثقوب الهواء التي نسجته. ضغطتُ عليه لأرى مدى طراوته ومرونته. ابتسمتُ عندما مرّ ببالي أنّ زينب ستقع في حبّه، ثمّ طردت المشهد الذي بدأ يتشكّل رغم ما يحمله من سكينةٍ إلى بشرتي، ألقيت يدي اليسرى فوق رأسي أهشّ ذباب كلمات العبسي.

في العادة، أتوق إلى كلّ يومٍ جديدٍ يدقّ بأشعّة شمس الصباح بابي. أفتح عينيَّ مع الفجر دائمًا، عند الساعة الخامسة بالضبط. أرفع نوافذي إلى أعلى حتّى تستطيع أشعّة الشروق التسلّل منها، لا أحبّ النوافذ المغلقة. أشرع في صناعة رغيف الفطور. أصنع بيْضي الفريد. المكوّنات ذاتها. لكنّني أضيفُ بعضًا من الكمّون، وأقلي كلّ شيءٍ على نارٍ هادئةٍ بزيت الزيتون أو الزُبدة. أحيانًا أتشجّع لصناعة كعكةٍ، أو أكون قد جهّزتُ عجين الكرواصون للخبز. عند السادسة والنصف أوقظ زينب لتتناول فطورها. أحيانًا أكون قد جهّزت لها ملابسها منذ اللّيلة الماضية. وفي أحيانٍ أخرى، أجهّز الملابس وأكويها في أولى ساعات الصّباح قبل إيقاظها. بعد وضع الرغيف في الفرن. لماذا أكوي أنا ملابسها؟ حسنًا، ليكن هذا سرّنا نحن الاثنين، زينب ليست جيّدةً في الاهتمام بنفسها. هي جميلةٌ ولطيفةٌ، وتحبّ نفسها أكثر من أيّ شيءٍ آخر. لكنّها تعيش في فوضى كبيرةٍ. إذا تركتها ساعاتٍ قليلةً في المنزل وحدها، أجد ملابسها لدى عودتي على منضدة المطبخ، وداخل الثلّاجة، وفي الحمّام، وتحت السرير، وسأجد كوب الشاي في أحدِ أرجاء البيت وقد صار وليمةً للنمل. وهي، بالتأكيد، لا تعرف كيف تكوي ملابسها. تستيقظ كأنّ اليوم قد انتهى، تسرع في الاستحمام، وفي تجهيز نفسها، وتتناول فطورها حتّى تكاد تخنق نفسها به، ولا تعرف بعدُ أنّ شيئًا من الجمال يكمن في البطء وفي أخذ الأمور بجديّةٍ أقلّ.

عندما أوقظها صباحًا، أترك قبلة على رأسها وأدعها تستعدّ، وأعود إلى المطبخ. أضع البيض على النار، وأجهّز إبريق الشاي. أُخرجُ رغيفي من الفرن ليبرد. أشغّل الراديو عن طريق المسجّلة القديمة، التي اشتريتُها من سوق الرشيد ذات يوم، وأبحث عن فيروز تغنّي للصباح. زينب تعشق فيروز. أنا لا أحبّها كثيرًا. أجدها حزينةً أكثر ممّا ينبغي. أحببت موسيقى الديسكو والريغي، وما وقعت عليه أذناي من موسيقى الرايْ. أفحص حرارة الرغيف الساخن، بينما يتسلّق بخاره من نافذة المطبخ تاركًا عضلاتي في ارتخاءٍ تامٍّ. لا يجب التلاعب بالرغيف وهو ساخنٌ أبدًا. يجب أن يرتاح دقائقَ. فاستواؤُهُ لا ينتهي بإخراجه من الفرن. بعد وجبة الفطور، أملأ كأسَيْ شاي إضافيّين، ونتحادث قليلًا. أشاكس زينب حتّى أحوّل عن جلدها توتّر التأخّر عن العمل، فأنا أعرف تمام المعرفة أنّها تكره الصباح كبقيّة الليبيّين. بعد الحديث أشغّل السيّارة. لديْنا سيّارة بيجو ٤٠٤ موديل ٦٩ مطليّةٌ بالتركوازي، ورثتها عن أبي. لقد بهت لون السيّارة وكذا روحُها التوّاقة إلى الطريق مع الزمن، لكنّها سيّارةٌ مقبولةٌ لم أستطع التخلّي عنها رغم ما تصنعه السيّارات الجديدة من شهوةٍ في صدري. أدع محرّك السيّارة يسخن، بينما أشعل سيجارة الصباح، مترقّبًا خروج زينب التي للأسف لم تتمكّن يومًا من تعلّم القيادة. لكنّي مع السنوات صرت معتادًا على مواعيد عملها. أسلّمها للمؤسّسة ثمّ أعود إلى البيت، أو أركن البيجو في وسط البلاد وأتمشّى في أزقّتها، أو أجلس بعض الوقت في مقهًى. أحيانًا يتعيّن عليَّ قضاء حاجةٍ، أو الذهاب إلى مكانِ عملي الحكوميّ للاطمئنان على سير مرتّبي، أو لتوقيع الحضور ومن ثمّ العودة إلى البيت. الأمر يتوقّف، دومًا، على جدولي الصباحيّ، ولكنّي في الغالب أنهي كلّ هذه المشاوير مبكّرًا قبل العاشرة. لدى عودتي إلى المنزل، أغسل الملابس وأواني الفطور، وأرتّب الصالون وغرفة النوم أو أيّ مكانٍ آخر وقع فريسةً لفوضى زينب. وكانت تلك الفوضى هي التي تُحدّد الوقت الّذي أقضّيه في ترتيب المنزل وتنظيفه، فقد يستمرّ ذلك دقائقَ أو ساعاتٍ، وقد أحتاج أحيانًا إلى يومٍ آخر أو يومين. أعتني بالنباتات. في الحديقة، لديَّ أزهار عبّاد الشمس، وهي قصيرة العنق، تحصّلت عليها من المدام. لديَّ أيضًا شجرة حنّاء، أو بالأحرى كانت لدى جدّتي، فورثها أبي منها. قطعتُ غصنًا منها وأنبتّه في بيتي الجديد. من هذه الحنّاء أصبغُ خنصري الأيمن ويدَي زينب وقدميها. في الحديقة السفليّة يوجد حبقٌ، صبّارٌ، نعناعٌ، إكليلٌ، وذينة وأزهار بنفسج، أحيانًا، أتشجّع لأتخلّص من كسلي كالغبار، فأزرع الطماطم والفلفل. وأحيانًا أخرى، أجهّز حبوب الذرة والبطيخ لزراعتها في الصيف، إن تذكّرت. عندما أنتهي من النباتات في الحديقة ونباتات الزينة في الشرفة التي تعلو «الجنان» بمترٍ واحدٍ، أنشر الغسيل على الحبل. لاحظت طوال حياتي أنّ النساء يكرهن نشر الغسيل، أو إعادة ترتيبه، لكنّي تعلّمت الهدوء والغوص في أفكاري عند فعل ذلك. أبدأ بنشر موتانديات(1) زينب الرقيقة والصغيرة، ثمّ موتاندياتي وهكذا. من القطع الصغيرة إلى الكبيرة. سرعان ما يأتي منتصف النهار،

قُبيل الضُحى، أجهّز إبريق شاي بالقرفة، ثمّ أقضّي ساعة أو ساعتين في مشاهدة التلفاز، ليس هناك الكثير لمشاهدته مع جهاز البثّ، أقلّب القنوات العشرين التي في متناولي، حتّى أجد ما يمكنني مشاهدته، مباراة كرة قدم مُعادة، مسلسلًا سوريًّا أو أتابع أخبار العالم. تأتي أيّام ولا أشاهد إلّا قناة الجماهيريّة. أتابع فيها مؤتمرًا أو خطابًا للأخ القائد. عندما يصيبني الملل، أنهض لأعدّ الغداء. أخرج من البيت لإحضار زينب، ثمّ نتغدّى. أقضي المساء في تجهيز خبز الغد، أو في صناعة الكعك والحلوى. في الليل ننشغل بمشاهدة التلفاز، أو الحديث، أو أذهب إلى برّاكة([2]) العبسي وأقضي بعض الوقت معه. هذا ما يحدث في العادة، لكنّ إيقاعي اليوميّ تغيّر تمامًا منذ أن صارحني العبسي بما يجول في خاطره.

(١)

آه؟ ليست هذه بداية قصّتي حسب ما أخبرتك المدام؟ أعتذر، فقد أخذني الحماس دون أن أدع لك مجالًا للأسئلة، أو للبحث عن بداية القصّة. أنا هكذا دائمًا. يتلعثم لساني ولا أعرف من أين أبدأ الحديث. ولكن عندما أتحدّث لا يمكن إسكاتي، تعلّمتُ ذلك من أخواتي.

إذَن، فلننطلق من البداية. أنا ميلاد الأسطى. كثيرون يقولون لي إنّني شبيه بالشابّ خالد حين كان نحيفًا، وحيدٌ وسط أخواتي. وُلِدتُ في الظهرة بأحد الأزقّة المطلّة على ساحة الكاتدرائيّة. قضّيتُ بها طفولتي وجرحتُ ساقي على إسفلت شوارعها. رأيتُ الروم يدخلون الكاتدرائيّة ونحن نذهب إلى المدرسة أيّام الآحاد، وقد شهدتْ ساحتها الأماميّة أيّام حبّي الأوّل. في الظهرة، أكلتُ ألذّ السندويتشات، ولعبتُ كرة القدم، وتسابقنا ننزل إلى الكورنيش حتّى نشهد البحر تتلاطم أمواجُه قرب بيوتنا. كان ذلك في نهاية الستّينات قبل أن تهبّ رياح التغيير، وقبل أن يمتطي الأخ القائد جوادَه بعامٍ، ليحرّر البلاد من العملاء والخونة والقواعد الأجنبيّة كما علّمونا في المدرسة. درستُ في الظهرة المرحلة الابتدائيّة، وصدحت بالنشيد الوطنيّ بكلّ رحابة صدرٍ في ساحة مدرستها وخرجت في مظاهرات طلابية ضد أمريكا والحركة الصهيونية واحتفالًا بأولِ جماهيرية. في الرابعة عشرة من عمري قرّر والدي وعمّي العودة إلى مسقط رأس جدّي في قرية بئر حسين، بعد أن ورثا أراضي واسعةً وجيّدةً تصلح للزراعة والحياة والمخابز، وبداية حياةٍ جديدةٍ في القرية التي كنتُ أزورها صحبة أبي لشراء جبن الريكوطا والمعصورة والزيتون والتمر من أقاربه. كان والدي يملك كوشة([3]) حجزتها الدولة نظرًا إلى موضعها الملاصق لمؤسّسةٍ حكوميّةٍ أرادت الحكومة توسعتها.

في سنّ الرابعة صرت ألعب مع أختي الصغرى. في الخامسة حاولتُ عقدَ صداقاتٍ في المدرسة وفي الحيّ، وقد نجحتُ مع الصادق أخي زينب، قبل أن نتفارق من أجل تفاهاتٍ. في السادسة أصبحت أجالس أخواتي الكبريات. لديَّ أربع أخواتٍ: واحدةٌ تصغرني سنًّا وثلاثٌ يكبرنني، في الثامنة بدأت أساعد أبي في الكوشة. وفي الخامسة عشرة سمح لي بتعلّم إعداد الخبز. أضاف إلى مهامّ تنظيفي المخبزَ وحملي شوالات الدقيق مهمّةَ عجن أسهل أنواع الخبز الشعبيّة، المحوّرة. كانت تلك أولى رغائف خبزي. في السادسة عشرة بدأت قصّة حبّي للخبز، بعدما أطلعني أبي على أسرار صناعته التي حفظها عن معلّمه الطلياني السنيور لويجي البانطييري. في الثامنة عشرة انتقل أبي إلى جوار جدّي والنبيّ والصحابة في الجنّة. مات بسرطان الرئة.

شهدت الكوشة على أحداثٍ سياسيّةٍ واجتماعيّةٍ في البلاد. في الأربعينات والخمسينات كان زبائنها من الطليان والإنجليز والمالطيّة يشترون من السينيور لويجي أرغفةً إفرنجيّةً: «باقيت» يحتاج إلى ساعاتٍ وتقنياتٍ مختلفةٍ لتحضيره. توست. خبز المداس الإيطاليّ ورغائف الخبز الصقلّيّ بالسمسم، والبريوش بالطبع. كنتُ أسمع حكاياتٍ عن كوشة السنابل الذهبيّة في تلك الفترة، كانت ضربًا من الخيال، لم يذق سكّان الظهرة وكازا لانجس وشارع البلديّة وبن عاشور ألذّ منها. تتلمذ أبي على يدي السينيور حتّى تمكّن من حلّ لغز اللذّة في هذا المكوّن الرئيس على سفرة الغذاء الليبيّة. كان السينيور يحمل محبّةً خاصّةً لأبناء البلاد، لذا سعى إلى تشغيلهم معه. قال لي أبي إنّه كان «صقلّيًّا من أصولٍ عربيّةٍ». لم أفهم علاقة الطليان بنا يومًا. في تلك الفترة كان الخبز علامةً على التفاوت بين طبقات المجتمع. فالطليان والبعض القليل من أبناء المجتمع الراقي من الليبيّين يشترون الأنواع الفاخرة، وبمحض الصدفة، كان أحد أبناء هذه الطبقة، جدُّ المدام، يشتري من كوشة أبي. أمّا بقيّة الشعب فكانوا يأكلون المحوّرة وخبز التنّور من أسواق الخبز الشعبية. في الستينات ومع ثورة النفط، صار الليبيون يحبّون الخبز الإفرنجيّ، وأصبح عددٌ أكبر منهم يقدرون على شرائه يوميًّا، من متعلّمين ومتطلينين وجنودٍ سابقين شاركوا في الحرب، والذين خفّت قوّة أسنانهم عن مضغ خبز التنّور البدويّ القاسي. في السبعينات، عاد السينيور إلى صقلّيّة، وانتقلت ملكيّة المكان إلى أبي. في البداية قال أبي إنّ السينيور عهد بالكوشة إليه حتّى يعود. لكن مع السنين تحوّلت الملكيّة إليه، قال لي العبسي، ذات مرّةٍ، في لحظة غضبٍ، إنّ أبي سرقها. سمعتُ قبل ذلك المقولة ذاتها من الصادق أخي زينب. استمرّ أبي في تشغيل بعض الأجراء الليبيّين وتشجيعهم على تعلّم أنواع الخبز المختلفة، إلّا أنّ قرار الأخ القائد الذي سعى فيه إلى أن يكون الناس شركاء لا أجراء، جعل أبي يُعجّل بطرد كلّ العاملين لديه، قبل أن ينقلبوا عليه، بتشجيع من عمّي محمّد داهيةِ العائلة. عانت الكوشة من قلّة العمّال، وصرت أنا وعمّي العاملين الوحيدين لدى أبي، بالإضافة إلى بعض أفراد العائلة المتوزّعين في بئر حسين ومنطقة بئر الأسطى ميلاد –يُقال إنّ جدّي الأكبر كان يملك

المنطقة كلّها، إلى أن سرق الإيطاليّون الأرض وحوّلوها إلى مزارع للّوز والعِنب والزيتون-، ظللنا على هذا النحو فترةً، حتّى جاء عمّي بفكرة تشغيل العمّال التونسيّين والجزائريّين، فهُم بحكم القانون لا يملكون شيئًا في البلاد. ومع قدوم العمّال الجدد، تراجعت جودة الخبز، وصارت السنابل الذهبيّة كأيّ كوشة أخرى في المدينة. ترك الناس اهتمامهم بالباقيت الفرنسيّ وخبز السمسم، إذ كانت عمليّة عجنهما وخبزهما مرهقةً، وسعر هذه الأنواع كان مرتفعًا قليلًا، والقائد أراد لسعر الخبز أن يكون موحّدًا في كلّ أنحاء البلاد، لهذا تحوّلت السنابل من كوشة أرستقراطيّة (باستشيريا ارتيجانالي كما كان يقول أبي) إلى كوشة شعبيّةٍ.

بدأت قصّتي مع الكوشة عندما تشاجر أبي مع عامل النظافة الذي طالب بأجرٍ أسبوعيٍّ أكبر، ضربه أبي وأخبره بأنّه لا يستحقّ حتّى أن يدفع له ما يدفعه، وأنّ ما يفعله هو توسيخ الكوشة وليس تنظيفها. في أيّام الصيف، كنتُ أعمل بدوامٍ كاملٍ. في أيّام الدراسة، كان أبي يكلّفني ببعض المهامّ قبل الدوام المدرسيّ أو بعده. كنت يوميًّا أكنس الأرضيّة وأشطفها وحدي، بالإضافة إلى مسح الأسطح، وكنت أيضًا أساعده في تنظيف الفرن من فترةٍ إلى أخرى. تعلّمتُ خُدَع التنظيف من أخواتي. في الكوشة كرهت العجينة المتساقطة التي لم يتساهل أبي يومًا في ضربي إذا تركت بعضها على الأرضيّة، يوميًّا ولأشهر كان إمّا يضربني أو يرفع صوته في وجهي. يطردني أحيانًا، ثمّ يطبّب جراحي برغيفٍ ساخنٍ فيه بيضٌ مقليٌّ أو تونة، يُعدّه بنفسه. كان أبي عصبيًّا ولا يحبّ الناس، إلّا أنّه كان لطيفًا مع العجين، يعامله بكلّ حبٍّ. أذكر موقفًا حدث بيني وبينه. كنّا الوحيدين في الكوشة فجرَ أحد أيّام الصيف اللاهبة، كان العرق يتصبّب من وجهي رغم أنّ الشمس لم تشرق بعدُ، أدور بالشطّافة في المكان، حتّى وقفت بجانبه وهو يجهّز الدفعة الأولى، التي أعدّها العمّال اليوم الماضي، لإدخالها في الفرن. راقبته وهو يضع اللمسات الأخيرة على الأرغفة، بشفرة حلاقةٍ حادّةٍ، كان غارقًا في وضع العلامات الخاصّة به على الأرغفة. لاحظ فضولي المشدوه إلى فعله الذي تتلألأ فيه حدّة الشفرة. جذبني إليه حتّى أصبح جسدي تحت جسده الضخم، قال لي:

- انظر، هذه العلامات هي توقيع الخبّاز. من المفترض أن يكون لكلّ خبازٍ توقيعٌ خاصٌّ به.

- هذا توقيعك؟

- لا، طبعًا، إنّه توقيع عَرْفي.

- العَرْف؟

- نعم، العَرْف هو معلّم الصنعة... كان عَرْفي إيطاليًّا وهذا توقيعه، لن تجد في أيّ مكان بالمدينة علامات على الخبز كهذه العلامات.

- لا أعلم.

- طبعًا لا تعلم، لست سوى طفل، هيّا خذ.

- الشفرة؟ قد تجرحني.

- إذا كنت ستقول ذلك كالفتاة، نعم ستجرحك. هيّا، أدخل الموسى ببطءٍ واصنع خطًّا متقوّسًا على مدى الرغيف كالذي صنعته.

- ماذا إذا خرّبتها؟

- ماذا إذا خرّبتها؟ هل تعتقد أنّ الهمج سيعرفون الفرق؟ إنّهم حمقى لا يفقهون شيئًا في الخبز.

- حاضر.

كانت تلك أولى ذكرياتي الحقيقيّة مع الخبز. كان ملمس العجين كحلوى المعجون، لطيفًا، وكان انغراس الموسى فيه كإصبع يخطُّ في رملٍ دقيقٍ. وتحوّل كرهي للعجين في ذلك الوقت، إلى حبٍّ ورغبة في المعرفة. إلّا أنّ أجمل ما في الأمر هو قول والدي: «يومًا مّا، ستكون أنت من يصنع الخبز». أحسّ أبي بالحميميّة في الموقف، فأراد أن يكسرها، التفت إلى الكوشة وصرخ في وجهي: «ألم تنته بعدُ من التنظيف أيّها الطفل الأحمق؟ هيّا إلى عملك، أريد منك أن تنتهي من العمل بسرعة».

(٢)

ماذا؟ لقد ضاع منّي خيطُ القصّة مُجدَّدًا؟ أعتذر منك، ولكن ما العمل؟ لقد عشتُ أجملَ أيّامي في الكوشة، وكلّما تذكّرتها، أسترسل في استعادة تفاصيلها دون أن أنتبه لمرور الوقت. لعلّ المدام أخبرتك ببعضها، فقد قصصت عليها كلّ ما أذكره عنها أيّام كنّا نتجالس في بيتها، أعلّمها صناعة الخبز والحلويّات، ثمّ نتناول الشاي وأسرد لها ما أعرفه عن حياة المخابز. لم أجد شخصًا شغوفًا بالخبز مثلها، إنّها نقيض زينب، زينب لم تحبّ كثيرًا قصصي عن الكوشة وعن أبي، كان حديثي

معها يدور في الغالب حول مشاكلها في العمل، أو حول الآخرين، كأن نتحدّث عمّا فعلته جارتنا لتُغضب زوجها الّذي يعلو صوتُه حديقةَ البيت كغول، ولكنّي لا أتذكّر أنّنا تحدّثنا عنّي لوقتٍ طويل. كانت هي المركز، وكانت حياتي تدور حولها.

كما أخبرتك، بعد المكالمة الهاتفيّة مع العبسي، حاولت الهروب من أفكاري فشرعتُ أتأمّل رغيفَ الخبز، حجمَهُ، رائحتَهُ، والنسيج الذي تشكّل في جوفه. ولطالما أفلحت في الهروب. هربت من الكوشة طيلة شبابي، ومن المدرسة والعسكريّة والبرّاكة، وهربت حتّى من نفسي. في تلك الظهيرة، لم يُجدِ هروبي. لاحقتني كلمات العبسي في كلّ شيء أفعله: في غسل الأواني، وأنا أغسل الصينيّة بالوراكينة([4]) والصابون، أتناول الكؤوس فتمرّ كلمات العبسي، أحاول نشّها كالذباب إلّا أنّها تعود عند غسلي وعاءَ العجين، أضع الوعاء على الرخام للتجفيف فيستمرّ عقلي في مناقشة المسألة، عندما لا يفلح الغسيل في ذلك، أذهب لترتيب بعض الملابس التي قطفتها من حبل الغسيل، أمسك موتاندي لي، أشدّه جيّدًا وأثنيه في المنتصف تمامًا، أكرّر العمليّة لأقسم النصف الجديد إلى نصفيْن، أتأكّد أنّ السروال الداخليّ مطويّ جيّدًا، كعامل في دكّان للملابس، القطعة الأخرى هي موتاندي زينب، قطعة ورديّة تسيّجها الدانتيلا وتوشّيها بعض الزهور، أضعها على الأرض وقبل أن أقسمها إلى نصفين تهاجمني فكرة أخرى: «ماذا لو كانت ترغب في ارتداء هذه القطعة بالذات؟»، أسأل نفسي، فأخشى الإجابة. أسارع في ترتيب الملابس كيفما اتّفق حتّى أهرب. أحاول الهروب إلّا أنّ المحادثة التي جرت بيني وبينه تحاصرني في زاوية بعدما أضع ملابس زينب في مكانها من الدولاب، أشتمّ رائحة عطرٍ رجاليٍّ، قد يكون عطري، ولكنّي أفقد ذكراي عن عطري، أشتُم هوسي بإلقاء زجاجة العطر في القمامة بعد الانتهاء منها.

- ميلاد، انتظر قليلًا، ثمّة موضوعٌ مهمٌّ أريد أن أحادثك فيه، إنّه يخصّك.

كانت ليلة ليلاء. سهرنا في برّاكة العبسي بالقرب من شجرة التين. تستظلّ البرّاكة بظلّ الشجرة المباركة منذ عهد أمّ جدّي الأولى، قبل أن يطلّقها الجدُّ الأكبر ويتزوّج غيرها. قطعة أرض بسيطة كانت من نصيب عمّي محمّد، بالإضافة إلى بيتٍ قديمٍ هدَمه وبنى بدلًا منه بيتًا عصريًّا أكبر وأوسع. في كلّ ليلةٍ يستقبل العبسي من أبناء الحيّ ما اختلف. رأيت فيها وجوهًا لم تتكرّر. كانت لعبسي شخصيّةٌ كوميديّةٌ جذّابةٌ تستقطب الشباب. فهو ملمٌّ بأحوال الحيّ، وبأسماء الأرواح فيه من العصافير الصغيرة حتّى الرجال الكهول والأشجار. كان نجم الحيّ، شكّ كثيرون في سلامة عقله، إلّا أنّني لم أجد عقلًا أسلم منه. لم يعمل بيده يومًا. كان ثائرًا على قوانين المجتمع التي تفرض عليه العمل. العمل الوحيد الذي أنجزه كان في «الكاصّة» بالكوشة. غير ذلك، لم أرَه يومًا يمسك معولًا،

أو مسحاة أو خبّاشة، حتّى أعماله التي يقتات منها، في فتراتٍ معيّنةٍ، كانت عبارة عن «أفاريات» سريعةٍ، وكلّ الأعمال اليدويّة التي يحتاج إليها كان يقحمني فيها بدلًا منه. كان مكتفيًا براتبٍ من مؤسّسة الصحافة، التي يعمل بها افتراضيًّا في القسم الإداريّ، إلّا أنّه كان يذهب إليها مرّةً واحدةً في الشهر، وأحيانًا يغيب أشهرًا، لم يكن صحفيًّا، ولم ينهِ الثانويّة العامّة مطلقًا. العبسي كان ذكيًّا. تمنّيت دومًا أن أكون مثله. كان يعرف كيف يتلاعب بالنظام، وكيف يتحصّل على حاجته التي يبتغيها. في تلك الليلة، سهر لديه «صنمان» – عبسي يحبّ أن يسمّي أصدقاءه بأسماء خاصّة كصنم، أبي جهل، هُبَل وغيرها- من أصدقائه «الأعزّاء»، كنت قد تركت السهر عنده منذ شهرٍ، إلّا أنّ انجذابي الغريب إلى عوالمه جعلني أحنُّ إلى قضاء تلك الليلة عنده. يقضي السهرة كلّها يشرب البوخة، التي خمّرها قبل أسبوع، ويحكي القصص والحكايات والأساطير. كان دومًا يروم إحراجي ببعض القصص الشخصيّة بيني وبينه، لينهي كلّ قصّة قائلًا: «والله نيّة أنت يا ابن العم»، أبتسم، وأشعل سيجارة «رياضي» وأتجرّع كأسًا من البوخة، أو أنصرف إلى تجهيز وجبة المكرونة للمجتمعين. في تلك الليلة أيضًا، قرّر العبسي أن يطرد صديقَيه مبكّرًا، كان له ابنُ خالةٍ يكنّ له معزّةً مجنونةً، كاتب ومخرج كبير في البلاد، فرّ من القرية منذ زمن. ذكر «الأصدقاء» قصّة الفيلم الذي انتقد فيه أهل القرية، ولم يتورّع عن ذكرهم بأسمائهم. لكنّني شككت في كونه السبب الذي دعاه إلى أن يقف مخمورًا وسط الغرفة مدخّنًا سيجارته، ورافعًا وسادته ليطردهما بها. رأيته طيلة الوقت يحتال ليتخلّص منهما، كأن يوجّه إليهما إهاناتٍ شخصيّةً، أو يخبرهما بأنّه لن يقبل بعد الآن بأن يشربا ويدخّنا ويأكلا مجّانًا في غرفته، وعليهما دفع إيجار السهرة عارفًا أنّهما تعيسان يحتالان على الزمان لشراء سجائرهما. طردهما بحجّة كونهما لم يدفعا له ثمن «الكارطة» التي اشتراها للعب الورق. في الغد، سيعود الأصدقاء أصدقاء وسيأتي كلٌّ منهما لتمضية الليلة معه. وقبل أن أخرج، معتقدًا أنّي من ضمن المطرودين، ناداني.

- ماذا يا عبسي؟ هل تحتاج إلى سجائر؟

- آه طبعًا، أحتاج إلى بعض السجائر، ولكن أريدك أن تفتح لي أذنيك جيّدًا يا ابن العمّ، اجلس بجانبي. بوخة؟

- لا شكرًا، لقد شربت ما يكفي هذه الليلة.

- كأسٌ واحدةٌ كالعادة، تعجبني قناعتك يا ابن عمّي. واحدةٌ من أمورٍ كثيرة تعجبني فيك. قناعتك، وطيبتك وروحك الرياضيّة وسجائرك. إلّا أنّ بعض الأمور لا تعجبني، أو بالأحرى، لا تعجب الناس في هذا الحيّ. وإذا أخذت رأيي، لا تعجب الناس في البلاد كلّها، وقد صرت نكتة يتداولونها.

- نكتة؟ لا أفهم.

- نعم يا صنم نكتة، حاولت أكثر من مرّة أن أخفي الأمر عنك، حتّى لا أجرح مشاعرك، لكنّ شهرتك اتّسعت. سمعت أحدهم يقول، ذات مرّة، عن هنادي ابنة أختك، وهي تخرج إلى الجامعة بالبنطال: «عيلة وخالها ميلاد».

- عائلة وخالها ميلاد؟ ماذا تعني؟

- تعني أنّ الناس هنا يرونك ديّوثًا لا غيرة لديك، أعرف أنّ أختك تسعى بكامل قدرتها إلى تربية أطفالها وحدها، لكن أين سلطتك يا ميلاد؟ أنت الآن في مقام أبيها. أنت ربّ العائلة.

- ابنة أختي؟ إنّها محترمة، وتسير في الشارع وعيناها إلى الأرض.

- نعم، ولكنّها ترتدي البناطيل وتذهب إلى الجامعة للدراسة في كلّيّة الفنون والإعلام. إنّها كلّيّة مليئة بالساقطات، أخاف عليها من استغلال أبناء الحرام، ألا تخاف عليها أنت أيضًا؟

- نعم، لكنّني أثق بها، كما تثق بها أمّها.

- هل رأيت؟ لهذا أردت مصارحتك يا ابن عمّي، لن يرضى الحاج مختار رحمه الله بالحال الذي وصلت إليه أسرته. أبي حاول أن يقنع أختك صباح لكنّها طردته من المنزل، هل يعقل ذلك؟ أن تطرد رجلًا عجوزًا؟

- لا يعقل، وقد أخبرتها بأنّه، مهما يكن من أمرٍ، فهو عمّها ولا يصحّ أن ترفع صوتها عليه، حتّى وإن كان مخطئًا.

- نعم الوالد مأبون لكنه لم يكن مخطئًا. يا ميلاد، افتح لي عقلك قليلًا.. أرجوك، نظّف حظيرتك من التبن ودع غباءك المعتاد جانبًا وركّز معي، نحن عائلة واحدة، وأيّ إهانة لفرد من العائلة هي إهانة لاسم العائلة بأكمله.

- والكوشة؟ قلتُ وقد احمرّ وجهي.

- ما بال الكوشة؟

- والدك سرقها منّي. قلتُ وخرجت.

كانت تلك المرّة الأولى التي يصارحني فيها العبسي. أسبوع قبل المصارحة الموجعة، التي قرّرت فيها ألّا أعود بعدها إلى البرّاكة ما حييت. هل عدت؟

آه نسيت، لنعد إلى البداية مجدّدًا.

(١)

في الكوشة ترعرعت على الصبر، اللطف، التركيز، احترام الوقت، وتعلّمت قوّة الملاحظة. مازلت أذكر أوّل رغيفٍ خبزته. كنت أشاهد أبي كعادتي، أضعُ ذقني فوق عصا الشطّافة وأراقبه من بعيد منغمسًا في علاقة حبّه. كان ينفخ الدقيق العالق بيديه، ويدع العجين لينتفخ بهدوءٍ، شعاع الشمس يتخلّل نافذة السطح الزجاجيّة ليشكّل ظلال المكان، ويتقاطع مع سرب الدقيق المتناثر في الهواء بعد أن نفضه. يغسل يديه. يتحسّس الماء الدافئ المتدفّق، وهو ينظر إلى الشعاع يراقص الذرّات البيضاء، ينظّفهما، يمسح في فوطة الموعد، أحسّ بوجودي واهتمامي بما يفعله، ناداني:

- ميلاد، تعال هنا، أحضر كيلو من الدقيق، وأحضر لي بعضًا من خدّوجة، هناك فازّو صغير جهّزته لك.

ركضتُ كأيّ فتًى سعيدٍ أدرك أنّ الدقائق القادمة من حياته سيثمّنها بالذهب. ثمّة لحظاتٌ تعيشها مع والدك مهما تكن خشونته، قساوته عليك، أو انعدام تصريحه بحبّه لك، تعرف أنّها تعبيرٌ عن الحبّ الغارق داخل قلبه. مازلتُ حتّى الآن، كلّما صنعتُ رغيفًا، أشعر بأبي إلى جانبي يضع يديه الضخمتين المليئتين بالتشقّقات بلونهما الحنّائيّ المخضّب بالدقيق، وهو يعلّمني كيف أصنع رغيفي الأوّل. أحضرت الدقيق وبجزءٍ من خدّوجة -خدّوجة هي الخميرة التي يعتني بها والدي يوميًّا منذ الأربعينيّات، كانت أولى مهامّه في صناعة الخبز عند معلّمه الإيطاليّ، كان اسمها ذات يوم فالنتينا-، وطرت أركض راقصًا نحوه. سلّمتُه المكوّنات. نزع عنه مئزره وألبسني إيّاه. كنت كفأرٍ داخل المئزر، صغيرًا ورفيعًا، كدتُ أرقص داخله، أجلسني على الكرسيّ قبل أن نبدأ. جلس هو القرفصاء وحدّق في وجهي، ووضع يديه على يديَّ. كان يحاول أن يوصل ما يشعر به إليّ.

- هل تعرف ما هو الممتع في صناعة الخبز؟

- ماذا؟

- لديك أربعة مكوّنات، يمكنك أن تصنع بها العجائب، لا وجود لطعامٍ أساسيٍّ كالخبز، وفي مثل لذّته. يمكنك أن تصنع منه أشكالًا وأطعمةً مختلفةً ومتباينةً، بأربعة مكوّنات بسيطة يمكنك أن تجدها أينما ولّيت وجهك. كلّ ما تحتاج إليه دقيقٌ، ماءٌ، خميرةٌ وبعضٌ من الملح، فقط.

- كيف؟

- السرُّ يقع هنا -وأشار إلى قلبه- وهنا -وأشار إلى عقله- وهنا -وأشار إلى يديه-. أمّا العقل واليدان، فيمكن لألف كوّاش أن يستخدموا الطريقة ذاتها، وبالتفاصيل ذاتها، إلّا أنّك ستجد نفسك تفضّل خبزًا على آخر. ما السرّ؟ القلب يا ميلاد، بعضهم لا يضع حُبّه في الخبز. الحبّ هو المكوّن الخامس. ما هو المكوّن السادس؟

- آه... الفرن؟

- لا أيّها الطفل الغبيّ، الفرن ليس أكثر من أداةٍ. إنّه الهواء الذي نتنفّس، فالخبز في مرحلة العجين كائنٌ حيٌّ مثلنا، يتنفّس، يتحرّك، إنّه مليءٌ بالمشاعر، قد يغضب العجين فيفسد خبزك، قد ينمو جيّدًا، قد ينمو مشلولًا.

- حسنًا، الدقيق، الخميرة، الماء، الملح، الحبّ والهواء. أنا مستعدّ.

- لا لست مستعدًّا، ثمّة مكوّنٌ سرّيٌّ، وهو ما يمنح المذاق المختلف في الخبز، هل يمكنك التخمين ما هو؟

- ما هو؟

- إنّه الوقت، الوقت الذي يأخذه العجين في التفاعل بعد عملك عليه مهمٌّ جدًّا، يجب أن يكون دقيقًا جدًّا، لكلّ نوعٍ من أنواع الخبز وقتٌ معيّنٌ ليصنع الطعم داخله. يجب ألّا تخبز خبزك قبل انتهاء الوقت. ويفضّل ألّا تخبزه بعد انتهائه بوقتٍ طويلٍ. إنّ الخبز مثلنا، قد ينفد ماؤه.

- هل ينفد ماؤنا نحن؟

- نعم، لهذا نشرب كلّ يومٍ.

- هل يمكنني أن أضيف الماء إلى العجين إذا جفّ؟

- لا طبعًا، على غرارنا، فماء الخبز في البداية هو الماء الوحيد الذي تضيفه إليه.

- حسنًا، هل هناك المزيد؟

- شيءٌ واحد فقط، لكلّ نوع من أنواع الخبز مقادير معيّنة. ضع في حسبانك الكمّيّة التي تحتاج إليها، واجعل الدقيق المكوّن الذي ترجع إليه في حساب بقيّة المكوّنات، تعلّمتم النسبة المئويّة في درس الحساب؟

- نعم، كان صعبًا عليَّ فهمها في البداية، ولكنّي تمكّنت منها.

- إذَن، سيكون من السهل عليك فهْم ما سأقول... ميلاد، يا ولد، أنصت إليّ. ابتداءً من الغد، لا تأتِ إلى الكوشة إلّا وقلمك وكرّاسك معك، أنت ابني وسترث نصف هذه الكوشة من بعدي مع عمّك، ولهذا عليك أن ترث وصفات الخبز التي أختصّ بها، عمّك بزنسمان وكلّ ما يكترث له هو المال، أخي وأعرفه، ولهذا عليك يقع عائق الاهتمام بجودة الخبز. الثانية أهمّ كثيرًا من الأولى. لا يهمّ إن كان الكوّاش بكوشته الخاصّة بقدر ما يهمّ أن تكون لديه وصفاته الخاصّة. هذا ما يميّز كوشة السنابل الذهبيّة، لقد ورثت من عَرْفي الوصفات، وجرّبت بعض الوصفات الأخرى.

- أين هي وصفاتك؟

- إنّها هنا في عقلي.

مازلت أحفظ تلك المحادثة عن ظهر قلبٍ، خزّنتها وعتّقتها وأعدتها على نفسي آلاف المرّات. أخذت كيلو من الدقيق وصببتُه على مصطبة العمل، أضفت إليه الملح وخلطتهما جيّدًا حتّى يختفي الملح داخل الدقيق.

- اصنع نافورة، هكذا.

قال وهو يحرّك الدقيق بإصبعيْه السبابة والوسطى، «لا تخلط الخميرة بالملح مباشرة، إنّهما كالرجال والنساء»، يحرّك يدي، حتّى أصنع النافورة، «الخميرة تخلطها بالماء أوّلًا، ستحتاج إلى أن تعرف ما إذا كانت حيّةً أم لا. إن كنت تشكّ في ذلك، دعها تختلط بالماء، واتركها دقائق، إذا وجدت فقاعات، فالحمد لله»، يتابع شرحه، بينما أخلط خدّوجة مع ثلثيْ مقدار الماء من الدقيق. ثمّ أسكب الخليط قليلًا وأخلطه بالدقيق وهكذا، حتّى يتشكّل العجين. بعد ذلك أخذ منّي عجيني ووضع

باطن يده عليه، وبدأ يسبكه. «أحيانًا، تحتاج إلى أن تسبك العجين حتّى يتشكّل جيّدًا. في بعض الوصفات لن تحتاج إلى ذلك، يمكن للوقت أن يتكفّل بالسبك بدلًا منك، ثمّ إنّ العجّانة ستحمل عنك همًّا كبيرًا، لكن، إن أردت أن تكون مثلي فلا تعتمد عليها كثيرًا. الخبّاز الماهر يعرف كيف ينتج الخبز دون حاجة إلى الآلة».

- جيّد، دعها الآن تتنفّس الهواء، نضعُ قطعة من القماش لنغطّيها وتتنفّس هواء الوعاء فقط. الهواء الكثير يجفّفها، أمّا انعدامه فقد يقتلها، حبّك لها لا ينتهي بأن تتحكّم في تنفّسها، وترافقها، بل أيضًا في الجوّ المناسب الذي توفّره لها، فكّر ما الذي سيجعلها برفيتّو، أي كاملة والكمال لله.

أمضينا ذلك الصباح ننتظر العجين ينفج. أجلسني أبي بجانبه كأنّ الوقت حان ليسلّمني وصيّته، هو اليوم الذي سجّل فيه بلوغي. وضع برّاد الشاي على العافية(5)، وسلّم رئيسَ العمّال مهمّةَ العمل. كان عمّي يداوم في النصف المسائيّ من اليوم، لهذا كانت رئاسة العمل تنتقل إلى الأسطى اخميّس، من مدينة تستور بتونس، وهو أيضًا قد ترعرع على صناعة الخبز. أجلسني وأخرج سيجارتين، سلّمني إحداهما، كنت ما أزال مراهقًا وقتها، تردّدت يدي في الإمساك بالسيجارة، وظللتُ أنظر إليها متوخّيًا الحذر، قال لي:

- هاك دخّن، أن تدخّن أمامي أفضل من أن تدخّن مع أناس لا أعرفهم.

- لا أحبّ التدخين.

- لا تكذب عليّ يا ولد، الفترة الماضية كنت أفقد بعض السجائر من علبتي. السرقة والكذب حرام أكثر من التدخين نفسه، فهمت؟

- حسنًا.

كنت وقتها أسرق بالفعل سيجارةً من علبة سجائره بين حين وآخر. كان يدخّن سجائر سبورت (أو ما أصبحنا نطلق عليه رياضي). أشعلت سيجارتي ويدي ترتجف أمامه. كان أبي ذلك الرجل الذي قد يتسامح مع أيّ شيءٍ إلّا الكذب والسرقة. راح يدخّن سيجارته وهو يتأمّل المشهد ونحن جالسان أمام باب الكوشة في صباح الجمعة. كانت الجهة المقابلة للكوشة واحةً من النخيل الباسق تحوم كجدارٍ حول «سواني» أبناء عمومته، لم أذق ألذّ من برتقال تلك الحدائق، قبل أن يمتدّ البناء الخرسانيّ في أرجاء المكان كما يمكنك ملاحظته الآن، ليقتلع أشجار البرتقال البوصرّة والمسكي

والكيني والشفشفي. كانت الشمس تصعد بهدوءٍ نحو الشروق، وتصعد معها هيبتي واحترامي لأبي. عندما سحبتُ النفس الأوّل من السيجارة تسرّب الارتعاش من يدي وصرتُ قادرًا على الجلوس بثباتٍ متأمّلًا وجهه الذي يشي بتعبٍ مضنٍ خلّفته الأيّام.

- لا تسرق أبدًا يا ميلاد ولا تكذب، أن تعيش كما أنت خير لك من الدنيا وما فيها وأنت كاذب، سارق، مخادع ومنافق.

أخبرني، ومضى يقصّ عليّ أولى تجاربه في صناعة الخبز. كان جدّي صديقًا للسينيور الإيطاليّ يعمل معه بمزرعته في زراعة القمح والزيتون. وجد السينيور أبي يساعد جدّي في الاهتمام بالمزرعة، فأخذه منه وأخبره بأنّه سيذهب به إلى المدينة ليتعلّم صنعة الخبز. كان أبي في الخامسة عشرة حينها. مضى يحكي عن دهشته من منظر المدينة عندما رآها أوّل مرّة، ومنذ ذلك الحين نسي أن يعود إلى قريته الصغيرة. كان في البداية يعود يومين في الأسبوع، ثمّ أسبوعًا في الشهر، ثمّ يومًا، ثمّ تزوّج ابنة عمّه، أمّي. وعاش في المدينة، بالظهرة. عاشر فيها الإيطاليّين وتعلّم لغتهم، ولبس مثلهم وذهب إلى دور السينما التابعة لهم، ودخّن من سجائرهم وشرب قهوتهم. صادق العرب والمالطيّين والإيطاليّين واليهود، كان عمله في الكوشة خبّازًا وبائعًا يساعده على إنشاء الصّداقات.

- اللي متعوّد على خبزتك، وين يتوقّك يجوع. عوّد نفسك على خبزك، سيعتاد الناس عليه يا ميلاد.

- ماذا يعني هذا؟

- ستعرف عندما تكبر، المهمّ يا ولد، لقد لاحظت فيك ميوعة، يجب أن تسترجل. أخواتك سيحتجن إلى رجل بجانبهنّ قريبًا، أنا كبرت وأصبحت لا أتحمّل حرارة الفرن والعمل طيلة النهار في الكوشة.

- أنا بجانبهنّ دومًا، أتحدّث معهنّ، يومها علّمتني صفاء كيف أصنع قرينات لشعر أسماء.

- ماذا؟ اللهمّ صبرك. يا ولد يا غبيّ، أنت رجل، لا يجوز للرجل أن يجالس النساء، إنّهما كالملح والخميرة، ألم تفهم؟ بل وتتمادى وتلمس شعر أختك.

- آ...آ...آسف، ليس قصدي.

- هل تفعل أمورًا أخرى معهنّ؟

- لا لا شيء آخر.

- ماذا أخبرتك عن الكذب؟

- آسف، نعم... أجلس معهنّ أسمعهنّ يتحدّثن عن الجارات والحياة في «السانية»، ونصنع الكعك، وأشتري لهنّ القطن النسائيّ.

- ماذا؟ قال أبي.

في ذلك اليوم، تحصّلت على أكبر صفعة في حياتي، أكبر من صفعات المادونّا وضرباته. جذبني والدي إليه وأخبرني بأنّني أحتاج إلى أن أسترجل وأترك رفقة أخواتي، «رافقهنّ كحارس أو أب فقط»، وأمرني أيضًا بأن يراني طيلة اليوم في الكوشة، أن أدرس فيها وأكتب واجباتي، وألّا أعود إلى المنزل إلّا للنوم أو الأكل أو لقضاء حاجيات المنزل. كنت أقرأ في عينيه خيبته وتحسّره على إنجابه رجلًا مثلي، كأنّه السبب الرئيس في ذلك. لقد حاول أبي أن ينجب لي أخًا آخر لكنّ أسماء أفشلت خططه، كان ينبغي عليها أن تكون ذكرًا، إلّا أنّ عائلتنا جرت فيها ولادة البنات. لأبي ستّ أخوات هو الأوسط بينهنّ، وله أخ وحيدٌ أصغر من الجميع. حكت لي أمّي أنّ جدَّيَّ هما الولدان الوحيدان لجدّي الأكبر من أصل خمس عشرة بنتًا من زوجتيْن. لهذا السبب، كان أبي يتحسّس من عرق النساء. من ناحية، كان يتمنّى ألّا أقول له ما قلته، ومن ناحية أخرى، كان يلوم نفسه، وقد نفر الدم من خدّه الورديّ المختبئ داخل جلده المحروق من حرارة الفرن. لم يكسر الصمت بيننا ذلك الصباح سوى رنين جرس المنبّه يعلن أنّ عجيني جاهز للتشكيل.

(٢)

كان عليَّ ذلك اليوم أن أستنتج القوانين التي اتّفق مجتمعنا على وضعها، ومنها أنّ العفويّة في الحديث عمّا يجول ببالك قد تُشكّل خطرًا عليك وعلى من حولك. تعلّمت الدرس الخطأ، تعلّمت أن أصمت، لأنّني في الوقت ذاته لم أرد خيانة وصيّة أبي في هجران الكذب والتمويه. حاولت مرارًا عديدةً أن أتغلّب على عاداتي، التي اكتسبتها من أخواتي منذ نعومة أظافري، لكن دون جدوى. ذات مرّة ضربتُ أختي الصغرى فقط لأنّني وجدت لديها رسالةً من أحد الأولاد الذين يدرسون معها في المدرسة، لكنّ ارتعاشي من الفعل جعلني أتعرّق من شكل الوحش الذي يختبئ داخلي. الحياة صعبة في وطننا. قالت لي المدام مرّةً إنّ المرأة في القرى الليبيّة تعيش حياةً سيّئةً. قصّت لي قصصًا عن

نساء تعرفهنّ تعرّضن للضرب، الاغتصاب، القتل أو لعاهات مستدامة من إخوتهنّ أو أزواجهنّ فقط لكونهنّ نساء، وأنا مدرك أنّ هذا الأمر حقيقيّ. أنا لست مثقّفًا، ولست مفكّرًا، حاولت مرارًا كثيرةً أن أكون كذلك بقراءتي كتبَ زينب، لكنّني فشلت في ذلك. إنّ استيعابي للحياة وللمصاعب التي تعيشها المرأة لا يجتاز تجاربي الشخصيّة وتربيتي مع أخواتي وشرودي في التفكير، وربّما في تركيزي على التفاصيل الصغيرة. لا أريد أن أنهك كاهلك بعدد المرّات التي بكيت فيها فقط لأنّني لم أستطع أن أكون رجلًا حقيقيًّا كما أرادني أبي. كم مرّة شعرت بأنّ أمرًا مّا سيّئًا بداخلي، روحًا شريرةً، شيطانًا، جِنّيًا يتلبّسني يحاول مَحْوَ رجولتي. غير أنّي، أيضًا، لم أفهم يومًا لماذا يكون اهتمام رجلٍ ما بالقطن النسائي أمرًا معيبًا. شكوت إلى الله في صلاتي مرارًا، ودعوته أن يدلّني على الحقيقة.

في الأيّام التي سبقت نقاشي الثاني مع العبسي، قضّيت وقتي في البحث عن مخرجٍ من الورطة، ووجدت الحلَّ الذي أقنعت نفسي به. كنت أعيش داخل حلقة نيرانٍ لا مخرج منها سوى القفز داخلها، كانت ثاني محاولات انتحاري. عدت تلك الليلة إلى البيت أحارب دمعي، الذي أراد أن ينهمر. أردت طيلة الطريق أن أرتمي في حضن زينب، وأشكو إليها قسوة العالم، دخلت وفتحت الأضواء أبحث عنها، لم أجدها داخل المنزل. حاولت تذكّر ما إذا قالت إنّها ستبيت عند أهلها أم لا. ساورتني شكوك حيالها، ما الذي يمكنها أن تفعله حينئذٍ؟ إنّها أقرب إنسانٍ إليّ، وهي تعرف أنّني لن أشكّ فيها أبدًا، ولهذا، من الممكن أن تخونني بسهولةٍ دون أن أدرك. على السرير، ألقيت جسدي بملابسي التي تشيع منها رائحة السجائر والبوخة. وحاولت النوم لكن لم أجد إليه سبيلًا. كنتُ أتقلّب كلّما رأيت الأفكار تتجسّد أمامي كامرأةٍ عاريةٍ تحاول إغوائي. نهضتُ، بحثتُ في المخزن عن حبلٍ. كنتُ أرمي الأشياء على الأرض بحثًا عنه، وجدته أخيرًا. كان ملمسه قاسيًا يكاد يجرح كفّي. أخذت الحبل، ذهبتُ إلى غرفة غزالة، وربطته جيّدًا في الثريّا. أمسكته بيدي وشددته جيّدًا لأتأكّد أنّه لن يتمزّق، شاهدت مرّةً في التلفزيون محاولات انتحارٍ فاشلةً، كان فيها ضعف الحبل من أهمّ أسباب فشلها. صعدت فوق كرسيّ مصنع اللدائن، كنت أرتعش. وقفت هناك نصفَ ساعةٍ تقريبًا وأنا متردّدٌ، تذكّرت كلام الشيخ، في إحدى صلوات الجُمع، أنّ المنتحرين لن يدخلوا الجنّة. خفت أنّ الله لن يراني. حلمت مرارًا بمحاولتي الحديث معه، وهو يدير ظهره لي. لطالما فكّرتُ في الانتحار ولأتفه الأسباب. أوّل مرّةٍ فكّرت بها في الانتحار، كانت في العسكريّة، ثمّ عندما رفضت زينب أن تحادثني لأيّامٍ ثلاثةٍ. هربتُ من فكرة الطلاق إلى فكرة إنهاء حياتي. عندما قرّرت، أخيرًا، أن أضع الحبل حول عنقي، تبوّلت على نفسي. تسلّل البول لاإراديًّا إلى سروالي الجينز، كان سروالي المفضّل، وأردت أن أموت وأنا أرتديه. لكن الآن، ها هو مبلولٌ ورجلاي ساخنتان. تقزّزت من بولي، ورفعت قدمي حتّى لا أبلّل البساط تحتي. تذكّرت أنّي غسلته قبل أسبوعٍ، وكنسته

في الصباح فقط، ولم أرد أن يتّسخ سريعًا. تسلّلت إلى عقلي فكرة أنّ عليَّ تغيير سروالي. سينبغي عليَّ أن أغتسل مجدّدًا. المشكلة أنّ الشامبو كان في طريقه إلى النفاد، وسأحتاج إلى الخروج إلى الدكّان لشراء علبة جديدة. كان الخمر لا يزال يلعب بدماغي. شعرت بالدوار من رائحة بولي. نزلت من فوق الكرسيّ مسرعًا حتّى لا يتقطّر البول على البساط. لكنّني نسيت أنّ الحبل كان ملتفًّا على رقبتي. كنتُ معلّقًا في السماء، أحاول التخلّص من الحبل المشدود على رقبتي. حرّكت قدميَّ وجسدي إلى أسفل حتّى أستطيع الخروج من الموقف، لم أرغب في الانتحار بهذه الطريقة. لقد رسمت في عقلي مشهدًا دراميًّا كمشاهد الأفلام المصريّة. يقف البطل وقد ضاقت به السبل، يشعر بالظلم، وبأنّه قد خذل الله وذاته، فيسلّم نفسه للمشنقة. الموسيقى الدراميّة تزيد من حدّة المشهد، ثمّ يسلّم نفسه للحبل. لا ترى إلّا رجليه وهما تحاولان الحركة حتّى تتوقّفا. كان ذلك المشهد الذي يدور ببالي قبل أن أُقدِم على فعلها، لكنّ ما مررت به جعلني أشعر بمرارةٍ في حلقي، وكلّ ما يخطر ببالي أنّني لا أريد لزينب أن تكتشفني ورائحة بولي نافرةٌ، ثمّ إنّي لم أرد لها أن تتعذّب في غسيل البساط من بعدي. حاولت التحرّر من الحبل لكن بلا جدوى، وفجأةً سمعتُ صوتَ تشقّقات في السقف، ثمّ سقطت الثريا، لتلحقني على رأسي. أصابني دوارٌ. تحرّر نَفَسي وأتممت ما تبقّى من اللّيلة مُلقًى على البساط. وفي الصباح التالي، كنت أشعر بالدوار، والثريّا لا تزال فوق رأسي.

عند استيقاظي تكرّر صوت أبي في عقلي: «ولد غبيّ». أمضيتُ اليوم كلّه وأنا أصلح ما يمكنني إصلاحه. اتّصلت بهاتف عائلة زينب. سمعت صوت والدتها عبر السمّاعة، أخبرتني أنّها ليست بخيرٍ وأنّها سقطت مغشيًّا عليها في العمل بسبب الضغوطات. خفت عليها، أحسست بمدى أنانيّتي، ها هي زوجتي مريضةٌ في بيت أهلها ولم أكن موجودًا من أجلها، بل وأردت أن أنهي حياتي من دون استئذانها في ذلك.

ذلك اليوم شغلتني كلمات العبسي. لم يتجرّأ قطُّ على أن يقول لي شيئًا كهذا، مطلقًا. سمعته أكثر من مرّة يتحدّث عنّي وأنا خارج من البرّاكة. ثمّ إنّه كان، أحيانًا، يسخر أمامي من الرجال الذين لا يتحكّمون في زوجاتهم. ذات سهرةٍ، كنت خارجًا من باب البرّاكة، وقد نسيتُ مفاتيح المنزل، حيث كنت أقعد. كانت ليلة خريفٍ كالحةً. عدت لأسمع ضحكات أصدقائه تطير في المكان. اقتربت من حائط الصفيح لأسمعه يحكي قصصًا مخزية عنّي، إحداها تدور حول أيّام الطفولة التي نسيتها. كانت عائلة عمّي مجتمعة في بيتنا. أخبرني عبسي أنّه اكتشف لعبةً جديدةً اسمها «عروس وعريس»، يفضّل لعبها فتيانٌ وفتياتٌ، وعندما بنينا البيوت من قطع الفرش المبعثرة في المربوعة، اختار أن يلعب مع أختي أسماء «عريس وعروس». سألني أن أكون في اللّعبة زوجًا لأخته، زوجًا مُسافرًا إلى مكانٍ بعيدٍ، فتظاهرت بالذهاب إلى الحمّام لأُمثّل دور الغائب، وفي تلك اللّحظة اختلى

بأختي تحت بيته المصنوع من الفرش ورأيته بعيني يلمسها في أماكنها الحسّاسة. سألته ماذا تفعل؟ قال نحن نلعب. عندما أردت أن أفعل الشيء نفسه مع أخته/زوجتي، أخبرني أنّ عليَّ الآن أن أمثّل تطليق أخته بعد نشوب عراكٍ بيننا. وأنا واقف أمام البرّاكة، سمعته يتلذّذ بحكاية القصّة، تكرّر هذا الأمر، وفي كلّ مرّةٍ بقصّةٍ مختلفةٍ، كنت أقف باكيًا على أعتاب البرّاكة، أنصتُ لكلامه. في تلك الليلة، وكأيّ ليلةٍ، كنت أجرجر مذلّتي كطفلٍ يحاول جرّ لعبته التي صنعها من الخشب والمعادن من هذا العالم المظلم وراء ظهري وأبكي، أعود اليوم التالي، أو الأسبوع، أو الشهر الذي يليه لأنسى كلّ ما حدث. أخبرتني المدام أنّ علاقتي بعبسي غير صحّيّةٍ، وأنّ عليَّ التخلّص من تشبّثي به، فهو لم يكن صديقي يومًا، وعليَّ البحث عن أصدقاء مثلي. لكن لم تطاوعني نفسي قطُّ في تركه، خصوصًا أنّه كان لطيفًا معي، عندما يقوم برحلة إلى البحر، أو الصحراء، أو في لياليه الحمراء بمزرعة أبيه يصطحبني معه. نعم، أطبخ وأنظّف في الرحلة، وأحيانًا أشتري له السجائر، لكنّ صحبته كانت تُذهب عنّي تعب الحياة. أعيش مع نُكتِه وقصصه الفنتازيّة، وقدرته على التمثيل، وحبّه للحياة والألقاب التي يُطلقها على الناس، وطريقته في التقليد، يتلبّس شخصيّة أحدهم فتضحك صحبته، تعبيراته التي يخرج بها من حيث لا تدري، وقاموسه من القصص الشعبيّة وقصص الرعب. في الليل نجلس لنستمع إلى ناس الغيوان، وأحمد فكرون والمزداوي، أو نشاهد فيلمًا، ونشرب أجمل بوخة مينتا، أو عصيّرة عنب معتّقة في طرابلس على شاطئ البلاد الطويل.

في الصباح، وأمام المرآة، وأنا أعاين الحزَّ الذي خلّفه الحبل على رقبتي، غرقت في أفكاري، واستعدتُ شريط حياتي، صفعة أبي، وإصراره بعد ذلك بسنتيْن على أن أنتسب إلى الجيش، زواجي من زينب، والأحداث التي عكّرت مزاج زواجنا طيلة السنوات الماضية، وجهي وقد ضمر كأنّ الدم امتُصَّ منه.

- ما الذي سأفعله الآن؟ لم يعد هناك مهربٌ سوى الموت.

قلت لنفسي في المرآة، أبحث عن إجابة في الوجه العبوس أمامي. تنهّدت، هل يمكن أن أستعيد رجولتي؟ وكيف سأتمكّن من ذلك؟ ثمّة خياران لا ثالث لهما، إمّا أن أستعيد رجولتي، أو أن أنهي حياتي. أمّا الاستمرار في العبث ومقاومة الحياة والمجتمع، الذي من حولي، فلا فائدة ولا طائل من ورائه، حدّثتني نفسي أنّني لم أتلقَّ يومًا تدريبًا عمليًّا في أن أكون رجلًا. كلّ ما تلقّيته هو كلمات من أبي، ومحاولاته لحشري في العسكريّة. كان للعسكريّة تأثيرٌ سلبيٌّ على طريقة تفكيري، إذ أنّ معيارها للرجولة كان مغايرًا لمعيار المجتمع. الرجولة لا تأتي من قتل الأرانب بيديك وأكلها نيئة،

ولا تأتي من ساعات بروكك تحت الشمس. ها هو عبسي، معيار للرجل، وتهرّب طيلة حياته من الخدمة العسكريّة. العبسي، طرقت الفكرة بالي، هل يمكن أن يعلّمني الرجولة؟

(١)

لنتوقّف لحظةً، أعتقد أنّنا سنحتاج إلى دورة شاي أخرى. أحتاج إلى قطعة أخرى من كعكة البرتقال والليمون، هل تريد رؤية المطبخ؟ هيّا لندخل، ولكن أرجو أن نتحرّك بهدوء، لا أريد إيقاظ زينب، إنّها منهكة من الحياة ومتاعبها.

هذا هو الصالون، قضّينا صيفًا كاملًا في ترتيبه. زينب تحبّ الفنّ، فقد كبرت في عائلة فنّية. عمّها فنّانٌ معروفٌ في البلاد، قضى نحبه وهو مرميٌّ مع قناني الويسكي، ولوحاته في شقّته بشارع عمر المختار، لم ينقذ جثّته المتعفّنة سوى تسلّل رائحتها إلى الجيران. بعد موته أرادت العائلة أن ترمي لوحاته في القمامة، بإيعازٍ من أبي زينب، الذي ظنّ أن سبب موت أخيه هي لوحات رسوماته. كان والدها بسيطًا. اندفع نحو الحياة العمليّة بعيدًا عن متاعب الفنّ وأهله، إلّا أنّ زينب جمعت اللوحات وخزنّتها. تلك اللوحة؟ تقول زينب إنّ الرجل الذي يعتمر «المعرقة» يشبهني. كانت رقبته أطول من المألوف، ولا تخلو ملامحه من سحنةٍ أنثويّةٍ. حكى لها عمّها قصّتها. هي تتعلّق بصديقٍ له مات من القهر والخوف من عائلته، التي طاردته حتّى تخلّى عن حلمه ليصبح فنّانًا. لم أفهم صلة الشبه بيني وبينه يومًا. في وسط الحوش، يمكنك رؤية درّاجة أبي معلّقة على الحائط. لزينب أفكارها الغريبة، أرادت أن تفعل ما يحلو لها بالبيت بعد حياتنا في الشقّة القديمة التي بناها لي أبي عند تأسيسه لبيت العائلة. قالت لي إنّ الدرّاجة تذكّرها بحلمها البسيط في أن تجري بالدرّاجة كلّ يومٍ تعود فيه إلى المنزل. وستحبّ أن تتذكّر ذلك الحلم. المطبخ، إنّه تحفتي الفنّيّة. حائطٌ كاملٌ مخصّصٌ لصور الكوشة القديمة. استطعنا تكبير الصور. يمكنك معرفة أنّ بعضها يعود إلى أيّام السنيور لويجي، صورة السينيور ممسكًا لوحًا مليئًا بالأرغفة وخلفه العمّال. الفتى القصير الذي يلتصق به هو أبي. صورة أخرى في الأعلى، كانت آخر صورةٍ تلتقط لأبي أيّام الظهرة. كان أبي يحبّ الصور، وقد ورث عن السينيور مصوّرته. أبي يجلس على باب الكوشة يدخّن سيجارة الريجينا مع نهاية الخمسينات. في الصورة يظهر عمّي فتىً يشرب كوكا كولا. عند وفاة جدّي وجدّتي في رحلة الحجّ، أحضر أبي أخاه الأصغر إلى بيتنا بالظهرة وربّاه مع أختي صالحة، ومع الوقت أقنع السينيور أن يشغّله فتى مخزنٍ وتنظيفٍ. أحبّ السينيوري لويجي أبي كابنٍ له، قال لي أحد الجيران، ذات مرّةٍ، إنّه أراد أن يزوّجه ابنته فاطمة –أحبّ السينيور الأسماء العربيّة- إلّا أنّ الفتاة توفّيت بمرضٍ عضالٍ وهي في الثامنة عشرة. كانت تشبه أزهار الجهنمية، إلّا أنّني لم أجد

لها صورةً قطٌّ. في إحدى الصور، وقد التقطت بعد ذلك بعقدَين، يمكنك رؤيتي وأنا في المخبز الجديد، أضع سفرة من «الغرَيْبة» لواحدةٍ من زبائننا في الفرن. كانت أيّامًا جميلةً، يمكنني حتّى الآن أن أستنشق رائحة الغرَيْبة، وقد خرجت للتوّ من الكوشة. صمّمتُ الخزائن على الطريقة التونسيّة بعد أن عشنا صيفًا كاملًا أنا وزينب فيها، ألهمتنا تونس. في فترة مّا، كنت أعشق أشرطة الأفلام التونسيّة المهرّبة. وكان ما يشدّني في تلك الأفلام مشاهد المطبخ. التونسيّون يحبّون وضع طاولةٍ بيضاء من الخشب -تعلوها قطعةٌ من الرخام أحيانًا- وسط المطبخ، وستجد أنّ أغلب خزاناتهم البيضاء تبدو كأنّها مزروعةٌ في الحائط. في رحلة شهر عسلنا، اشترينا أنا وزينب من جِربة بعض الأواني الفخّاريّة وأواني الطبخ، وتمدّدنا في شطآن مدينة الحمّامات، وأخذتنا أزقّة المدينة العتيقة بالعاصمة. كانت رحلة تُزْرَعُ في الذاكرة. هذا هو فُرني الخاصّ، لديَّ فرنان في المنزل. أحدهما خارجيّ أشعلُ، بين فينة وأخرى، النارَ داخله لتستوي البيتزا والطاجين بطريقةٍ جيّدةٍ، الفرن المنزليّ الداخليّ ليس عمليًّا في أطباقٍ عديدةٍ، وخصوصًا البيتزا. تعلّمتُ ذلك من عملي في بيتزاريا النّصر بالظهرة. وهذه مصطبة عملي. أحببت أن تكون لي مصطبةٌ واسعةٌ وطويلةٌ حتّى أتمكّن من عجن الخبز بسهولةٍ عليها.

أمّا الآن، فسأقدّم لك كعكة البرتقال والليمون التي أخذتُ طريقة صنعها عن المدام. لا يوجد أجمل من طعم الحامض في الطعام. وهذه... هذه هي فالنتينا، مستعمرة الخميرة الجديدة التي تخصّني، بدأ تعب تربيتها يثمر من أسبوعٍ مضى. للأسف لم يطل أمد خدّوجة، لسبب سأخبرك به لاحقًا، أمّا فالنتينا هذه فقد عذّبتني، حاولت إنباتها مرّاتٍ ثلاثًا، لكن في كلّ مرّة تضيع الوصفة. تربية الخميرة أمرٌ هيّنٌ، ولكنّه متوقّفٌ تمامًا على مدى اهتمامك بها، وعلى درجة الحرارة المحفوظة داخلها، والصيف يُعتبَر عدوًّا لها. لم تحالفني درجة الحرارة مرّتيْن. اليوم فقط تمكّنت من الخبز بها، ما رأيك؟ إنّها جميلةٌ أليس كذلك؟ لرائحتها مرارةٌ لطيفةٌ على الأنف. أنصحك بتربية واحدةٍ، إنّها أفضل بكثير من الخميرة الجاهزة. وهذا هو المئزر الذي أرتديه عندما أدخل المطبخ. أحببت صور أزهار عبّاد الشّمس المرسومة عليه، أنا عاشق لعبّاد الشمس. أذكر أنّني، ذات مرّةٍ، تهتُ ساعةً كاملةً في «سانية» بمزرعة ابن عمّ أبي. كان الحقل يمتدّ على هكتارٍ كاملٍ. وكنت أنا والعبسي نسرق الحبوب منه، ونجفّفها بعد ذلك على سطحَي مَنزلَينا، لكنّ تجربة دخولي الحقلَ كانت أجمل من طعم الحبوب. أن تتوغّل في الغابة الصفراء، وأن تتابع أعناق الزهور وهي تتبع الشمس حيث تتحرّك، وأنتَ تحاول أكل الحبوب المسروقة طيلة القيلولة، كان أمرًا مميّزًا. ولذلك، عندما رأيت هذا المئزر، عرفت أنّني أحتاج إليه. كان لديّ مئزرٌ قديمٌ هديّة من والدي. في اليوم التالي لأوّل رغيف خبزٍ صنعتُه، أتاني أبي محمّلًا بمئزرٍ جديدٍ أبيض اللون يناسب حجمي وطولي، وسلّمني إيّاه، كان يتوّجني كأحد جنوده في صناعة الخبز. منذ ذلك اليوم، صار يعتمد عليَّ تدريجيًّا، في

الوصفات، حتّى أصبحتُ رئيس الخبّازين في الفترة الصباحيّة بعد عاميْن. حينئذٍ توقّف عن العمل. سأجرّب المئزر أمامك، ها، ما رأيك؟ أشعر بأنّي أستعيد زمام الأمور في حياتي بعد أن أرتديه.

ارتجّت الدنيا برحيل أبي عن المخبز، كان عمّي محمّد يأتي كلّ صباح ليأمرني أن أتوقّف عن صناعة أحد أنواع الخبز، وأن أقتصد في الدقيق. اختلفت رؤيتي مع رؤيته في العمل. كنتُ أحمل رؤيةً فنّيةً، تفضيل الجودة على الربح والعدد، بينما كان عمّي ينظر إلى ما أبعد، وهو أمرٌ يُحسب له، كان يرى أن نبيع نوعَين من الخبز، بأقلّ جهدٍ وتكلفةٍ، وبعددٍ أكبر. كنت أشكو إلى أبي معاملتَه، واعتبارَ نفسه الحاكم الناهي في المخبز. لكنّ أبي فقد تلك الروح التي جعلته يعشق صناعة الخبز. ولهذا السبب، سرعان ما تركتُ رئاسة التوكة الصباحيّة لصالح الأسطى اخميّس.

في البداية، تدخّل عمّي في حجم «الباقيت»، الذي نصنعه، ثمّ شكله وطريقة تحضيره. افتعل مشكلةً مع الأسطى اخميّس. كان الأسطى يعمل على دفعة الساعة الثامنة صباحًا، صحبة عاملَين جزائريّين هما مسعود والباهي. تصبح عينا عمّي حمراوين عندما يكون غاضبًا، كانت به رائحة سُكْرٍ، فقد كان صاحب «طاسة»، يسهر الليل بأكمله وهو يقارع لتريْن من البوخة، يأتي إلى الكوشة مساءً لينهي بقيّة العمل. قال لي الأسطى اخميّس إنّ العمّ أخبره البارحة بضرورة تصغير حجم «الباقيت» نظرًا إلى تعليمات الحكومة، كما بدأت تفعل بقيّة المخابز في المدينة، وأنّه يجب توحيد وزن الخبز وتغيير التسعيرة. لكنّ الأسطى اخميّس أخبره أنّ عليه أن يتشاور مع أبي أوّلًا. عندها زعق في وجهه، وقال له إنّه الآمر الناهي في الكوشة، وإنّ أبي قد استودعه إيّاها.

في ذلك الصباح، أمسك عمّي رغيف خبزٍ ودخل المعمل. كنت أعمل على عجينة الضحى، وكان العمّال يستمعون من الراديو لعبد الحليم حافظ وهو يغنيّ «أهواك»، بينما يعمل اخميّس على إدخال دفعة إلى الفرن، وينظّف مسعود الأرضيّة، وكان العبسي يبيع الخبز، كان الجميع يغنّون مع عبد الحليم. الباهي يعجن معي ويقول لي: «أهواك سي ميلاد». اقتحم عمّي المكان، وأطفأ صفاءنا رافعًا الرغيف عاليًا في السماء مناديًا:

- من سيدفع ثمن هذا الرغيف؟

حلّ الصمت في المكان. أوقف مسعود الراديو. عندما يغضب فرد من عائلتنا، يمكنك سماع تنفّسه وقراءة وجهه، يزمّ شفتيْه ويفتح عينيه، وترتعش يداه. كان الرغيف يدور عاليًا في السماء كموسى يهدّد أن يقتل به أحدهم.

- هل ستدفعها أنت يا باهي؟ وأنت يا مسعود، هل سأحتاج إلى أن أقطع من معاشك للمرّة الثانية هذا الشهر؟ وأنت... يا تونسي.

- ماذا يا حاج محمّد؟ ردّ عليه اخميّس.

- بماذا أمرتك أمس؟ هل عليّ تكرار ما أقوله حتّى تفهم؟ وكنت أعتقد أنّنا نحن البهائم، ألم أكتب لك الوزن الذي نحتاج إليه؟

- لكن الحاج مختار... ردّ الأسطى وقد كاد يحرق يده من سخونة الفرن.

- الحاج مختار اعتبره مات، لا وجود له بعد الآن، أنا مدير المخبز هنا.

ونظر عمّي ناحيتي. تغلغلت نظرته الثاقبة في روحي، يبحث عن اعتراضٍ منّي. طأطأت رأسي إلى الأرض. توقّفت عن العمل. قلقًا، كانت أذناي حسّاستيْن للأصوات العالية. فجأةً أتمنّى أن أفقد حاسّة السمع عندما يتناهى إليّ صوت عراك، ربّما كان شيئًا كبرت معه، وأنا أسمع صوت أبي وهو يعارك أمّي، مرّة بسبب الطعام، ومرّة بسبب نظافة الصالون، ومرّاتٍ عديدةً عندما يعود إلى البيت ويجدها قد ذهبت لتتفقّد إحدى الجارات من دون أن تخبره. كان العبسي يشاهد العراك من الباب الذي يفصل المعمل عن نقطة البيع، تعلوه ابتسامةٌ خبيثةٌ. كان العمّ يترنّح. أمسك الرغيف بكلتا يديْه، وزاد الشرر داخل عينيه. مزّق الرغيف ثلاثًا ثمّ ألقى ثلثيه في عربة الخبز، وتحدّث مجدّدًا إلى الأسطى:

- ابتداء من هذه اللحظة سيكون شكل الرغيف هكذا.

- ولكن يا حاج، لدينا ثلاث دفعات لا يمكننا العمل مجدّدًا عليها. قال اخميّس.

- إذَن، أتّم الدفعات الثلاث، وابحث لك عن شغلٍ آخر وكفانا هذه الوبنة.

- يا حاج... صلّ على النبيّ. تدخّل الباهي، الذي شعر بأنّ عراكا على وشك أن يبدأ.

- لا تتدخّل يا باهي.

- صلّ على النبي يا حاج، سنعاود أنا وميلاد وزن الخبز وإعادة تشكيله.

والتفتّ الباهي حول العمّ، وهو يحاول تهدئته، ثمّ التفت إلى الأسطى اخميّس الذي كان يمسك الحلّة بقبضةٍ حاسمةٍ.

- يا سي اخميّس، ما رأيك أن تعمل أنت على العجنة وسنعمل أنا وميلاد على إعادة تشكيل الأرغفة، لا مشكلة.

عاد عمّي لينام، لكنّ الجوّ في الكوشة تغيّر كلّيًّا منذ ذلك اليوم. عند عودتي إلى المنزل أخبرت أبي بما حدث، لم يُبدِ أيّ ردّ فعلٍ. ظلّ يدخّن سجائره، ويحلّق بنظره في السماء، وددتُ لو صرختُ في وجهه بأنّه يخون كلّ ما علّمني إيّاه. في المساء، عندما عدتُ إلى الكوشة، وجدت الأسطى اخميّس ومسعود والباهي جالسين يتناولون الشاي. كان الباهي يقنع اخميّس أن يتحمّل ويبقى. جلست بجانبهم، وأخبرتهم أنّ عليهم أن يذهبوا إلى أبي ويشتكوا إليه معاملة العمّ.

- عيب يا سي ميلاد، نحن رجال والرجل لا يشتكي رجلًا آخر، فقط لأنّ مناوشةً كلاميّةً حدثت بينهما. قال مسعود.

- منذ مدّةٍ وأنا أفكر في البحث عن عملٍ آخر، منذ أن ترك الحاج مختار العمل هنا والحاج محمّد يفتعل المشاكل معي. قال الأسطى اخميّس.

- لا بأس يا أخي. هذه الكوشة أفضل من غيرها. الحاج محمّد رغم تعصّبه وطبعه السيّئ، في أغلب الأحيان، لا يبخس أحدًا حقّه. لقد جرّبت عددًا من المخابز، وقد تعاركت مع أصحابها، ومرّة كدت أقتل ربّ العمل. قال الباهي.

- ولكن ألا يقول القائد إنّنا شركاء لا أجراء، أنتم شركاء في الكوشة، هكذا يقول الأخ القائد، قلتُ.

- هاهاهاهاهاهاها.

- هاهاهاها... أنت طيّب يا سي ميلاد، ربّي يهنّيك، قال مسعود.

بعد شهرٍ ترك الأسطى اخميّس العمل بالكوشة، وجاء عمّي «أبو سعيد». كان رجلًا مصريًّا من الصعيد، وضعه عمّي رئيسًا على العمّال. بعد ذلك بمدّةٍ، حدثت مشكلةٌ بين العمّ «أبو سعيد» والباهي... كان سببها أنّ عمّي أمر العمّ «أبو سعيد» بأن يُكلّف الباهي بتنظيف المكان بأكمله وحده، وأن يشرف عليه. كاد الباهي يطعن العمّ «أبو سعيد». الجزائريّون أناسٌ طيّبون، لكنّهم

عندما ينفعلون يتحوّلون فيبدؤون بالسباب، وسرعان ما تتحوّل الشتائم إلى عنفٍ جسديٍّ. شاهدت في حياتي الكثير من الخصومات بين جزائريّين. في عنّابة عندما زرتها أنا وزينب، أوشك سائق التاكسي أن يتقاتل مع موظّف الاستقبال في فندق، لأنّه أخبره بسعر الغرف ثمّ أعلمه بعد ذلك بأنّها محجوزة. الجزائريّون هم الشعب الوحيد الذي يخشاه الليبيّون. في الجزائر رأيت الناس هناك يتعاركون لأبسط الأسباب. بعد خروج الباهي، جاء إلى الكوشة عاملان مصريّان جديدان، كانت كُلفة تشغيل المصريّين أقلّ من كُلفة تشغيل الجزائريّين والتّونسيّين والمغاربة. لم يدم وقتٌ طويلٌ حتّى غادر مسعود الكوشة لشعوره بالوحدة. ورغم الصداقة التي تكوّنت بينه وبين بقيّة العمّال المصريّين فإنّه اشتاق إلى العمل في وسطٍ مليءٍ بالجزائريّين. في ذلك الوقت، كان يستمع إلى الكثير من الأغاني الجزائريّة عن الغربة. أحسّ بالغربة خصوصًا عندما سمع أغنية «وهران» لأحمد وهبي. رأيته يبكي عندما سمعها أوّل مرّة. لم يعد يبتسم، أو يفتعل المقالب في الكوشة. قرّر بعدها أن يعود إلى الجزائر رغم حصوله على عملٍ آخر مع الباهي، حلّاقًا. الغربة تجبر خبّازًا محترفًا على أن يتحوّل إلى حلّاق، أمرٌ سيّئٌ... أخبرك، إنّه أمرٌ سيّئٌ. مررتُ بالتجربة ذاتها عندما كنت في العسكريّة. «وهران رحتي خسارة، هجروا منك ناس شطارة». هكذا كان مسعود يغنّي وهو يصنع الخبز. ورغم أنّه من عنّابة، فقد كان يشعر بالضيق كلّما استمع إلى الأغنية.

في أوّل هانيبال(6) غادر أبي الدنيا. كانت آخر وصاياه أن ألتحق بالعسكريّة، ولم يكن ثمّة مفرٌّ منها إلّا بواسطةٍ قويّة كتلك الّتي دبّرها عمّي لابنه. وهو على فراش الموت كان يقول لي: «لازم تكون رجل العائلة يا ميلاد، أخواتك وأمّك في رقبتك». كنت في الثامنة عشرة، اعتقدت أنّ أبي سيكون بجانبي حتّى أبلغ الثلاثين، إلّا أنّ رئتَيه قرّرتا التوقّف عن العمل، شعرت بأنّه خان عهدًا ضمنيًّا بيننا، أن يبقى هو ليرعى العائلة ويتحمّل مسؤوليّتها ويبقيني حرًّا كما أنا، بعد ذلك بأشهرٍ التحقت بالعسكريّة، لشهرٍ كاملٍ عشتُ ألم فقدان الأب.

ساعدني الجوّ في الكوشة على اتّخاذ القرار، وضعني عمّي في الزاوية، كنتُ ضحيّته القادمة، ورأى أنّ أفضل وسيلة للتخلّص منّي هي أن يجعلني بلا عملٍ داخل الكوشة، حتّى أتركها وحدي. كان عدد الأجراء من أقارب «أبو سعيد» يتزايد حتّى لم أجد ما أفعله. طيلة حياتي، كانت الدنيا تحشرني في الزاوية كقطٍّ يبحث عن مهربٍ فيتّخذ قرارًا انتحاريًّا بالولوج من تحت أقدام محاصريه.

قبل أن نبتعد عن القصّة التي بدأتها معك، وقبل أن نعود إليها أيضًا، عليّ أن أقول لك إنّ العمل في الكوشة كان منهكًا، ومع ذلك فقد أحببت كلّ ما فيها. كنت أجري من المدرسة إلى بابها ليسلّمني أبي أيّة مهامّ يمكنني العمل عليها، أنا ممتنّ لكلّ تلك الأيام، خصوصًا الأيّام الأولى عندما كنتُ أبيع الخبز لزينب الصغيرة، كانت تشتري يوميًّا رغيفَي خبزٍ عندما كانت الكوشة في الظهرة، في العيد تأتي مع الصادق حاملةً فوق رأسها سفرة كعك أو مقروض، وفي أيّام الصيف تأتي صحبة أبيها بطاجين حوت تطلب منّا أن نضعه في الفرن، ثمّ ترسلها أمّها مرّةً أخرى بعد أن ينضج الطاجين صحبة صينيّةٍ صغيرةٍ فيها ما طبخناه. إنّ أجمل لحظات حياتي في الكوشة -بفرعيْها في الظهرة وبئر حسين-، هي عندما ننتهي من العمل ووجهي مليء بالدقيق، يجذبني مسعود إلى الفرن قائلًا للأسطى اخميّس: «يا سي اخميّس، نسينا رغيفًا»، لم نكن مجرّد زملاء في العمل، كنّا عائلةً، زرّدنا معًا، وذهبنا في رحلات إلى البحر لأيّامٍ، وتعشّينا ورقصنا وغنّينا معًا، أوّل مرّة ثملت فيها كانت معهم، في الكوشة كانت الحياة أبسط. وعندما تخرج دفعة الخبز ننتشي جميعًا برائحته اللذيذة، نصنع فطورنا بالخبز الطازج، ونجرّب أنواعًا منه لأنفسنا، أستمع إلى أنواعٍ مختلفةٍ من الموسيقى، وأشاهدُ أفلامًا من بلدان مختلفةٍ من الأشرطة المهرّبة التي يأتي بها أصدقاء مسعود والباهي واخميّس. أحبّ أبي السينما والموسيقى، لذا كان من أوائل من سارعوا إلى شراء المسجّلة وجهاز تشغيل الأفلام والتلفزيون. كنّا نتشاجر اليوم وننسى غدًا لماذا افتعلنا شجارنا، كان لي نصيبي في الشجارات، لم أكن أضرب ولم أكن ألقي بالشتائم، كنت أنزوي بنفسي عندما أسمع كلمةً تسيء إليّ من أحدهم. فيأتون جميعًا مجرجرين المسيء ليقبّل رأسي. عندما أغضب من أحدهم، يلقي الجميع على عاتقهم بمهمّة التنظيف وإعداد وجبة مواساة لي. في الكوشة تحصّلت على أوّل هديّةٍ لي من أبي، احتفظت بذلك المئزر زمنًا طويلًا، تمامًا كما احتفظت بخدّوجة، واهتممت بوجودها كأنّها طفلٌ لي، رغم انكسارها وتمزّقها مرّاتٍ عديدةً.

أحيانًا، عندما أصنع خبزًا، أتذكّر لحظةً من تلك الأيّام، مثلًا... قبل قدومك اليوم، كنت أصنع خبز الشيباتا الإيطاليّ، ولمدّة يومٍ منذ تجهيزي العجينةَ السائلة، ووضعها في الثلّاجة لتختمر نصف يومٍ، وحتّى إمساكي بالأرغفة الصغيرة الممطّطة والهشّة، ووضعها في الفرن، كانت تراودني تلك الأيّام. كنت أكرّر في عقلي شريط فيلمٍ وثائقيٍّ عن الأيّام التي فشلت فيها العجينة في النضوج لنتمكّن من العمل عليها، القلق، الترقّب، الفرح عندما نتمكّن من إصلاح العجينة، كلّ ذلك يعود إليَّ. أحيانًا أفكّر أنّ مسألة صناعة الخبز تشبه الحياة، حياتي على أقلّ تقديرٍ مليئةٌ بالترقّب والقلق.

وبمناسبة الحديث عن القلق والترقّب، أمضيت أسبوعًا كاملًا قلقًا ومترقّبًا لما عليَّ فعلُه، شعرت بالحرج من أن أعيد التواصل مع العبسي، بعد اتّهامي أباه بسرقة الكوشة. ثمّ إنّي أحسست

بورطتي، خصوصًا بعد محاولة الانتحار الفاشلة. تهرّبت طيلة الأسبوع من الجميع. لم أحادث زينب، كنّا نجلس لنتناول الطعام، تتحدّث معي عن حياتها وعملها وما استجدّ فيهما، وعن مشاكلها مع المدير بالمؤسّسة. يأبى مديرها أن يسلّمها مهامّ السفر، ويتخطّاها في الدورات التدريبيّة، رغم أنّها في أحيانٍ كثيرةٍ تكون الشخص الوحيد الملائم للمهمّة، بالإضافة إلى أنّها ظلّت تلحّ عليه بلا جدوى لنشر أعمال عمّها الفنّية في كتاب. تتناول فضيحة مّا في الحيّ، أبقى ساكنًا مشاهدًا التلفاز، وأتناول طعامي، ثمّ أتصنّع الانشغال بالعمل على الحديقة التي لا ينتهي العمل عليها. في ذلك الأسبوع، شاجرتني زينب مرّاتٍ عديدةً، دفعتني، بكت، كنت أقرأ في عينيها استغاثتها بي كي أتحدّث، لكنّي كنت أتحاشاها، أبحث عن شيءٍ يبعدني عمّا يؤرّقني، شيءٍ خافت هي نفسها إظهاره سنواتٍ، حتّى صار لدينا بيتنا الخاصّ. راقبتُها مِرارًا وهي تسارع لإغلاق نافذة المطبخ في الشقّة القديمة بينما كنت أغسل الأواني أو أطبخ. ردّدت عليَّ أكثر من مرّة ألّا أُحدث ضجّةً وأنا أكنس الشقّة أو أنشّف الأرضيّة، كانت تخاف من فكرة أنّنا أصبحنا رُوَيْدًا رُوَيْدًا نتبادل المسؤوليّات. أكوي الملابس وأطبخ وأنظّف، بينما تجلب هي المال إلى البيت. كانت تخاف الفضيحة. وأكثر ما خافته هو أن تعرف أمّي أنّني لم أكن مستلقيًا على السرير طوال اليوم أشاهد التلفاز. ذات مرّةٍ، وفي شهور زواجنا الأولى أوقعت طبقًا خزفيًّا عندما كنت أغسل الأواني. بطريقةٍ مّا وقع الطبق داخل المغطس، وارتدّ إلى يدي فصنع جرحًا منحنيًا بطول خمس سنتيمترات. كان دمي يتدفّق من الجرح من دون توقّف، عملت كلّ شيءٍ لإيقاف النّزيف سواء بالقهوة أو بلفّ خرق الملابس حوله، لكنّه لم يتوقّف، نزلت من الشقّة إلى أمّي حتّى أطلب منها المساعدة، وعندما وجدت دمي حول قميصي ويدي، سألتني كيف جُرحت، أخبرتها بأنّني أوقعتُ طبقًا عندما كنت أغسل الأواني، فكان ردّ فعلها الأوّل أنّه لا يجدر بي من موقع الرجل أن أغسل الأواني. احمرّ وجهي، وارتعش بدني فقلت لها: «أنا أمامك مجروحٌ وتخبرينني أنّه ليس عليَّ غسل الأواني؟»، وصعدت إلى الشقّة من جديدٍ أعالج جرحي. أتذكّر أنّه أغمي عليَّ لدقائق. عند عودة زينب من دوامها، أخبرتها القصّة فقالت لي ببرودٍ: «لماذا أخبرت والدتك بأنّك تغسل الأواني؟»، لم أعرف كيف أردّ، تركتها، كانت منذ ذلك اليوم تتبعني عندما أغسل الأواني لتتأكّد أنّني أقفلت نافذة المطبخ، أو تراقب المكان قبل أن أنشر الغسيل. تؤكّد لي أنّه إذا سألتني أمّي عن الغداء فعليّ إخبارها بأنّي «لا أعرف ماذا طبخت زينب». لم تكن أمّي تلك العجوز التي تتربّص للكنّة الصغيرة في كلّ خطإٍ ترتكبه، لكنّها أيضًا لم تكن منفتحةً. كانت تملك عقليّة العجائز «الزّمْنيّة» القديمة، تلك التي تقول إنّ على المرأة تحمّل كلّ شيءٍ، وإنّ عليها الاهتمام براحة زوجها، حتّى عندما كانت تجدني أغسل الأواني –قبل الزواج- في مطبخها كانت تطردني من المطبخ، وتقول لي إنّني رجل، والرجل لا يجدر به أن يمسك سوى

المسحاة أو الخباشة، الرجل يزرع ويحصد والمرأة تطبخ، الرجل يبني ويعمّر والمرأة تنظّف ما بناه، هذا هو الاتّفاق الضمنيّ بين الجنسين، وأيّ خللٍ يجب إصلاحه.

في اليوم الأوّل من صمتي، بكت زينب. في اليوم الثاني، ترجّتني لتعرف ما الخطب. انهالت عليَّ بالأسئلة والاستنتاجات. في اليوم الثالث بدأت بالهجوم. قالت لي إنّها تتعب وتشقى كلّ يومٍ من أجل راحتي، وأنا لا أتفضّل حتّى بالردّ عليها. في اليوم الرابع، أخبرتني بأنّها تتمنّى أحيانًا لو أنّها لم تعرفني ولم توافق على الزواج بي. في اليوم الخامس ندِمتْ على ما قالته، وتأسّفت. وعندما وجدتني كما أنا، ساكنًا، قالت إنّني لست رجلًا وإنّني حرمتها نعمة الأطفال. في اليوم السادس، لم تحدّثني ولو بكلمةٍ. في السابع طالبتني بالحديث أو الطلاق. فتوقّفت عن الصيام، قلت لها إنّني أبحث عن عملٍ بعيدًا عن معاش الحكومة الذي يأتيني هبةً بلا تعبٍ كشأن غالبيّة أبناء الشعب.

---

1 موتناديات: جمع موتاندي Mutande بالإيطاليّة، وهي في اللهجة الليبية تعني «سروال داخلي» أو «كيلوت».

2 البرّاكة: وهي غرفة مبنيّة من الصفيح واللوح تحيط بها مجموعة من الأشجار، حاضرة في ثقافة الشباب الليبيّ الأعزب شرق العاصمة وغربها.

3 الكوشة: المخبز في اللهجة الليبيّة

4 وراكينة: مركّب كيميائيّ يشبه الجفال في تونس والكلور في مصر.

5 البرّاد والعافية: البرّاد هو وعاء تسخين الماء والعافية هي النار في اللهجة الليبيّة، وهما من المفارقات.

6 هانيبال: شهر أغسطس في التقويم الجماهيريّ الليبيّ.

المعسكر

«تعيش يوم ديك ولا عشرة دجاجة»، مثلٌ ليبيٌّ عن الرجولة. أن يعيش المرء رجلًا صاحب مواقف وشجاعًا يومًا واحدًا أفضل له من أن يعيش عشرة أضعافه خائفًا ذليلًا كالدجاج.

(٣)

في هانيبال، بعد عامٍ من انتهاء حرب تشاد، دخلت العسكريّة. كان الحرُّ القائظ يحرق سحنتي الضعيفة. أتذكّر أنّي، لفرط حماقتي، دخلت المعسكر بملابسي المدنيّة. كان الباص الذي يقلّني مليئًا بالشباب من صغار السنّ مثلي، أو أقلّ قليلًا. كانوا جميعًا يرتدون البذلات العسكريّة الخضراء ما عداي وشخصين آخرين. أذكر أنّ سائق الباص قال لي وأنا أركب: «هاهاهاهاها، سيحبّ المادونّا ما سيراه منك»، لم أفهم نكتته. كان رجلًا عجوزًا بملابسه العسكريّة البالية، أسنان صفراء صبغها الشاي ودخان السجائر، لم يكن ضابطًا ولا متحلّيًا بالأسلوب العسكريّ الذي طالما سمعت عنه. كانت الطريق إلى المعسكر طويلةً ومضجرةً. جلست في المقاعد الخلفيّة وحدي أشاهد مجموعةً من الشباب، يبدو عليهم أنّهم أصدقاء يدخّنون السجائر من النافذة، يحاولون قدر المستطاع ألّا تدخل الرائحة إلى حافلة الصفيح. وجدتُ صديقيَّ اللّذيْن سيستمتع المادونّا، بعد حوالي ساعةٍ، بتعذيبي وإيّاهما تحت حرارة الشمس وملوحة البحر ورطوبة الصيف. كنت أدور بأفكاري حول أيّامي التي ستأتي، مأخوذًا بمنظر التلال الرماديّة والأشجار الكالحة على جانبَي الطريق متخيّلًا المصنع الذي سيجعل منّي رجلًا، تذكّرت قصص عمّي وهو يضحك من فكرة التحاقي بهذا المصنع: «آه يا فتى لو تعرف ما الذي ينتظرك فستهرُب إلى تونس»، كان يقول لي عندما سمع أبي يخبرني برغبته.

- هل تعلم ما الذي يفعلونه في العسكريّة لتمضية الوقت؟

- ماذا؟

- الجنود القدامى يملكون حرّيّة مداعبة الجنود الجدد كلّ ليلةٍ طيلة شهرٍ كاملٍ، هل تعرف كيف يفعلون ذلك؟ قال لي عمّي وهو ينظر إلى أبي مبتسمًا.

- كيف؟ سألته.

- في الليل، وعندما ينام الجنود الجدد بعد تعب أول يومٍ، ينطلق الجنود القدامى كالكلاب ليرحّبوا بإخوانهم. يدخلون في مجموعاتٍ شاردةٍ إلى ثكناتهم، ويبرّحونهم ضربًا، ثمّ يخرجونهم إلى الساحة، ويجرون وراءهم. بعد ذلك، يعذّبونهم بدِلاء ماءٍ طيلة نصف ساعة، ويجعلونهم يردّدون شتائم في حقّهم.

- ماذا؟ قلتُ ونظرت نحو أبي.

- آسف يا ابن أخي الصغير، ولكن سترى أيامًا سودًا، هاهاها هاهاها، قال عمّي.

ويستمرّ بعد ذلك في حكاية قصصه بالمعسكر، كلاب حراسة تطارد الهاربين، ووقوف الكسالى على قدمٍ واحدة مدّةَ ساعاتٍ تحت الشمس. الجلد، التمرينات الوحشيّة، أكل الأرانب حيّةً وقتلها بأسنانك فقط، التقام العقارب، والقفز والملاكمة ساعاتٍ، أمورٌ تجعلني أكاد أتبوّل على نفسي. حاولت طيلة الطريق أن أطرد هذه الصور بتذكّر الكوشة وأخواتي، وتذكّر المدينة والظهرة. آه من الظهرة، أنا على استعدادٍ لبيع خصيتيَّ حتّى تعود تلك الأيّام، كلّ ما احتجت إليه في تلك الطريق هو مشروب سعادة([7]) بارد، أبدّل الزجاجة عند دكّان العمّ صالح، تذكرة لأسوإ فيلمٍ بأسوإ سينما في المدينة، ولْيرافقها أن أتبوّل على نفسي من مشاهدة أحد أفلام الجريمة الأمريكيّة. ألم تخبرك المدام بتلك القصّة المضحكة؟ أنا متأكّدٌ أنّني أخبرتها بها، ذات مرّةٍ وأنا أدرس في الثانويّة بالمدينة – أقنعت أبي أنّ الدراسة في المدينة أفضل من البلدة- ذهبت بعد انتهاء الحصص إلى السينما ودخلت لفيلم الكرنك المعاد لسعاد حسني وكمال الشناوي ونور الشريف، كنت مستمتعًا بالفيلم ولم أرغب بالخروج، إلّا أنّ شيئًا مّا بدأ يتحرّك تحتي، كنت مشدودًا إلى الفيلم، حتّى إنّني لم أرغب في الذهاب إلى الحمّام. سارعت بطني في التحرّك، لكنّي أجّلت الذهاب أكثر من مرّةٍ، حتّى إذا اقتربت النهاية فعلتُها في ملابسي. الله ما أحلاها من أيّامٍ.

في نهاية الطريق إلى المعسكر نمت وحلمتُ بأنّني التقيت بأبي في الجنّة، كان محاطًا بالخبز، أخبرني أنّه ليس عليَّ أن أعمل مجدّدًا، وأنّ الناس كلّهم سواسيةٌ. ابتسمت له وعانقته. لم يعانقني أبي قطُّ في حياته، لكنّه فعل في ذاك الحلم الوحيد. في لحظة العناق توقّفت الحافلة.

- انزل يا بهيم. سمعت صوت رجل يشبه كلبًا مسعورًا.

استيقظت من منامي، نظرت خارج النافذة. حلّقت بنظري إلى الداخل أبحث عن الجميع، لم أجد أحدًا، كان دوار النوم وأرقُه ما يزالان منصبَّين عليَّ، لكنّي فزعتُ من وجودي في ماكنة الصفيح وحدي، لم أذكر أنّني ركبت الباص. عاودت النظر خارج النافذة فوجدت رفاق رحلتي واقفين بانتظامٍ، الفتيان الاثنان باللباس المدنيّ وحدهما. عاد صوت الكلب المسعور ولكنّ حدّته ازدادت في هذه المرّة. كان يقف في باب الحافلة، التي اهتزّت عندما صعد، رجلٌ شديد البنية يشبه تمر البرونصي المحروق، ضخم الجثّة، حليق الشعر وبنجمتين ذهبيّتيْن على كتفيْ بذلته الخضراء، عيناه الحمراوان تبثّان الشرر.

- ألم تسمعني يا عديم الفائدة؟ يا خرقة؟ قلت لك انزل. أم تريدني أن أخدم حضرتك وآتي إليك لأنزلك؟

- ح...ح....ح... حاضر سيدي.

حاولتُ لملمة نفسي من الفزع. تحرّكتُ أبحث عن أشيائي الخاصّة ونهضت بسرعةٍ. اصطدم رأسي بالخزانة فوقي. سمعتُ صوت تكسّر جمجمتي. وضعتُ يدي على رأسي لأبحث عن الدم، «ما رأيك أن أنقل لك ملابسك؟ يا عديم الفائدة هيّا»، استعجلني الصوت الكلبيّ، فسارعت في جمع أمتعتي. كنت قد اشتريت حقيبة من الرشيد، حتّى أضع فيها ملابسي. سخر الرجل من لون الحقيبة الأحمر، «لدينا فتاة في المعسكر» صاح في الخارج. سرت بين الكراسي في الحافلة، رأسي إلى أسفل ويدي فوقه أتوجّع من الألم. رفعتُ رأسي قليلًا، وأنا أسير لاحظت أن بقيّة أمتعتي ما تزال في الحافلة فعدتُ لأحملها.

- إلى أين بها؟ قال لي وهو يشير إلى أمتعتي.

تركت الأمتعة عند الباب. وعندما وصلت إليه، حدّق بي، كانت أطول لحظات في حياتي. تابع بعينيه شكلي وملابسي وهيئتي. كان ينظر إليّ كأنّني أمثّل كلّ ما يحتقره في الحياة. لفت انتباهَه أنّي لم أكن أرتدي ملابسي العسكريّة. قال بسخريةٍ:

- المادونّا... يا سلام، قد تكون أحد أبناء القائد وليس لديّ علم؟

- ماه...ماه...ماه...ماه.

- ما...ما...ماذا؟ هل أنت معزة؟

- لا سيدي.

- لا سيدي؟ أنت معزة. وجهك يشبه المعزة، تصرّفاتك تشبه المعزة، اسمك معزة. ماذا أنت؟

- ما...ما...ما... معزة سيدي.

- مااااااذاااا؟

- معزة... معزة سيدي.

أحد القوانين في العسكريّة ألّا تجيب رئيسك برفضك أيَّ وصفٍ يطلقه عليك، حتّى لو أتاك الوصف في شكل سؤالٍ. دفعني الوحش العملاق إلى الخارج وأمرني بأن أقف استعدادًا مع «إخوتي في الجريمة»، ذهبت جريًا إلى صفّ الجنود الذين يرتدون الملابس العسكريّة. تغلغلت قسوة المكان في عظامي، وحرارة شمس القيلولة تكاد تذوّب الإسفلت تحتي. كان الهواء وسط البيئة الصحراويّة يتبخّر من الأرض، ويمكنك أن ترسم شكل تبخّره. وقفتُ في آخر صفّ العساكر، وقفتُ منضبطًا، أقسم لك بذلك، تناهت كلمات بعض الجند، همس أحدهم: «إنّك هالك»، فبدأ الآخرون يقهقهون. بعضهم حاول أن يقتل قهقهته، ظللت واقفًا مختنقًا من حرارة الجوّ وحدّة اللحظة متفاديًا ضحكات بعض الجنود الذين كانوا ينظرون إليّ كأنّهم في مسرحيّة –لا، هذا ليس تعبيرًا من اشتقاقي-.

- لماذا تضحكون؟ هل نحن في مسرحيّة؟ هل أعجبكم المشهد؟ سأريكم أيّتها الكلاب الضالّة، مع نهاية اليوم سأروّض كلّ كلبٍ فيكم، وأنت أيّها الأحمق، قف هناك، مع السافليْن اللذين يرتديان ملابس البوب.

جريت إلى مكاني الجديد. قال لي أنور إنّني كنتُ أشبه الفتاة الصغيرة وهي تلعب بالحبل بينما أجري. صرخ الوحش، ثمّ انتقل يحدّث عن الانضباط واحترام القواعد والقوانين، وبدأ يسرد لنا القوانين الخاصّة بنا. الاستيقاظ الساعة الخامسة فجرًا. النوم الساعة التاسعة ليلًا. أيّ كلب يحاول الهروب سيطلق في رأسه النار، بعد أن يدع كلاب المعسكر تنهش وجهه. لا سجائر، لا كحول ولا مخدّرات داخل المعسكر، ومن يضبط بهذه الموادّ سيعرّض نفسه للنوم في العراء مع هديّةٍ مُفاجِئة. الغسيل يوميًّا مهمّ، الاعتناء بالنظافة الشخصيّة ونظافة الثكنة والحجرات. من يضبط وبحوزته

موسيقى من أيّ نوعٍ سيعذَّب، لا أكل من خارج المعسكر. من يضبط وهو يمارس الجنس مع جنديّ آخر سيتمّ حبسهما ونقلهما إلى الجديْدة حتّى يلتقطا قطع الصابون في الحمّامات بينما يتناولهما القتلة والمجرمون. البكاء ممنوعٌ، التبوّل اللّاإراديّ ممنوعٌ، الغناء دون إذنٍ ممنوعٌ، ولا ملابس مدنيّة. عندما وصل إلى جزئيّة الملابس المدنيّة، تأكّدت أنّ لي ولصديقيَّ تهذيبًا خاصًّا سيستمرّ طيلة اليوم.

- الآن، أريد منكم جميعًا عشرين دورةً حول المضمار البعيد هناك، أريدكم أن تركضوا كالأحصنة، لا أريد أن يتوقّف أحدٌ منكم ولو لحظةً ليتنفّس، هل من سؤال؟

ساد الصمتُ المكان، لم يجب أحدٌ.

- حتّى نحن يا فندي؟ قلتُ له.

- هل سمعتم؟ إنّ الأستاذ... ما اسمك؟

- ميلاد.

- ميلاد من؟

- ميلاد مختار محمد ميلاد الأسطى.

- إنّ الأستاذ ميلاد، مختار، محمد، ميلاد الأسطى، يسألني عمّا إذا كان يتعيّن عليه الركض رفقة صديقيه العِجْلين أم لا، هل يتعيّن عليهم الركض؟

علت القهقهات في بعض صفوف الجنود.

- صمتًا أيّتها الكلاب، ثلاثون دورةً للجميع. لا يا أستاذ ميلاد مختار محمد ميلاد الأسطى، لا يتعيّن عليك أنت أن تركض، ولأنّنا لا نريد أن نوسّخ ملابسك الجديدة وسروالك الكوبوي، ستخلع ملابسك التي ترتديها بروكًا تحت شمس النهار حتّى تنزل الشمس من البحر، يديك خلف عنقك ورأسك إلى الأعلى. عُلِم؟

وهكذا أمضينا اليوم على رُكَبِنا. تأكل الشمس مؤخّرات رؤوسنا. تعارفنا فيها، اتّضح لي أنّ أحد الشابّيْن قد ذهب إلى المدرسة الابتدائيّة نفسها التي ذهبت إليها. مع مرور الوقت وازدياد وطأة

العذاب ضعفت عيناي، وبدأت أرى المكان يدور من حولي. كان صوت الوحش وهو يزأر خلف الجنود ينسحب من أذنيَّ، جفّت شفتاي وتشقّقتا. ملح البحر، بالقرب من المعسكر، ملأ الجوّ مع ازدياد الرطوبة. كنّا نشاهد الرفاق يركضون ويركض الوحش وراءهم. ضحك أحد الرفيقين مع مرور الوقت وأخبرني: «هل أنت غبيٌّ؟ كيف تناقش المادونّا؟ كلّ من يدخل المعسكر يعرف اسمه»، لم يكن المادونّا –نظرًا إلى تكرار الكلمة على لسانه- سوى الرجل الضخم، قيل إنّه تدرّب في المعسكرات الإيطاليّة منذ زمنٍ طويلٍ، وقد أخذها عن الضابط الإيطالي الذي درّب دفعته، قيل أيضًا إنّ أمّه إيطاليّةٌ مسيحيّةٌ تزوّجها والده المجنَّد الأريتيري عندما كان أحد جنود بالبو. مادونّا تعني العذراء مريم، لم يكن آمر المعسكر، كان الرجل الذي أُوكل إليه تدريب الجنود الجدد. من ينجُ من المادونّا في الأشهر الأولى ينجُ من العسكريّة، هذا ما عرفته لاحقًا. تعرّفتُ في تلك الساعات على كلٍّ من منير وأنور، شابّين أحدهما من بوسليم والآخر يعيش في قرجي. كانت معالم المدينة واضحةً على وجهيْهما، صادف أن نكون ثلاثتنا في الغرفة ذاتها لنعيش أيّامًا جميلة معًا.

قبل أن ينتهي الوقت ارتميت على الأرض الإسفلتيّة، وغبتُ عن الوعي من شدّة العطش.

(٤)

«الشمس تجي وتعدّي، والأيّام تفوت وما تهدّي، وأنا وأنتِ زي الريح، ودّك ما رافق ودّي». أحببت أحمد فكرون، أحسست أنّه الوحيد الذي عبّر عنّي من أبناء جيله. كنت في شبابي أسترق ساعاتٍ من يومي فقط لسماع ما يغنّيه. أجلس وحدي في الشقّة قبل أن أنتهي من العمل على تفاصيلها الأخيرة، بفراشٍ فوق الحصير وبرّاد الشاي يغلي على النار، أتطلّع إلى الحياة القادمة لي فيها، في اللّيالي أهرب من الإفراط في التّفكير في حياتي وانتقاد نفسي، وأحاول البحث عن ماءٍ في سرابِ الأيّام. أضعتُ جزءًا كبيرًا من ربيع سنيني وأنا بين أن أقبل نفسي أو أطردها، حتّى جاءت زينب وهدّأت روعي قليلًا، فشعرتُ معها بالأمان. كان شرودي طويلًا، لكن لم أجد فنّانًا في حياتي يواسيني، أو فنّانًا يخبرني أنّ هروبي سينتهي يوم الحساب، كأنّه يطمئنني بأن لا داعي إلى القلق منه، «آه يا هارب في الليالي، من الليالي في الضباب... حزن قلبك في قلبك، من عذابك للعذاب، من غرامك في غرامك... من خيالك في السراب»، أدندن صحبته حتّى الأغنية التي تليها، ألبوم شوارع المدينة كان من أجمل ما سمعت. أتذكّر أنّني سافرت إلى بنغازي فقط بعد سماعي إيّاه بشهرٍ، أردت أن أرى المدينة التي غنّى فكرون من أجلها. بعد فكرون، تقلّبت بين أنواع موسيقى عديدةٍ. سمعت كأبناء جيلي لبوب مارلي، مثله ارتدينا سراويل الجينز وأقمصة الجينز وفتحنا جزءًا من الصدر لأشعّة الشمس، جعلنا شعورنا تنمو حتّى أصبحت كالقبّعات، وانغمس كثيرون من أبناء

جيلي في تدخين الحشيش وكنتُ أنا منهم لبعض الوقت. «نوو وومان نو كراي»، كنّا نغنّي صحبته بإنجليزيّةٍ مكسورةٍ. أشعر بالأسى نحو أبناء جيلي. فنحن الجيل التعس، أضعنا شبابنا في أكبر أزمةٍ اقتصاديّةٍ مرّت بها البلاد. كانت فترة منتصف الثمانينات وثلثي التسعينات فترةً كالحةً، سيّئةً إن كنتَ شابًّا في العشرينات من عمرك تتطلّع نحو المستقبل. تبدّدت أحلامنا وانفرطت كعقد لؤلؤٍ مقطوعٍ. رأيت فنّانين كثرًا ينغمسون في الهرّا والحشيش والبوخة فيتركون قيثاراتهم –في فترة مّا، كان امتلاكك قيثارةً تهمةً تفوق امتلاكك كيسًا من الحشيش تستنشق دخانه لتطير-، كنّا نستمتع بأقلّ ما تعطينا الحياة إيّاه، غلّقت قاعات السينما، وانحسرت المقاهي، واتُّهم أصحابها في شرفهم وفي شرف روّادها، ومُنِعت القهوة الإيطاليّة زمنًا. هذا لا يعني أنّني أنتقد الأخ القائد، حاشا وكلّا، فالأخ القائد قد حرّر ليبيا من سلطة الأجنبيّ. لكنّني واثقٌ من أنّه لا يعلم بحقيقة ما يحدث في البلاد، إنّ بعض الناس يفسّرون كلامه بطريقةٍ خاطئةٍ، هذا كلّ ما في الأمر، هل فهمت؟

لماذا أحدّثك عن البوب وأحمد فكرون؟ لأنّي لاحظتُ أمرًا ظلّ يحيّرني كلّما عدتُ إلى ذلك الزمن. ففي أغلب أنواع الموسيقى، التي سمعت والتي سمعها أغلب أبناء جيلي وربّما حتّى الأجيال التي سبقتنا وتلك التي تلتنا، كان موضوع العشق والشوق يتكرّر بين المغنّين. لقد سمعت فنّانين مختلفين يغنّون عن العشق والغرام والفقد واللوعة، لكن يمكنني أن أقول لك إنّ الليبيّين منهم غنّوا عن كلّ ذلك بأكثر الطرق تأثيرًا. في بعض الكلمات تجده يتمسّح بأعتاب حبيبته ويعيش الجنون واللّوعة والحرمان معذّبًا، عندما تسمعها وتعرف أنّ عددًا كبيرًا يسمع ما تسمعه، سيُخيّل لك أنّ هؤلاء الذّكور الذين يصغون إلى أغانٍ بمثل هذه الحساسيّة هم ألطف مخلوقات الكون، ولكنّ العكس هو الّذي يحدث كلّ يوم. في أيّام الصفا، تجلس زينب لتحكي لي قصص الجارات والقريبات، زوجة ابن عمّتي السمين سائق الشاحنات، والذي يدوخ رقصًا عندما تضرب «الزكرة» أمامه. ضربها ذات مرّةٍ فقط لأنّها طبخت له وجبة كسكسي بدلًا من البازين. أحد جيراننا، المبروك، بلعت أخته ثلاثين حبّة مخدّرٍ بعد مضايقاتٍ جنسيّةٍ منه ومن عمّه. المبروك ذاته، أمُرّ بجانبه كلّ يومٍ وأراه ينصت إلى جمال عبد القادر يغنّي: «مشيتي وين ما وصلك خبرنا وع الغيات يا زينه صبرنا». أبي لم يجلس يومًا في السفرة نفسها مع أمّي، رغم كونه من عشاق أمّ كلثوم، العبسي لا يكفّ عن تقلّد دور الأخ الغاضب مع أخواته، رغم أنّي لم أجد كوميديًّا مثله.

- ميلاد، يا صنم... حللت أهلًا ووطأت سهلًا، تعال ساعدني وأعطني علبة سجائرك، أريد أن أكيّف نفسي.

وحللتُ أهلًا، قرابة الأسبوع. دخلت البرّاكة، وجدته يعمل على حديقتها يريد زراعة الذرة تحت أشعّة شمس العشيّ. اشترى من السوق كيسًا من حبوب الذرة. للعبسي محاولاتٌ عديدةٌ فاشلةٌ في الدخول إلى بزنس جديد. رأيته أكثر من مرّةٍ يحاول أن يبيع أجهزة «الهيتفون» والألعاب للأطفال مع منتصف رمضان. حاول مرّاتٍ أن يصنع أكثر من قنّ دجاج ويربح من تجارة البيض العربي، وقد حاول أيضًا أن يربّي بعض الخراف ليبيعها في عيد الأضحى، زرع الثوم وعبّاد الشمس وزرع حتّى الدخان –أقصد بالزرع، أنّه كان يستخدمني للزراعة- في سانية البرّاكة، كان يذهب كلّ خميسٍ إلى الرشيد والمشير وعمر المختار يبحث عن أشياء جديدةٍ يمكنه بيعها للأطفال في القرية. اشترى أجهزة «الأتاري» و«الفاملي قيم» و«النينتدو» وباعها بضعف سعرها، لكنّه غالبًا ما كان يحنّ إلى الكسل رغم أفكار البزنس الجديدة التي يجيء بها. كنت أعرف أنّه يمرّ بضائقةٍ ماليّةٍ في ذلك الوقت، والغالب أنّه تخاصم مع أبيه وسيبيت بقيّة أيّامه في البرّاكة، حتّى تأتي أمّه تستحلفه بالله أن يعود إلى البيت وتعطيه قطعةً من ذهبها ليبيعها.

- اسمع، نريد أن نلحق بموسم الذرة، أفكّر في صنع برّاكة على طريق الشطّ بجانب المصيف، وبَيع الذرة المشويّة والمطبوخة هناك، ما رأيك؟ لقد رأيت وثائقيًّا في التلفاز، الأتراك يطبخون الذرة، هل تعلم ذلك؟

- فكرة جيّدة.

- اسمع –ضرب كتفي وهو يدخّن سيجارتي-، أريدك أن تكون معي في المشروع. في الصّيف القادم سيأتي كثيرون من البلاد للمصيف، أشعر بذلك. لم يعد أحد يستسيغ العوم في المجاري، الصيف الماضي انتشر طفحٌ جلديٌّ بين الأطفال، وعندما يبكي الأطفال أمام آبائهم ويصرخون بأنّهم يريدون البحر، أين تعتقد أنّهم سيأخذونهم؟

- لا أعلم، لو كنت مكانهم سآخذ الأطفال إلى أقصى شطآن الشرق، الشاطئ هنا لا يصلح.

- نعم، لو كانوا جميعهم أبقار بحر مثلك، لكنّ الإنسان منهم لا يرى البحر إلّا مرّةً واحدةً في العام. وسيأتون هنا. تحدّثت مع جمع من السفلة البزناسة عن المصائف، والجميع ينوون زيادة عدد المصائف. إنّهم مافيا وأريد أن أكون الدون كارليوني بالنسبة إليهم.

- إذَن ما هي خطّتك؟

- ألم تكن تسمعني؟ الخطّة هي زراعة المائة والخمسين حبّة التي بالكيس في هذه الأرض يا صنم، هيّا ساعدني.

وانغمسنا في زراعة ذرته، زراعة السانية تحتاج إلى طريقة معيّنة في الريّ، تقسم الأرض إلى مربّعات، وفي كلّ مربّع تزرع مجموعةً، زراعة الذرة تحتاج إلى الماء، الكثير منه، كما تحتاج إلى أن تكون المسافة بين كلّ صفٍ وآخر صالحةً لأن يمرّ بها إنسان بالغٌ، يجب ألّا ندوس النباتات المسكينة. وهكذا أمضينا ساعةً في العمل، أخذ العبسي يحكي لي عن شجاره مع والده وهو يدخّن لفافةً من الحشيش، وأنّه سئم «الشيباني صاحب العقليّة المغلقة»، «لو يموت، سيكون أسعد أيّام حياتي»، وظلّ يحكي لي عن الكوشة، وما آلت إليه جودة الخبز. كان يحبّ أن يحدّثني عن الكوشة كلّما سنحت له الفرصة، وأحبّ سرد ذكريات العمل بها، عن المرّات العديدة التي أحرقنا فيها الخبز فأخذه هو ليبيعه لمربّيي الماشية. عند انتهائنا من زراعة حبوب الذرة، وتحديد الجداول وسقي التربة حتّى تبدأ الحبوب في امتصاص الماء، جلسنا مع غروب الشمس على الكنبة أمام طاولة الخشب القصيرة التي يعود زمنها إلى أيّام بيتنا الأوّل في الظهرة. شربنا الشاي ودخّن العبسي من سجائري. ظلّ الصمت الممزوج بالتعب يحلّ على أرواحنا دقائقَ قبل أن يتحوّل العبسي إلى الكلام.

- اسمع يا ميلاد، أراك معكّر المزاج.

- لا شيء، على العكس مزاجي جيّد.

- اسمع، أنا لا يهمّني ما قلته بخصوص أبي، أعرف أنّ الشيباني صعب المزاج ولكنّك وأخواتك بعتموه النّصف الّذي يملكه والدكم من الكوشة، برضاكم.

- أعرف ذلك، لكن الطريقة...

- لا تهمّ الطريقة، ما يهمّ أنّها كانت عمليّة بيع بالتراضي.

قال وسكتنا لدقيقة ننظر إلى غروب الشمس، ثمّ أشعل سيجارة حشيش ثانية وسلّمني إيّاها لأدخّن معه.

- اسمع، أنا أسحب كلّ كلامي الذي قلته لك الأسبوع الماضي، أنت حرّ تفعل ما تشاء، لقد كنتُ سَكْرَانَ ولم أحسب كلامي جيّدًا. قال يقطع الصمت.

- كلامك صحيح، لقد لاحظت هذا.

- أهًا.

(٣)

في المعسكر، تسلّقتُ الحبال، وجريت مسافاتٍ لم أفكّر يومًا في قَطعها مشيًا، ذبحتُ الأرانب بيديّ ومزّقت جلودها بأظافري. استيقظتُ باكرًا وأُنهِكتُ حتّى إنّني أحيانًا لم أتمكّن من تناول وجبة العشاء، أدّبني المادونّا مرّاتٍ عديدةً، وصرت معروفًا بميلاد عجينة. صرتُ غريمَ المادونّا الطبيعيّ. رأيت فيه صورة الرجل الوحشيّ القاسي، ورأى فيَّ النقيض. في المعسكر اغتسلتُ بماءٍ باردٍ في منتصف الشتاء، وانقطع نفسي عندما انسكب الماء على جسدي، اغتسلتُ بصابونةٍ خضراء من مصنع زناتة للصابون. ولأيّامٍ كنّا لا نأكل سوى سندويتشات التونة والمعكرونة. تدرّبتُ في الظروف الجويّة جميعها، في البرد القارس، تحت المطر الغزير، في الجفاف المدقع، في الحرّ الشرس، في الأيّام العاصفة، في العواصف الرمليّة، تدرّبتُ على مياه البحر ووسط رمال الصحراء، تدرّبتُ حافيًا أمشي على الأشواك، وعلى الإسفلت الساخن. يصيح بي المادونّا: «هيّا المادونّا، هل آتيك بأختي تحملك على كتفيها؟»، تدرّبتُ على أنواع السلاح، كلاشنات، رشّاشات وحتّى الأر بي جي. كيف تفكّ سلاحك وتنظّفه في دقائق معدودةٍ. كان المادونّا يتندّر بي عندما يخطئ أحدهم هدفه: «هل خالطت السي ميلاد مؤخّرًا؟»، لم أصب هدفي قطُّ. في المعسكر صنعتُ صداقاتٍ قصيرةً مع مهرّبي السجائر والحلوى من الجنود العائدين من العُطل الشهريّة. بعد ذلك عرفتُ أنّ السجائر كانت تُمنع فترةً ويُسمَح بها فتراتٍ أُخَر، ثمّ إنّ ذلك يتوقّف على المهرّب وعلاقاته داخل المعسكر وخارجه. أجمل الأيّام التي كنّا ننتظرها هي تلك التي تأتي فيها شاحنات المؤونة. بإمكانك أن تتحصّل على بطّانيّة «نِمر» جديدةٍ لتعود بها إلى المنزل في العُطلة. كنت آخذ البسكويت والملابس والأحذية الجلديّة الجيّدة في أيّام عطلتي بالإضافة إلى الملاعق والأواني السوفيتيّة، «جاءت هديّة من تشيكوسلوفاكيا للقائد فقرّر أن يوزّعها على أفراد الشعب المسلّح»، سيّارات جديدة تُعرض بثمنٍ بخسٍ لأفراد الجيش، ودرّاجات ناريّة وأخرى هوائيّة.

ورغم كلّ هذه الذكريات، فإنّ ذكرى واحدةً استقرّت ببالي، تلك التي أعلن فيها المادونّا فشله في أن يجعل منّي بندقيّةً يوجّهها حيث يشاء. كان ذلك في نهاية أي النّار(8)، بعد أشهرٍ أربعةٍ من العذاب المستمرّ. كان البرد القارس يعضُّ أجسادَنا العارية الصدور. المطر يتساقط فوق رؤوسنا. أجساد بعضنا كانت تشبه عصفور قصبٍ رقيقٍ مبلّل بالمطر. أراد المادونّا أن يعلّمنا شيئًا عن قوة

التحمّل، لأنّه شهدَ في سنوات الغربة بـتشيكوسلوفاكيا الجنود يتمرّغون في الثلوج. لم نفهم لماذا كان عليه أن يقارن صقيع الاتّحاد السوفييتيّ ببردنا. لن نحارب يومًا في الثلوج. كان الأمر منطقيًّا عندما وضعنا حفاةً، نتمرّغ في التراب في عزِّ قيلولة الصيف، سمعتُ أنّ الجنود في تشاد كانوا يحاربون في درجة حرارةٍ تشوي أجسادهم، حتّى إنّ بعضهم ذهب أبيض كالشمعة إلى أوزو وعاد أسعد كالبياض(٩) إلى طرابلس. المهمّ، أغرقنا المادونّا بالركض حول المضمار الذي تحوّل إلى كيلومترات من الطمي بسبب الأمطار. كان البعض يلعب بالطين وهم يجرون في الطريق. يرمي الجنود القدامى المتأخّرين في القافلة بالطين. سرعان ما تحوّل المضمار إلى أرضٍ وعرةٍ. لم يكن هناك مجالٌ للتوقّف، أو حتّى للتعثّر. كنتُ جيّدًا في الركض. لم أكن من المتأخّرين لكنّي تعثّرت في منتصف المسافة، لم يسمح المادونّا لأحدٍ بالتوقّف، أو حتّى بتفادي جسدي المرميّ على الأرض، بل أمر الجنود أن يمشوا فوق جسدي «ميلاد، يا ضعيف»، صرخ بينما ظللت مرميًّا على الأرض ملطّخًا بالطين والمطر، والصقيع يهزّ جسدي، أعدّ «الكادارات»، التي كانت ترغمني على الالتصاق بالتراب. الألم يكاد يقسم ظهري، كم كان العدد؟ ربّما خمسين كادارًا على الأقلّ. عندما انتهى مرور القطيع فوق جسدي، وجهي تحوّل إلى تمثالٍ طينيٍّ، وظهري صار لوحةً فنّيّةً تحمل مقاسات الأحذية العسكريّة الثقيلة. عندما وصل المادونّا، الذي كان متأخّرًا يركض وراءنا، صرخ فيَّ أن أنهض. حاولت ذلك، أقسم لك، لكنّي كنتُ منهارًا، انزلق جسدي نحو الأرضيّة الطينيّة المتّسخة. للحظة اختفى البرد وصرت أشعر بالدفء. تبوّلت على نفسي. لمّا خرج البول الساخن ارتخت عضلاتي. ابتسمتُ لحظةً رغم حالة الألم المرهقة التي بلغتها. خطرت لي فكرةٌ مفادها أنّي استطعت، أخيرًا، أن أعصي أمرًا للمادونّا أمامه ودون أن يدري.

- ميلاد يا ضعيف، انهض... هل تريدني أن أحملك؟ ها؟ هل عليَّ أن أبحث عن قضيبك؟ أمتأكّد أنّك رجل؟ انهض أيّها الضعيف، انهض. سأمزّق لك الحيوان المغروس فيك وأجعل مكانه حفرةً، هل هذا ما تريده؟ هل أتيت هنا لتنبت لنا جُحرًا؟

- آه....آه...آه...لا...لا... لا أستطيع.

- هيّا يا غبيّ، عش يومًا ديكًا ولا عشرة دجاجة، هيّا تحرّك.

استمرّ في صراخه وصياحه، لكنّ جسدي رفض أمره. عندما كلَّ منّي وملّ، أمر أحد الجنود ليتفحّصني، كنت نصف مغمًى عليّ.

- لن يتمكّن من الحركة سيّدي، سيحتاج إلى الطبيب.

أعلن الجنديّ رصاصة الرحمة على جسدي المنهك. فرحت. وتمكّنتُ أخيرًا من أن أغمض عينيّ، علمتُ أنّه لن يعذّبني بعد ذلك.

- خذوه إلى المستشفى إذَن، ماذا تنتظرون؟

ارتميت في المستشفى العسكريّ أسبوعًا أفكّر في طريقةٍ للهروب من العذاب. حلمتُ أيّامًا بالمادونّا يجري ورائي بكلاب الوولف في المعسكر. أصلُ إلى نهاية السور فأجده أعلى من مقدرتي على تسلّقه. في نهايته زجاجات سعادة، كوثر، مرادة، وتبر مكسورة ومرميّةٌ. فوق الزجاجات أسلاكٌ مدحرجة بطول إنسانٍ. اكْحيلة وريكس (اثنان من أشرس كلاب المعسكر) يقتربان من جسدي المنهار. أحاول الجري مرّةً أخرى لكن أتعثّر فأشعر بألف قدمٍ تضغطني إلى الأسفل. يلتصق وجهي بالأرضيّة، عند ذلك فقط، يمسك بي كلٌّ من ريكس واكحيلة يمزّقان قدميَّ، ثمّ يجرجراني إلى منتصف الساحة حيث المضمار. هناك يقف كلبٌ كبيرٌ، ضخمٌ، يشبه المادونّا. وقبل أن يفتح فمه أستيقظ هلعًا. استمرّ هذا الحلم وأحلامٌ غيره تأتيني في أوقات القيلولة والليل طيلة وجودي بالمستشفى العسكريّ، في منتصف الأسبوع جاءني زاهر، كان زاهر أحد الجنود «المهرّبين» المشهورين بالمعسكر. كان أحد أبناء عمومة القائد من قبيلته الكبيرة التي تقطن البوادي. جاء للزيارة، بعد أن اطمأنّ على صحّتي وألقى بعض النُّكَت بخصوص وضعي المريح حاكيًا لي قصصًا عن المادونّا، أخبرني أنّ بإمكانه أن يهرّبني.

- من أين؟ قلتُ له.

- من البحر، المكان الوحيد الذي لا يخطر على بال أحدٍ.

- ولكن، ماذا إذا بحثوا عنّي بعد هروبي؟ التهرّب من العسكريّة عقوبته وخيمة.

- هذه دعها لي، عمّي عقيد في الجيش، ويمكنه أن يكتب رسالةً تعفيك من الخدمة.

- ولماذا لا يفعل ذلك الآن؟ أفضل من أن أهرب.

- لأنّ الرسالة ستأخذ وقتًا طويلًا لتجهز، إذا أردت ذلك فانتظر حتّى ينتهي منك المادونّا.

- سأرى، لكنّني سمعتُ الطبيب يقول إنّه قد يعطيني ورقة الإعفاء.

بعد ساعتين من الحديث مع العبسي، أخبرني بأنّه قد رأى زوجتي تركب سيّارة أحدهم بالمؤسّسة، فلم أتمالك نفسي، وخرجت مسرعًا ألهث بحثًا عن مكانٍ يتلقّفني. وجدتُني أمام البحر ليلًا. وقفتُ أمام جرف عرفته وصادقته سنواتٍ عديدةً، نظرتُ إلى أسفل أتأكّد من أنّه جرفي الذي ينتهي تلاطمُ أمواج البحر فيه بمجموعةٍ من الأحجار الزلقة الحادّة، اطمأننت إلى ذلك. بعيدًا، كانت مجموعةٌ من المزرّدين، تلتفّ حول نار صنعوها وإنارة سيّارتي جيب، وباستثناء ذلك لم يكن أمام البحر أيّ إنسانٍ آخر. وقفتُ أشاهد تحت ضوء القمر الخجول الأمواج تعانق أحجاري الزلقة.

- أحلف لك يا ميلاد، وأنت تعرف أنّني لا أحبّ أن أحلف كاذبًا، لقد رأيتها بأمّ عيني، وهي تركب السيّارة مع المدير العامّ للمؤسّسة. ركبت في الكرسيّ الخلفيّ. كنتُ ذاهبًا من أجل المعاش، أنت تعرف أنّني لا أذهب إلى المؤسّسة إلّا للتوقيع والسؤال عن معاشي. اشتريتُ بريوشًا وفروبِّي فراولة من الحاج فتحي، وانطلقتُ إلى المؤسّسة. كان ذلك مع الساعة العاشرة، هل تصدّق أنّني استيقظتُ باكرًا اليوم؟ المهمّ، رأيتها تركب سعيدة في سيّارة المدير.

- ولكن قد يكون أخاها.

- هل تعتقد أنّي سأخطئ أخاها الصادق النحيل فأحسبه مدير المؤسّسة السمين المدخّن الشره الكذّاب؟ الرّجل الّذي يرتدي دومًا البذلة البنيّة وربطة عنق قوس قزح؟

- لا.

- بالطبع لا. اسمع، لم أرد أن أخبرك بذلك بعد أن فعلتَ ما فعلت الأسبوع الماضي، ولكن أنت الآن أتيتني تشكو إليّ عائلتك وضعفك، وتريد أن تستعيد عرشك كربّ البيت، قبل أن ينفلت كلّ شيء، صحيح؟

- صحيح.

«رأيتها تركب وحدها في سيّارة المدير»، رنّت هذه الكلمات في عقلي، كان البحر أمامي، والخوف وحده ورائي تشعّ أضواؤه في كلّ بيتٍ. سألت الله ما الذي فعلتُه حتّى تعاملني الحياة بهذه الطريقة. أَلأنّني كنت ولدًا وحيدًا لأخواتٍ أربع، ولأنّي تعلّمتُ ضفر شعر أخواتي وأنا في العاشرة، وصناعة الحلوى النسائيّة في الثانية عشرة، ولأنّي صنعت الخبز والكعك والحلويّات والبريوش وتعلّمتُ الطبخ منذ طفولتي؟ ربّما لأنّني رضيتُ أن أغسل ملابس زوجتي وأرتّبها وأكويها،

وأنظّف بيتها وأغسل أوانيها؟ ربّما لأنّني تركت فراش الزوجيّة واللعب منذ أن يئسنا من إنجاب الأطفال، متى كان ذلك؟ نعم، عيد ميلادي الأربعين، عيد الميلاد نفسه الذي تحوّلتُ فيه تمامًا إلى ميلاد الذي يسخر منه الحيّ كلّه، ويومًا مّا ستسخر منه البلاد والكوكب أجمع. كان البحر يناديني. لأحمد فكرون أغنية يغنّي فيها عن النوارس: «يا نورس يا حالم على شطّ البحر، أحلامنا وأيّامنا نادت... شوق ورحلة وسمر». على الشاطئ وحيدًا، لم تكن هناك نوارس لتواري وحدتي وتواسيني. مرّت بي أيّامٌ كنت آتي يوميًّا إلى الجرف نفسه صباحًا. أتابع النوارس، أبرمتُ صداقةً مع أحدها، لاحظت وجوده أكثر من مرّةٍ. كان يختلف عن بقيّتها، نصفه أسعد. ذكّرني بنورس أحمد فكرون، أقول له إنّ الاختفاء خلف السحاب لا يجدي نفعًا، حتّى ينزل بسرعةٍ ليغطس في البحر. لطالما حلمتُ بأن أفعل مثله. هذه المرّة، ازدادت رغبتي في أن أقلّد حركة النورس، وأن أغطس في الجرف حُرًّا من أيّ شيءٍ، حرًّا من الخوف، قلت لنفسي: «هيّا، الثالثة ثابتة». لكنّ شبح أبي ظلّ يلاحقني تلك الليلة. كنت أخاف ألّا ألتقي به في الجنّة، وألّا أتمكّن من أن أشكو إليه عمّي الذي سرق منّي حياتي وشغفي، ولا الحيّ الذي يستصغرني، أو زوجتي التي تخونني. أخاف ألّا أتمكّن من أن أشكو إليه المادونّا، ذلك الغول القبيح. كنتُ نورسًا حالمًا على شطّ البحر... حالمًا بالخلاص. وعندما أردت الخلاص، كنت على شفا أن ألقي بنفسي، تذكّرتُ شيئًا مّا، لقد تركتُ عجينًا منذ العشيّ ينمو وحدَه. استأت، حدّقتُ في القمر أخاطب الله بأنّ هذه هي المرّة الأخيرة التي سيوقفني فيها. صرختُ في السماء، أخذت حرّيّتي في ذلك وأنا أستمع إلى جيراني البعيدين يغنّون ويرقصون، ثمّ عدتُ أدراجي ركضًا حتّى ألحق بعجينتي. لم يهُن على قلبي أن أخرج من هذه الدنيا وقد تركت خبزي لغيري، كنتُ أحبّ أن أعيش ألف سنةٍ دجاجةً ولا أن ألقي بنفسي كالديك من فوق سطح الإسطبل مدركًا أنّني لن أطير عاليًا إلّا دقائق.

في صباح اليوم التالي، بعد آخر أيّام صمتي مع زينب، لأوّل مرّةٍ، منذ مدّةٍ، لم أَكْوِ لها ملابسها، ولم أعدّ لها فطورها. عندما استيقظت متأخّرةً عن العمل وجدتني في المطبخ وأنا أشرب القهوة وأدخّن سجائري، كنت أخبّئ يدي اليمنى المرتعشة، لكنّ القلق والتوتّر يتّضح من حركة السيجارة في يدي اليسرى.

- صباح الخير. قالت لي متعجّبةً ممّا أتاها منّي.

- صباح النور.

- لا فطور اليوم؟

- لا، لا نيّة في الفطور.

- إن شاء الله خير؟

- اجلسي.

- أنا متأخّرة عن العمل.

- اجلسي. حرّكتُ الكرسيّ. أريدكِ أن تتوقّفي عن العمل. قلتُ لها.

- لماذا؟

- لا أعرف، ولكن أريدك أن تفعلي ذلك.

- لا.

- ماذا؟

- لا، لم يكن هذا اتّفاقنا، لقد أنهكت سنين عمري حتّى أصل إلى هذه المرتبة، أهملتُ نفسي حتّى ترتاح حضرتك بلا عملٍ خوفًا من العالم الذي يطاردك، تحمّلتُ وتحمّلت وتحمّلت، والآن عندما تعبت من خضرواتي ومشروبي ونقودي التي تضيّعها في سجائرك تريد منّي أن أتوقّف؟ لا.

- سجائري أشتريها من معاشي.

- لا، معاشك تصرفه على أخواتك العانسات.

مرّتين ضربتُ فيهما امرأةً خلال حياتي، الأولى كما أخبرتك عندما عدتُ من العسكريّة لأسرّح شعر أختي الصغرى، والمرّة الثّانية بعد أن احتدم النّقاش بيني وبين زينب. لا أعلم كيف وجدتني منتصبًا أمامها، غاضبًا على نحوٍ جعلني عاجزًا عن التّفكير في ما يتوجّب عليه فعله، وقد وجدت يدي تمتدّ إلى وجهها لتصفعه. فارتمت على الأرض وهي تُمسك وجهها، ثمّ نظرت نحوي باكيةً.

- تضربني أنا يا ميلاد؟

في زمننا كان من الطبيعيّ أن يضرب الرجل منّا امرأةً. أعرف رجالًا يمارسون عاداتٍ عنيفةً على زوجاتهم، يمكن للرجل أن يجرجر زوجته على الأرض ويحبسها في إحدى غرف المنزل أيّامًا، أعرف أحدهم حبس زوجته شهرًا كاملًا هي وطفلها فقط لأنّها رفعت صوتها عليه، طبعًا بعد أن كال لها ضربًا مبرّحًا وشوّه وجهها، كان يطبّبها ويغذّيها وهي محبوسةٌ حتّى تمكّنت يومًا من الهروب منه. أحيانًا يتآمر أفراد أسرةٍ كاملةٍ على زوجة أخيهم الغريبة، وهذا ما حدث لزوجة ذلك الرجل. كانت تصرخ وتبكي، وأهل زوجها المحيطون به يسمعون نحيبها لكن لم يفعلوا أيّ شيءٍ سوى تحريضه عليها. لسنوات كانت أمّي تشكرني أمام النساء فقط لأنّني لم أتعارك يومًا مع زوجتي: «ما شاء الله عليه ميلاد ما عمره مسّها ولا حرجها، لن تجد مثيله»، كانت أمّي تقول. لم أخبر هنادي ابنة أختي صباح المطلّقة كيف لها أن ترتدي البناطيل وتذهب إلى الجامعة هكذا، لم أتابع امرأةً تحت «حمايتي»، ولهذا، كنت أحيانًا أتخيّل ماذا لو فعلت ذلك. تخيّلتُ سيناريوهات أقدمُ فيها على ضرب زينب وتعذيبها، إغلاق باب البيت عليها، وحبسها، وهي تنتظر هناك خائفةً منّي، ولا تجرؤ على معاندة الواقع المفروض عليها، تتركني لله، وعندما أرضى عليها تعود العلاقة طبيعيّةً بيننا، ماذا يسمّون هذا الشيء؟ أقصد حالة الرضى التي تمرّ بها المرأة بعدما يضربها زوجها، أو وليّ أمرها، وبعد ذلك بأيّامٍ تعود حياتهما طبيعيّةً كما كانت، يتركها تطبخ له دون أن يشعر بخشيةٍ من محاولتها تسميمَه. ثمّة شيءٌ يفعله مربّو الكلاب وهو تأديب كلابهم بالضرب والتعنيف ثمّ إطعامها، لكنّهم لا يستخدمون اليد نفسها لفعل ذلك، يضربونها باليسرى ويطعمونها باليمنى. مع الوقت ينصاع الكلب، وعندما يرفع المدرّب يده اليسرى تجد الكلب قد تأدّب. هل هذا ما يفعله الأزواج لزوجاتهم؟

ثمّة سرٌّ أريد أن أفصح لك عنه. عندما وجّهت صفعتي إلى زينب، شعرت بألمٍ في كفي. كانت يدي ترتعش، لم أصدّق أنّي صفعتها حقًّا، وإن تخيّلت موقفًا كهذا أكثر من مرّةٍ، كنتُ فيها أحيانًا أشعر بالنشوة والانتصار، ولكنّ ما شعرتُ به لم يكن طعم انتصارٍ. اعتقدتُ أنّ الصفعة كانت ردَّ فعلٍ لاإراديًّا على إهانتها أخواتي، لكن، كانت زينب تفعل ذلك أكثر من مرّةٍ عندما تحتدّ نقاشاتنا. ثمّة شيءٌ مستجدٌّ، أردت أن أصفع وجهها الخائن –أو الذي اعتقدته كذلك-، ذلك الوجه الذي فضّل أن يقبّله مديرها على أن أقبّله أنا.

- أتصفعني أنا يا ميلاد؟ صرخت باكيةً.

- آ....آ... آسف.

حاولتُ أن أقترب منها معتذرًا، مادًّا يدي، حَمَت نفسها بأن تحرّكت خطواتٍ إلى الخلف حتّى أوقفها الحائط. كانت تبكي خائفةً منّي.

- لا تقترب منّي، صفعتني يا ميلاد. صرخت.

(٣)

في اليوم السابع خرجت من المستشفى. صرّح الطبيب بأنّني لن أكون نافعًا بعد الآن في العمل العسكريّ، وهو ما يُعدّ بمثابة إعلانٍ عن فشل مشروع المادّونا، المشروع الذي دخلتُ الجيش من أجله. ذهبت مباشرةً عند خروجي إلى مكتب آمر المعسكر. كنتُ سعيدًا، ولو أمكنني الرقص في تلك اللحظات لفعلت، ولم يكن لي أن آبه لضحكات الجنود، الذين سيسرّون لرؤية رجلٍ يرقص كفتاةٍ في طريقه إلى مكتب المدير كأنّه يسير في نزهةٍ. جلستُ هناك عشر دقائق أنظر في صورة الأخ القائد فوق مكتب مدير المكتب. كان مُدير المكتب يُدخّن سجائره، ويُنصت إلى الموسيقى المُنبعثة من الراديو. كانت أغنية تُعدّد صفات الأخ القائد الرجل المثاليّ لهذا البلد. تطلّعت إلى صورته. في السابعة والعشرين ثار على نظام الحكم في البلاد، ومن ثمّ ارتفع عاليًا ليدخل الحروب، ويدعم الحركات التحرّريّة حول العالم. انطلق المغنّي ليذمّ العملاء العرب وأمريكا وبريطانيا وصوّرهم على أنّهم كالنساء يرتعدن من ربّ البيت. كنتُ جالسًا وقد انزاح حجر الميزان الثقيل عن صدري، أقرأ تفاصيل المكان فرحًا بقرار الإفراج عنّي، فهو على أيّة حالٍ أفضل من الهروب ومن المعسكر. رنّ هاتف مدير المكتب، «ميلاد الأسطى، المجنّد... نعم إنّه هنا»، دخلتُ المكتب حاملًا معي الأوراق التي تعفيني من الخدمة العسكريّة. كان الآمر مجتمعًا مع المادونّا يشربان القهوة. عندما دخلت، أدّيت التحيّة. كان الآمر رجلًا خفيًّا بالنسبة إلينا نحن المستجدّين. فهو دائم السفر والاجتماعات، ولم يكن يوجد في المعسكر إلّا أيّامًا قليلةً. يقولون إنّه مقرّب من أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة، ووجوده هنا هو يوم سعدي. كانت أوراقي ستأخذ أيّامًا طويلةً ليتمّ اعتمادها، لكنّ وجوده يعني أنّني قد أخرج غدًا.

- ميلاد يا ابني، حمدًا لله على سلامتك، اجلس. قال لي الآمر.

كان المادونّا يحدّق في غريمٍ قديمٍ له، لكنّني لم آبه به، جلستُ مبتسمًا على كرسيٍّ، شبيه بالكرسيّ الذي يجلس عليه. كان مضطربًا، فكّرتُ أنّ الآمر سيأخذ حقّي أخيرًا من المادونّا ويفصله عن العمل، رفع الآمر السمّاعة.

- محمود، اسمع أحضر لي قهوة، ولك يا ميلاد؟ قهوة أم شاي؟

- قهوة سيّدي.

- الحمد لله على سلامتك يا بنيّ. كنت خائفًا على حالتك وتابعتها يوميًّا مع الطبيب. وسعدتُ عندما أخبرني بأنّك على خير ما يرام. قال الآمر مجدّدًا.

- شكرًا لك سيّدي.

كان المادونّا صامتًا يكتفي بالنظر إليّ.

- أنت من عائلة الأسطى يا ميلاد صحيح؟

- نعم.

- هل تعلم أنّني عرفتُ والدك من أيّام كوشة الظهرة، كان أوّل الذين يخرجون فرحين بالثورة، هل مازلتم تصنعون ذلك الخبز بالسمسم؟ نسيتُ اسمه، إنّه أفضل خبزٍ يمكنك أن تتذوّقه في حياتك.

قال الآمر ونظر إلى المادونّا ينقش في رأسه صورة أجمل خبزٍ تذوّقه.

- لقد أخبرني الملازم جمعة –هذا اسم المادونّا الحقيقيّ-، أنّك خبّاز كأبيك، أليس كذلك؟

- نعم سيّدي، عملتُ منذ طفولتي مع أبي في الكوشة.

- أعتقد أنّك طباخٌ ماهر أيضًا؟

- نعم سيّدي.

- نحن نحتاج إلى أناسٍ مثلك في المعسكر، جودة الطعام هنا ليست عالية إطلاقًا، أعرف ذلك، الطبّاخون سيّئون، تأكل من المعكرونة كأنّك تأكل من قِدر سجنٍ. كنت أفكّر منذ مدّةٍ في تغيير طاقم المطبخ، ما رأيك في أن تكون ضمن الطاقم الجديد؟

- ....

- فكّر في ذلك، ولا تخف من الملازم جمعة، لن يقربك بعدها يومًا، بل أريد أن أخبرك أنّ معاش الطبّاخين جيّدٌ جدًّا، وستتزوّج قبل نهاية العام القادم إذا قبلت العمل، لكن قبل كلّ ذلك، أحتاج منك إلى شيءٍ.

- سيّدي...

- أريدك أن تعطيني الورق الذي سلّمك الطبيب إيّاه عن حالتك وأن ننسى ما حدث ونبدأ صفحة جديدة ما رأيك؟

- ....

- فكّر في ذلك، وأخبرني بقرارك في الغد، الآن يمكنك أن تنصرف لترتاح.

- حاضر سيّدي.

- لا تنس يا ميلاد، دع أوراقك حتّى أطمئنّ عليك بنفسي، ابن عمّي طبيب.

سلّمتُ الأوراق للآمر، وعدتُ إلى الثكنة. وجدت أصدقائي وزملائي في المعسكر مجتمعين في غرفتنا يحمدون الله على سلامتي. تذكّرتُ عرض الزميل المهرّب، يمكنني بسهولة أن أترك المعسكر الليلة، ثمّ أختفي حتّى يصدر عفوٌ عسكريٌّ من أعلى. «أين أوراقك؟»، قال لي أنور. قلت له إنّني تركتها في مكتب الآمر، «أحمق»، «نعم أحمق يا ميلاد». ردّد الزملاء الآخرون، «أعتقد أنّه استدرجك فقط لتنسى أمر الخروج من المعسكر»، «ماذا قال المادونّا؟»، «هل تعرف أنّ الآمر الحقيقيّ هو المادونّا، العقيد مجرّد صورةٍ في المعسكر»، تكرّرت في عقلي أصوات الزملاء وأفكارهم.

في اليوم التالي استيقظنا على صيحات المادونّا وهو يقرع أبواب الغرف قبل موعد التدريب بساعةٍ.

- بسرعة يا خرق، يا بغال. هل تعتقدون أنّ الحرب ستنتظر؟

عندما وصل إلى غرفتنا، طرق الباب ووقف هناك ينتظر منّا أن نفتحه، أسرعنا نغيّر ملابسنا، فتح أحد الزملاء الباب. كان المادونّا ينظر إليّ وهالة سعادةٍ مخيفة تحيط بوجهه حاملًا أوراقي. قال

لي:

- ميلاد، الحمد لله على السلامة.

ومزّق أوراقي أمامي، «أخبرتك أنّ الهروب من المعسكر ممنوع، هيّا بسرعة... ملابسك والساحة»، قال لي، ثمّ انتقل يصرخ في الممرّ ويطرق على غرف الآخرين. نظر زميلاي في الغرفة إليَّ مشدوهَيْن. نطق أنور معزّيًا: «قلتُ لك يا ميلاد». كنتُ ممسكًا بقميصي، شعرتُ بثقله على يدي. بالأمس كنت أحلم بخلع كاداري الذي شوّه منظر قدميَّ، سروالي الذي تمزّق ومزّق ساقي، واضطررت إلى السهر ليالي لترقيعه مع ملابس لآخرين، قميصي الذي أثقل كاهلي وحرمني أن أجري عاريًا في شوارع الظهرة. ولكن الآن ازداد شعوري بملابسي، بوجودها ملتصقةً على جسدي الذي يحاول التخلّص منها. هل هذا ما يشعر به السجناء؟ أعتقد أنّ أسوأ ما يمرّ به السجين هو ارتداؤه الملابس نفسها يوميًّا. هذا الروتين يقتلني. انتقلت من اختيار ملابس بألوانٍ زاهيةٍ ورقيقةٍ، إلى أخرى خضراء وخشنةٍ. اعتدتُ أن أرتدي الجينز والقمصان المفتوحة الصدر بألوان السبعينات الزاهية، حتّى إنّ الشباب في القرية كانوا يسخرون ممّا أرتديه. انتقلتُ من تسريحات الشعر المختلفة إلى وضع حليق الرأس. أريد ملابسي. أردتُ أن أبكي وأنا أرتدي قميصي وأربط خيوط الكادار لأوثق الرباط على قدميَّ. ذلك الصباح كان سيّئًا بكلّ المقاييس. زاد المادونّا جرعة في التدريب وركّز عليَّ مدّةً طويلةً. عند انتهاء التدريب الصباحيّ، وحلول وقت الفطور، رأيت زاهر وهو يتناول سندويتش التونة مع مجموعته. اقتربتُ منه، وسألته عن جدّيّته في إخراجي من المعسكر، لم أجد منه سوى جوابٍ واحدٍ:

- اليوم مساءً، تعال إلى غرفتي.

عندما حلّ المساء ذهبت إلى زاهر، وجدت عنده مجموعةً من الجنود الآخرين، كانوا خمسةً. تفاجأت من وجود منير في المكان. لم نتحدّث مطلقًا عن رغبة كلٍّ منّا في الهروب من المعسكر.

- حسنًا يا شباب، علينا أوّلًا أن ندخل في بعض القواعد العامّة. أوّلًا، أنا لا أعرفكم وأنتم لا تعرفونني، إذا أمسكوا بكم، فأنتم وحدكم خطّطتم للهروب.

استمرّ زاهر يحدّثنا عن القواعد التي أرساها. الاختفاء عن الأنظار حتّى خروج رسالة الإعفاء من العسكريّة، ستصل الرسالة إلى أبواب بيوتنا. يجب أن نختار مكانًا جيّدًا للاختباء. فكّرت أنّني قد أبحث عن الباهي وأنام معه في سكن الجزائريّين. ثمّ ترك مجالًا للأسئلة. سأله منير عن كيفيّة

التواصل في ما بيننا، «ببيوتكم، سأحتاج إلى عناوين منازلكم، وعليكم أن تبقوا خطًّا مفتوحًا مع أحد أقاربكم الذي تثقون بهم. لا أحد غير هذا القريب يجب أن يعلم بوجود أيّ واحدٍ خارج المعسكر حتّى إن كان من العائلة.» سألته بعد ذلك سؤالًا حيّرني:

- أنا لديّ سؤال يا زاهر، لماذا لا تهرب معنا من المعسكر؟

- هل تمزح يا ميلاد؟ أنا أحبّ المعسكر، يمكنني مساعدة أناسٍ مثلك مع بعض الفائدة لصالحي، هل يهرب أحد من منجم ذهب كالمعسكر؟ أنا مستعدّ للذهاب إلى السجن إذا كان هناك بزنس داخله.

- هاهاهاهاهاهاهاهاهاهاها، ميلاد وأسئلته الرائعة دومًا. قال منير.

- حسنًا، يا شباب، غدًا موعدنا، اجمعوا حاجاتكم ولْنَلْتقِ عند ساحة تدريب الأسلحة بالقرب من الشاطئ، عند الساعة الثانية مساءً. اتركوا كلّ شيءٍ قد يثقل كاهلكم.

(٤)

صباحَ صفعتُ زينب، توقّف الزمن، وتوقّف جسدي عن الحركة. لم تنتظر منّي زينب أن أنهي العراك. وقفت شامخةً، كأيّ امرأةٍ عرفتها في حياتي، واستعدّت للدخول في معركة اليوم. ارتدت ملابسها ووضعت مكياجًا على وجهها. لم تكن صفعتي قويّةً، لذا لم تؤثّر فيها جسديًّا، لكنّ التأثير النفسيّ كان واضحًا من حركاتها داخل المنزل، وأنا أسمعها من مكاني في المطبخ متجمّدًا، كانت تتحرّك بسرعةٍ. يتناهى إليّ صوت غلق خزانة الملابس بقوّةٍ. كانت تريد الخروج بأسرع طريقةٍ ممكنة. وقد غادرت المنزل في غضون دقائق، ولم تنتظر حتّى أن أقلّها إلى مكان عملها ككلّ مرّةٍ.ستتحرّك نحو الشارع الرئيسيّ مسافةَ كيلومتر، وتقف لتنتظر سيّارة تاكسي. إذا كانت جارتنا خيريّة المعلّمة هي أوّل امرأةٍ في المنطقة تقود السيّارة، فزينب هي أوّل امرأةٍ تركب سيّارة تاكسي يقودها رجلٌ غريب عنها. تحرّكتُ إلى النافذة لأراقبها تخرج من البيت إلى الشارع. كانت تسرع خطواتها رافعةً رأسها إلى أعلى. جلستُ هناك ساعتيْن أفكّر في مستقبلنا معًا. بالتأكيد لن تكون حياتنا كما هي بعد ما حدث، قد تعود إلى المنزل لتطلب منّي الطلاق. زادت هذه الكلمة من سرعة دقّات قلبي. أخبرتني المدام، عندما بدأت أحكي لها عن علاقتي بزينب، ذات مرّةٍ، أنّ الطلاق ليس شيئًا معيبًا، وأنّه، أحيانًا، أفضل الحلول التي نتّخذها. إلّا أنّني لم أقتنع البتّة، كيف يكون ترافق روحَين لعشر سنوات منتهيًا بالطلاق؟ نعم، قد نعيش خلافاتٍ، تكون طويلةً ومؤلمةً، كالخلاف الذي قادنا لنعيش في بيتٍ بمفردنا بعد أن خرجنا من الشقّة، عندما أخبرتني بأنّها لم تعد تحتمل العيش

فوق سطح بيت عائلتي، ولم تعد تحتمل لامبالاة أمّي بكونها امرأةً عاملةً. أمّي -الحاجّة فاطمة- عاشت في كنف أبي سنواتٍ، مقتنعةً أن ليس للمرأة مكانٌ سوى بيتها، ولا طموح لها سوى راحة زوجها، وعلى المرأة أن تلتحم بنساء العائلة والجيران، لا أن تعزل نفسها. لا أحد يحبّ المرأة التي «ترى نفسها فوق الجميع»، كانت أمّي تقول لها. في السنة الأولى تحمّلت زينب تعليقاتها عن العلاقة الزوجيّة وعن الأطفال «متى يا زينوبة تفرحينني بحفيدي الأوّل؟» –كان لأمّي أحفادٌ من أختيَّ الاثنتين صباح وأسماء، لكنّ الحفيد الأوّل هو حفيد الولد-، «لقد تُرِك ابني جائعًا اليوم دون غذاء»، معلّقةً أمام أخواتي عن تأخّر زينب في العمل، ورغم أنّي كنت أطبخ لي ولزينب، فإنّ زينب لم تشأ يومًا أن تخبر أحدًا أنّني أعتني بالمنزل. كنّا في موقف محرج، «أمّك أرهقتني»، تخبرني زينب، «لستُ كارهةً لها، لكنّها تحاول إرغامي على نمط حياةٍ لا أحبّه بتعليقاتها وكلماتها وتوصياتها ومراقبتها إيّاي»، «أمّي امرأةٌ عجوزٌ، لقد تربّت في زمنٍ مختلفٍ عن زمنك... هذا كلّ ما في الأمر»، كنتُ أقول لزينب، «زينب من جيلٍ جديدٍ يا أمّي، لقد تربّت في زمنٍ مختلفٍ عن زمنك»، أقول الجملة نفسها لأمّي عندما تنتقد لي بعض أفعال زوجتي. في أحد الأيّام –كتلك الأيّام التي تأتي دائمًا لتقضّ مضجعك- عدتُ من العمل في البيتزاريا. كان يوم جمعةٍ. أخواتي كنّ مجتمعاتٍ في بيت العائلة على نار الشواء، يتضاحكن ويتبادلن السخرية. صفاء تحاول إزعاج صباح السريعة الغضب. كان الجوّ عاديًّا، حتّى دخلت البيت حاملًا معي شرائح البيتزا المتبقّية من عمل ذلك اليوم. حلّ الصمت بالبيت عندما دخلت. طلبت منّي أمّي أن أتقدّم لآكل بعض الشواء. جلستُ ومزّقتُ الكارتون الذي يحملُ الشرائح، سألتهنّ عن زينب.

- زينب فوق.

قالت صالحة بنبرة انزعاجٍ. كنت أحفظ نبراتها، عندما تكون في أشدّ لحظات سعادتها، عندما تكون «مريضة»، يمكنني دومًا قراءة مزاج أختي الكبرى بسهولةٍ، فقط من الطريقة التي تتكلّم بها. وهذه المرّة لم تختلف عن سابقاتها. كانت منزعجةً، كأنّ حدثًا مّا استجدّ بالبيت. حلّقتُ بنظري في وجوه أخواتي وأمّي المتّكئة، كان الجوّ مشحونًا.

- ولماذا لم تنزل؟ اذهبي يا هنادي ونادي على زينب. قلتُ لهنادي الصغيرة في ذلك الوقت.

- لقد صعدت للتوّ، قالت أمّي.

أحسستُ من نظرات أمّي أنّ أمرًا مّا قد وقع. نهضتُ وصعدت إلى الشقّة. وجدتها في غرفة النوم تبكي وحيدةً، احتضنتها وسألتها ما الذي حلّ بها. كانت تبكي على صدري وتخبرني: «لا شيء».

- هيّا أخبريني ما حدث.

- لا شيء... لا شيء.

- بل هناك أشياء. ماذا حدث؟

- لا شيء.

- هيّا وإلّا لن آكل لمدّة أسبوع.

- مجرّد سوء تفاهم، لا شيء آخر. أنا سريعة البكاء.

- وما سوء التفاهم هذا؟ مع مَن؟ صالحة؟

- ....

- هل تعاركتِ أنتِ وصالحة؟

- تقريبًا، لا شيء... انسَ.

- لا، يجب أن أعرف.

- حسنًا، كنتُ... كنتُ أشوي الدجاج، كانت كلّ واحدةٍ من أخواتك مشغولةً إمّا بالحديث أو تنظيف المطبخ.

- حسنًا؟

- فكّرتُ في العمل، هل تذكر أنّني قلتُ لك أمس إنّ... إنّ... المدير قد حاول طردي من العمل فقط لأنّني أدّيتُ المهمّة على أحسن ما يرام، هل... هل تذكر؟

- نعم أذكر، ماذا حصل؟

- وأنا... وأنا أفكّر، نسيتُ اللحم يحترق على الشواء.

- ثمّ؟

- ثمّ جاءت صالحة فاشتمّت رائحة احتراق اللحم، كنتُ... كنتُ مهمومةً بالعمل، صرخت فيَّ قائلةً هل من المعقول أنّكِ لا تعرفين كيف تشوين دجاجة؟ لا عجب أنّ أخي قد نحل بعد الزواج، كلّ رجال العالم يسمنون بعد زواجهم إلّا أخي الصغير.

- قالت ذلك؟

- نعم... أقسمُ لك أنّني نسيتُ وجود الدجاج، أنا مهمومة بالعمل.

- ماذا قلتِ لها؟

- دخلنا... في عراك بسيط، قلتُ لها في البداية إنّه ليس قصدي لكنّها استمرّت في إهانتي حتّى انفجرتُ فيها وأخبرتها أنّها يجب ألّا تعطيني درسًا في كيفيّة معاملة زوجي. ثمّ جاءت أختك صباح تجرحني بلسانها السليط، قالت عنّي يا مسمومة، يا جليسة الرجال. أحسستُ بأنّني محاصرة وأسرعت إلى الشقّة وغرقت في البكاء.

- حسنًا...

- لا أريد أن أعيش هنا إلى الأبد يا ميلاد، لا أريد.

- اششششش...

طبعًا، يسهل استنتاج ما فعلته. نزلتُ مسرعًا وغاضبًا. كانت ارتعاشة الغضب واضحةً في ملامحي. ناديت على صالحة وأنّبتها على ما فعلته، «هل أنتِ سعيدة الآن؟ زوجة أخيك تبكي وحيدةً وأنتِ تأكلين البيتزا واللّحم المشويّ؟»، ارتعدت صالحة من قولي. لم تفكّر يومًا أن ذاك الولد الذي عجنته وخبزته بيديها، قد ينقلب ضدّها يومًا. حاولتْ تبرير ما فعلتْ. لكنّي كنت في عالم آخر. تدخّلتْ أمّي لتقول لي: «وما دخلك في عراك النساء؟»، كرّرت هذه الكلمة، أمرتُ صالحة بأن تعتذر من زينب، صعدت إلى الشقّة وقبّلت رأسها: «آسفة يا زينوبة، لم يكن قصدي... أنتِ في معزّة أخواتي»، قالت لها صالحة بعد أن احتضنتها وقبّلتها، ثمّ ركضت تبكي هي أيضًا. لم أحادث صالحة أسبوعين في تلك الفترة. في اليوم التالي صعدت أمّي إلى الشقّة وأرضت زينب، وأخبرتني أنّه يجب عليّ ألّا أتدخّل في حديث النساء. لم أفهم ما قالته. تعلّمتُ وقتها أن أصبر وألّا أتدخّل في

«أحاديث النساء» كما وصفت أمّي. كنتُ أستمع لزينب وهي تخبرني بمدى انزعاجها من أخواتي وأمّي قبل انتقالنا إلى المنزل. وأسمع من أمّي مدى انزعاجها من زينب كذلك. أصمت أو أقول «كلمة خير» وأخزّن كلّ ذلك في قلبي. تحاشيت الخصومات، ونمتُ وأنا أفكّر في كلّ هذا الضغط الذي قد يدفعني نحو الجنون أو الموت. كانت زينب تلحّ عليَّ في كلّ وقت أنّ علينا أن نشتري بيتًا، أو نبنيه، وأنّها لم تعد تحتمل عيشة الكنّة. هكذا عشتُ حتّى أخذتُ جزءًا من سانيتنا القديمة، وبنينا فيها منزلنا. استثمرت زينب الكثير في بناء المنزل. وضعت كلّ نقودها التي ساعدها بها والدها، وباعت ذهبها لنكمل البناء في أسرع وقتٍ ممكنٍ. بعد تلك الحادثة بثلاث سنواتٍ، وعند انتقالنا عشنا حياةً شبه سعيدةٍ، شبه هادئةٍ وشبه حالمةٍ.

في ظهيرة اليوم، بعد صفعي زينب، رنّ هاتف المنزل، رفعتُ السمّاعة فكان صوت العبسي يخبرني:

- أعرف أنّك تسمعني يا مغفّل، اسمع... سبب اتّصالي بك هو موضوعنا الذي حدّثتك به أمس.

هل أخبركَ بنقيض الحبّ؟ نقيض الحبّ ليس الكراهية، نقيض الحبّ مختلفٌ تمامًا عن الكراهية، إنّه اللامبالاة، التبلّد، التباعد رغم العيش في مكان واحدٍ، ألّا تبتسم في وجه الآخر بعد أن كانت مجرّد رؤيتك إيّاه تمكّنك من الطيران، أن تنطق كلماتك اليوميّة «صباح الخير»، «نعم الغذاء جاهز»، و«قهوة؟» خالية من الدفء، كأنّك تتحدّث مع موظّف في السجلّ المدنيّ بالبلديّة. يحلُّ البرد على الدار. لن يعود السرير الذي يحملكما مريحًا، أو داعيًا إلى التقارب، تنزوي على حافّته كأنّك جاهزٌ للقفز من جرفٍ، الكراهية شعورٌ جارفٌ، حارقٌ لكنّه يبقى شعورًا، شيئًا يتحرّك داخلك، التبلّد نقيض ذلك، بركةٌ راكدةٌ من الماء لم ينعم عليها الزمن حتّى بحَجر يلقيه طفلٌ. هذا ما مرّ بنا، أنا وزينب في تلك الأيّام. أحسّت هي بالإهانة، وأحسست أنا بالخذلان. لم نعد نتحدّث كثيرًا أيّامًا. صارت أحاديثنا كتلقّي نشرة أخبارٍ. تسرّب المعلومات كأنّك مذيع النشرة، وعندما تنتهي منها تتوقّف عن الحديث.

في المساء، عندما التقيت العبسي مجدّدًا، أخبرني أنّه رأى زينب، مرّةً أخرى، تركب سيّارة المدير العامّ، قرّر أن يتبعهما فوجدهما يحتسيان القهوة في مقهًى مقابلٍ لقوس ماركوس. تتبّعهما حتّى داخل المقهى، ثمّ شاهدهما وهما يجلسان في العلّيّة. أخبرني أنّه رأى زينب تدخّن السجائر —وهو أمرٌ كنت أعرفه من قبل، فأنا الذي علّمتها ذلك على أيّة حالٍ- وأنّها كانت تبتسم وتضحك وتتحدّث إلى الرجل بكلّ لطفٍ. تساءلت كيف أمكنها أن تخفي في ذلك اليوم مشاعر الإهانة على وجهها. ابتسمتُ قليلًا لمعرفتي أنّها امرأةٌ قويّةٌ، أقوى منّي. كنتُ منطفئًا ومنهزمًا، وكانت هي تحاول أن

تعيش الحياة، رغم كلّ ما يدور فيها. لم أعرف كيف أفتح معها حديث شكّي في خيانتها، رغم أدلّة العبسي، إلّا أنّي تركتُ مساحةً لحسن الظنّ. لم أخبر العبسي أنّني أشكّ في ما يراه، وأنّه قد يكون لديها تفسيرٌ آخر لما يحدث. خرجتُ بتفسيراتٍ عديدةٍ، منها أنّها تحاول نشر فنّ عمّها في الكتاب، الذي كانت تتحدّث عنه بحماسةٍ ومبالغةٍ، منها، أيضًا، أنّ المدير يحاول الضغط عليها، وهي لا تملك أيّ قدرةٍ على مقاومته، قد تحاول أن تكشف مسألة فساده الأخلاقيّ، وهي تجاريه كصحفيّةٍ ماهرةٍ للإيقاع به في الجرم المشهود. كان آخرَ شخصٍ قد أتوقّع أنّها تخونني معه. كان لديها أصدقاء من الرجال في عملها، وكانت تحدّثني عنهم وتجالسهم في المقاهي وحدها، ولكنّها تحكي عن هذا الرجل دومًا بكراهية وحقدٍ. كلّ هذه التفسيرات لم أتقاسمها مع ابن عمّي، فقط لأنّنا اتّفقنا على أنّه سيريني الطريق لاسترجاع مكاني في العائلة، وكان سيرفض هذا النوع من التحليل، ويشكّ في رجاحة عقلي.

(٣)

في المعسكر، جاءت ليلة الفرج. كنّا جاهزين للتخلّص من العذاب الذي أثقلنا به المادونّا. كان آخر أيّام التدريب، بالنسبة إليّ، نزهةً. أبليت حسنًا في كلّ التدريبات، خصوصًا في التدريب على السلاح، كنت أسرع المتدرّبين في فكّ سلاحي، تنظيفه وتركيبه مجدّدًا ليكون جاهزًا للاستعمال. شعر المادونّا بإنجازٍ عظيم حتّى إنّه قال للجنود: «انظروا، ما الذي يمكن للمادونّا صنعه أيّتها الكلاب الضالّة، وأخيرًا يا سيّد ميلاد»، في تدريب القنص أصبت الهدف في كلّ مرةٍ. مضى اليوم نظيفًا من الأخطاء، حتّى جاء الظلام وغطّى المعسكر وانتقل الجميع إلى أسرّتهم.

تسلّلنا أنا ومنير في ظلمات الليل إلى الحمّامات. قفزنا من النوافذ. كانت هناك دوريّةٌ من الحرّاس يتنقّلون في المكان. اختبأنا تحت إحدى الشجيرات الشوكيّة التي تملأ المكان، وانتظرنا حتّى ذهابهم. انتقلنا مسرعَيْن من الساحة إلى الطريق الترابيّ المؤدّي إلى ساحة التدريب على السلاح. كنّا نسمع أصوات الكلاب تنبح من بعيدٍ. كنّا على مشارف البحر، لا تفصلنا إلّا مجموعةٌ من أشجارٍ ملتفّة وملتصقة بعضها ببعضٍ. كانت تضاريس المكان متضاربةً. في جزءٍ من البحر يلامس ترابُ الشاطئ ترابَ المعسكر، ثمّ يرتفع فيقسو المكان، حتّى يشكّل جرفًا بحريًّا عاليًا، تحته صخورٌ سيّئة السمعة. توقّفنا أنا ومنير تحت الأشجار لمّا أنهكنا التعب. جلسنا قليلًا لندخّن سجائرنا حتّى يتوقّف نباح الكلاب. أخبرني منير بأنّ عروسته تنتظر منه أن يخرج من العسكريّة حتّى يتزوّجا، سيعيش حياةً بسيطةً، وسيعمل في الجمعيّة مع والده وسينجب خمسة أطفالٍ. عندما انتهينا من سجائرنا، كان صوت الكلاب يقترب منّا. نهضنا سريعًا وجرينا في الجهة البعيدة حتّى نبتعد

عن الصوت. سمعنا صفيرًا. كنّا نلهث، قال لي منير: «يبدو أنّهم قد أمسكوا بأحدهم وهو يحاول الهروب، أرجو ألّا يكون في مجموعتنا»، ازدادت شراسة النباح وقرب صوته، ونحن نحاول الخروج من غابة الأشجار الشاطئيّة. وأنا أجري تمزّق قميصي عندما ارتطمت بأحد فروع الأشجار الناتئة. شاهدت قطرات الدم وهي تتناثر في المكان. توقّفت قليلًا، إلّا أنّ منيرا أصرّ عليّ أن أجري. لم يكن هناك وقتٌ لمعاينة الجرح. الصفير وصيحات الرجال تزداد والنباح يقترب، خرجنا من غابة الأشجار. شاهدنا ضوءًا يلمع في أسفل الهضبة «لا شكّ أنّه زاهر يعطينا الإشارة بأنّه في المكان المعلوم»، حاولت تبيّن مصدر الضوء، إلّا أنّ ضوء القمر كان خافتًا تلك الليلة، لا تكاد ترى الأمواج وهي ترتطم بأحجار الشاطئ. وقفنا أمام الجرف نتبادل النظرات، عاين منير أسفل الجرف.

- صخور، لقد ألقى بنا حظّنا أمام الصخور الناتئة، علينا أن نقفز، لديّ شعور بأنّ الكلاب تلاحقنا.

كان النباح يقترب. تذكّرت أحلامي التي رأيتها عندما كنت في المستشفى العسكريّ. اكحيلة وهي تمزّق أشلائي، وأنا أحاول أن أصعد سور المعسكر العالي. تذكّرتُ كلمات المادونّا عندما رحّب بنا، قال إنّه سيعاقب الهاربين أشدّ عقابٍ. عاينت الجرف. كان مخيفًا. الصخور الناتئة في المكان تناديني أن أقفز. الكلاب والصفير والصياح. كان عليَّ أن أختار: أموت بشرف المحاولة أو أعيش الليلة، وأنا أتخيّل كيف يمكن للمادونّا أن يقتلني.

- زاهر، الكلب... لقد باعنا، أخبروني أنّه يفعل ذلك لكن لم أصدّق. قال منير وهو خائفٌ.

- ماذا؟ ماذا قلت؟

- ليس هذا الوقت يا ميلاد، علينا أن نجد مخرجًا.

- فلنعد، ما رأيك؟ سنقول لهم إنّنا لم نتمكّن من النوم فقرّرنا أن نجري قليلًا في المعسكر.

- هل أنت غبيّ يا ميلاد؟ انظر، جرحك.

كنت لا أزال أنزف، لم أشعر بجرحي الذي تشكّل على هيئة تفاحّةٍ مشروخةٍ من نقر العصافير، كان مريبًا، حاولت تذكّر شكل العُرف الذي مزّق لي سترتي وساعدي، لكنّني لم أتمكّن من ذلك. لا شكّ أنّه كان يابسًا وشوكيًّا.

- الدم، الكلاب مدرّبة على تتبّع الدم، فلنقفز. قلتُ لمنير.

لم يكن المستقبل واضحًا، ولم يعد يفصلنا عن فشل هروبنا سوى ثوانٍ. كان الضوء لا يزال يلمع في الشاطئ بالأسفل. عندما رأينا ضوءًا آخر يقترب من بين الأشجار ناحيتنا تأكّدنا أنّ الكلاب كانت تتبعنا. اختفى الضوء على الشاطئ، سمعت زمجرة محرّك قاربٍ، وانطلق نحو البحر.

- لقد هربوا، تمّ الإيقاع بنا، نحن فِديتهم، زاهر الكلب الضالّ.

قال منير، ثمّ قفز في البحر. بحثتُ عن جسده، لكنّ الظلام واقتراب الضوء بين الأشجار ونباح الكلاب شلّت قدرة عيني على تبيّنه. لم أتمكّن من سماعه، ومن ثمّ برق الضوء في عيني واقتربت الكلاب منّي. أردت أن أقفز إلّا أنّي تجمّدت. شلّت حركتي. شككت في نجاة منير، قفزت اكحيلة على جسدي لتلقي بي على الأرض تعضّني. كادت الكلبة تمزّقني لولا انتشال الحرس جسدَها عنّي. قُبِضَ عليَّ.

لا أريد، حقًّا، أن أحكي ما حدث لي في تلك الليلة وما تلاها من أيّامٍ. إنّها ذاكرةٌ مظلمةٌ في حياتي. كلّ ما يمكنني أن أحكيه لك هو أنّهم في الصباح وجدوا جثّة منير ملقاةً على الشاطئ الترابيّ. مات متأثّرًا بجروح مزّقت بطنه في الجُرف. سمعتُ خبر وفاته من المادونّا، الذي أراد لي أن أعترف بأنّني المخطّط لعمليّة الهروب كلّها، وبأن أوقّع على أنّني المسؤول عن هروب البقيّة. وشيت بزاهر وأخبرته بأنّه المُخطِّط، لكن فاتني أنّه مقرّبٌ من القيادة – فبعد ذلك بزمنٍ، حدّثني أنور، عندما رأيته مرّةً أخرى زبونًا في البيتزاريا، عن زاهر وأخبرني بأنّه كان يعمل مع المادونّا في التهريب. يسلّمه بعض الأسماء، وقد سلّمه اسمي، كنتُ اختيار المادونّا. كنت في ورطةٍ، أنتظر إعدامي مثلما وعدنا المادونّا، لكنّه لم يفعل ذلك. حُبِستُ شهرًا في الانفراديّ تأديبًا لي. لكن لم يأتِ موعد إعدامي مطلقًا.

في منتصف الأسبوع الرابع حاولت الانتحار، لأوّل مرّةٍ في حياتي. لم أتحمّل العذاب اليوميّ من تغطيسٍ في الماء، تركي مع اكحيلة في الزنزانة، السباب ودورات الضرب التي أتعرّض لها. لم أتحمّل الليالي التي توقّف النوم فيها عن زيارتي، ولم يتوقّف الألم عن السهر معي. لم أتحمّل شبح منير وهو يلاحقني في كلّ زاويةٍ من زوايا الزنزانة، وهو يسألني لماذا تخلّيت عنه ولم أقفز. قرّرت الانتحار. نزعتُ ملابسي وشكّلتُ منها حبلًا. ربطته بقضبان النافذة في الأعلى. وقفتُ على سريري، ثمّ وضعتُ رأسي تحت رحمة حبل الملابس. كانت رائحة الحبل نتنةً. دمٌ ملتصقٌ

بالقميص وبولٌ. دفعتُ السرير، وألقيت بنفسي للهروب، غبتُ عن الوعي عندما انقطع التنفّس عنّي.

عندما عدتُ إلى الوعي وجدتُني في المستشفى العسكريّ مرّةً أخرى. أفرحني وجه الطبيب الذي وقّع لي إذن الخروج. حاولتُ أن أقفز لمعانقته، لكنّ جسدي قاومني، فلم أتمكّن من الحركة. أخبرني الطبيب أنّني نجوت بأعجوبةٍ، لم يتحمّل الحبل وزني فتقطّعت الملابس وسقطتُ بعد فقدان وعيي على سدّة السرير.

ذهبت أيّام المعسكر، لكنّ ما حملته معها كان ظلاميًّا. قرّرت عند خروجي، من البوّابة الكبيرة، أنّني صرتُ رجلًا كما أراد أبي، وكما أراد المادونّا، ويمكنني الآن أن أفعل ما أشاء.

(٤)

هل أخبرتك أنّي أحبّ البخور؟ أعرف أنّ كثيرًا من رجال الحيّ يحبّون العطور الرجاليّة. إنّهم ينقسمون إلى قسمين، بعضهم يحبّ العطور التي يضعها المتديّنون. ثمّة نوع معيّن من العطور الخليجيّة، التي بدأت تنتشر في السوق، تُظهر التديّن. البعض الآخر، وهُم في الغالب شبابٌ، يحبّون العطور الفرنسيّة والإيطاليّة الشهيرة، هيوجو بوس وغيرها. لكن، من النادر أن تجد من يصرّح بحبّه للبخور، بل أعرف العديدين ومن بينهم العبسي يكرهون رائحة البخور محتجّين أنّه مجرّد دخانٍ خانقٍ –المفارقة أنّ غالبيّتهم من المدخّنين في الأساس-، أنا أحبّ البخور أكثر من العطور. عندما كنّا صغارًا، كنّا نستخدم كولونيا بعد الحلاقة، تلك الزجاجة الكحوليّة الخضراء التي نجدها في الحمّام ونرشّها على أجسادنا. وكنّا نسرق بعض الرشّات حالما تقع أعيننا على عطرٍ مّا، حتّى ولو كان سيّئًا. العطر رفاهية، البخور أساسٌ. عندما أنتهي من كلّ الأعمال المنزليّة أحبّ أن أفتح درجي الخاصّ بالبخور: وشق وفاسوخ وعرضاوي وجاوي وعود وبعض البخور التونسيّة والهنديّة والخليجيّة والأفغانيّة، وأبدأ في تبخير البيت، إلّا أنّني أدمن رائحةَ الوشق، ربّما لارتباطه بطفولتي. إنّه يشعل فيَّ الطمأنينة. لا أظنّ أنّه يوجد إنسانٌ ليبيّ لم يكن الوشق من أولى الروائح التي استنشقها في حياته، وتعرّف عليها بعد رائحة أمّه والكحول الطبّيّ. إنّه يمنحك الإحساس بأنّك في حضرة مولودٍ جديدٍ، كما تقول أمّي. عندما أنهي أعمالي، أشعل النار في الفحم، وأجهّز حبوب الوشق، الفارسيّ منها والأفغانيّ. ما أحبّه في الأفغانيّ رائحته النفّاذة القويّة على الرغم من التصاقه باليد. يظلّ الفارسيّ ملائمًا لمن لا يريد أن تلتصق لزوجة الوشق بيده. أجهّز الكانون وأضع الفحم عليه، ثمّ أنثر الحبّات بعنايةٍ. أمسك الكانون، وأدخل كلّ غرف البيت. أدوّر الكانون في وسط

الغرفة سبع مرّاتٍ لجلب الحظّ، ثمّ أنتقل إلى الأخرى، حتّى ينتهي بي الأمر مجدّدًا في المطبخ، حيث أضع الكانون، وأضيف إليه حبّات أخر.

على ذكر الوشق والذكريات، ما رأيك في أن نبخّر البيت؟ لقد تذكّرت للتوّ أنّني لم أفعل ذلك اليوم، فقد جئت في موعد التبخير. هيّا، ستكون فرصةً لأريك بقيّة البيت. أوّلًا، نترك الفحم على النار ليستوي جيّدًا. بعد ذلك نختار الوشق، يجب أن نختار الحبوب بعنايةٍ، لأنّهم يضعون بعض العيدان، التي قد تنبعث منها رائحة احتراقٍ سيّئة فتفسد رائحة الوشق ذاته. يجب أيضًا تكسير قطعة البخور إلى قطعٍ صغيرةٍ، لتكون عمليّة التبخير أسهل وأسرع. عندما نضع الوشق على الفحم نتأكّد من وضعه بعنايةٍ، فالتصاقه بالأصابع قد يجعله ينزلق من فوق البياض. أنا شخصيًّا أحبّ التصاقه بيدي، إنّه يجعلني أتأكّد من أنّ حاسة اللّمس لديّ لا تزال تعمل، نضع كمّيّةً مناسبةً. ويُستحسن أن نضع كمّيّةً قليلةً، ثمّ نضيف إليها كميّةً قليلةً أخرى إذا لم تكن كافية، فهذا أفضل من أن نضع كمّيّةً كبيرةً ويتبقّى منها ما لا نحتاج إليه، فيلتصق بالفحم ويتعيّن علينا التخلّص منه بعد ذلك، وهذا أمرٌ لا يُستحسَن فعله، عندها نكون مستعدّين للمرور على الغرف.

هذه غرفة الضيوف، ونادرًا ما نفتحها، عادةً ما نستقبل فيها أخواتي وأمّ زينب وعائلة الصادق أخيها، لا نجلس فيها. نفضّل الجلوس في المطبخ، أو في وسط البيت القريب منه. ندخل وسط الغرفة، ونحرّك الكانون حركةً دائريّةً في الهواء سبع مرّاتٍ. هذه دار الخزين. يحبّ الكثيرون أن تكون دار الخزين خارج البيت، لكنّي أجد أنّ ذلك يمثّل انتهاكًا لمشروعيّة وجود الدار ذاتها. عندما تكون خارج البيت سيسهل عليك نسيان الاعتناء بها، بالإضافة إلى أنّها تستقطب الفئران، التي تستأنس عندما تدرك أنّ غرفة مّا لا تتردّد عليها الأرجل باستمرار. لهذا السبب، قرّرنا أنا وزينب أن تكون داخل البيت، وبهذه الطريقة تكون أمام عيني وأتمكّن من الاعتناء بها بسهولةٍ، وأنا أستغلّ كلّ شبرٍ فيها. لا أستخدمها لتخزين المؤونة فقط، بل الملابس، الآلات القديمة، وكلّ ما هو ضروريّ، أو جزء من الذاكرة لا نريد التخلّي عنه. هي نصف متحفٍ إذا أحسنت التعبير. في الحديقة غرفة أخرى لآلات الحديقة، ولكنّي لا أبخّرها، بالإضافة إلى دار العلّيّة، التي أضع فيها ما تبقّى من أشياء لا يُستَحسَن وضعها في دار المخزن. في نهاية هذا الممرّ هناك، تقع غرفة النوم. لنتركها الآن، فزينب نائمةٌ ولا نريد إيقاظها، أليس كذلك؟ هيّا ننتقل إلى غرفةٍ ثانيةٍ. أريد أن أريك إيّاها، فهي جزءٌ من قصّتي، هذه الغرفة بنيناها للأطفال. إنّها تؤلمني كلّما فتحتها. يمكنك مشاهدة سرير الطفل، والألوان الزاهية في حائط الغرفة والألعاب، إنّه مشهدٌ مؤلمٌ. أدخلها مرّةً في الأسبوع لأمسح الغبار عن السرير والألعاب. قد يأخذني الحنين فأتخيّل طفلًا هناك ألعب معه بالألعاب.

أبكي حظّي، ثمّ أغالب نفسي على أن أتحرّك خارجها. أغلقها حتّى لا تخرج روح الطفل داخلها، وأعود إليها للتبخير فقط، أو فتح النوافذ حتّى تتنفّس.

قد تسألك نفسك: كيف يمكن لزوجين أن يبنيا غرفةً للأطفال في منزلٍ لا طفل فيه؟ حسنًا، بدأت القصّة في العام السادس من زواجنا، بعد محاولاتٍ عديدةٍ للإنجاب. ذهبنا إلى كلّ المستشفيات المعروفة في البلاد وفي تونس، لكن بلا فائدةٍ. طبيبٌ يخبرني أنّ حيواناتي المنويّة غير قادرة على دخول البويضة، طبيبٌ آخر يخبر زينب أنّها غير قادرةٍ على الإنجاب، طبيبٌ يعطينا دواءً لمساعدتنا في العمليّة، شيخٌ يخبرنا أنّ هناك عين حسودٍ تترصّدنا ويأمرنا أن نبخّر البيت كلّما أردنا المحاولة. نغادره، فتقول لي زينب إنّها لم تصدّق ما قاله. صديقٌ يقول لي إنّه يعرف دواءً تقليديًّا للتقوية الجنسيّة، خلطة من العسل واللوز. امرأةٌ مّا تخبر زينب أنّ عليها الاستلقاء بوضعيّةٍ معيّنةٍ عندما أولج قضيبي فيها. امرأةٌ أخرى تقترح عليها حبوب الجزر على مدى أشهرٍ. في فترة مّا، كان الجميع مهمومين بقصّة محاولتنا الإنجاب. أسئلةٌ ونصائح وقصصٌ ودعاءٌ وصلاةٌ. أمر الإنجاب مرهقٌ للزوجين في مجتمعنا. شعبان، أحد الجيران، انتحر بعد تحرّشات من أبيه بأنّه عقيمٌ، بعد أن رأى إخوته جميعًا يتكاثرون رغم كونه أكبرهم. كان الأمر مأسويًّا بالنسبة إليّ أيضًا. كنت أرى نظرات الشفقة من الجميع. ذات مرّةٍ، اصطحبتها إلى المجمع الطبّيّ. بعد أن أخرج جهازُ الكشف عن الحمل نتائجَ إيجابيّةً ازداد توتّرنا. انتظرنا الطبيب حتّى جاء. كنّا جالسيْن في الممرّ، ما بين كلّ الرجال الجالسين مقطبّين صحبة نسائهم، كنتُ وحدي جالسًا أحاول أن أسلّي زينب. كانت متوتّرةً، لا تبدو جميلةً عندما تتوتّر؛ لذا لم أحبّ، في تلك اللحظة، أن ترى نفسها كذلك. قصصتُ عليها قصّة ميلادي. كان أبي يعمل بالمخبز عندما تلقّى خبر ميلادي بالبيت. أخرجتني القابلة وصفعت مؤخّرتي، ثمّ قصّت الحبل السُرّي الذي يربطني بأمّي. عندما سمع أبي الخبر من أختي صفاء وهي تقول له: «ميلاد جاء»، قال لها: «مبارك»، ثمّ عاد إلى خبزه. بعد أن انتهى يوم العمل، دخل البيت حاملًا فطائر السفنز، ألقى بها على مصطبة المطبخ وحملني. وبعد أن ردّد الشهادة في أذنيَّ، أخبرني بأنّ عليَّ أن أهتمّ بالمنزل من الآن فصاعدًا –أو هكذا قالت لي أمّي-. نجحتُ من خلال القصّة في أن أجعلها تبتسم. في الممرّ رأيتُ الطبيب وهو يدخل الغرفة. كان هناك رجلٌ طويلٌ بلا ملامح يجرجر زوجته وأطفاله. يقف الرجل بعيدًا عن زوجته، التي كانت حزينة تحاول أن تسكت أطفالها. أحنت زينب رأسها على كتفي. ورغم أنّي كنت أحبّ تلك الوضعيّة، فقد خجلت من أن أوضع في مواقف كهذه في الأماكن العامّة. عندما يحدث ذلك، أُصبح أكثر إدراكًا لمحيطي. رأيتُ الرجل الذي يقابلني جالسًا بمفرده، وهو ينظر إليّ بنوعٍ من الاحتقار والغضب. حاولتُ الهروب من التقاء الأعين، وانتظرتُ بفارغ الصّبر أن يُنادي علينا الطّبيب، ولكنّ دورنا لم يحن بعد. كان الأزواج يدخلون ويخرجون. بعض الرجال يدخلون مكفهرّين، لكنّك

ترى ابتساماتٍ تعلوهم عند الخروج من الغرفة. لعبنا أنا وزينب لعبةً. كنّا نخمّن حياة الأزواج الآخرين والخبر الذي تلقّاه كلٌّ منهم في الغرفة. عندما رأينا أحدهم وهو يخرج، ورأس زينب المتعب ما يزال على كتفي، قالت لي:

- انظر، لقد خرجا. إنّه سعيدٌ وقد فتح الباب لزوجته. يبدو أنّها ستنجب له ابنًا.

- أمّا أنا، فسأكون سعيدًا إن كانت فتاةً. قلتُ لها وأنا أحاول أن أتحدّى الرجل الطويل الممسوح الملامح.

- حقًّا؟ أنا أفضّل الأولاد.

- لطالما فضّلتِ الأولاد. أتذكّر، في المدرسة كنتُ أراقبكِ وأنتِ تهربين من صحبة البنات.

- الفتيات مملّات.

- والفتيان جاحدون، لهذا أريد فتاةً، نسمّيها غزالة.

- الله، غزالة مثل غزالة تلك؟

- لا، لأنّها ستكون غزالةً مثلكِ.

جاء دورنا، أخيرًا، لأرتاح من النظرات الثاقبة لصديقي صاحب الظلّ الطويل. دخلنا غرفة الطبيب. كان رجلًا عجوزًا أنهك حياته في البحث عن الأجنّة داخل بطون الأمّهات. تنحنح الرّجل. كنّا جالسين أمام مكتبه. وكنّا في نظره حالةً شبه دائمة. حيّانا، ثمّ طلب منّا أن ننتقل إلى السّرير. وعندما أجرى أبحاثه تمكّن من تأكيد الخبر. أمسكت زينب بيدي ضاغطةً عليها من السعادة. عندما سمعتُ الكلمات الرنّانة كدتُ أبكي، لكنّي تحاملتُ على نفسي، وتمكّنتُ من مغادرة الغرفة، من دون أن أفقد دمعةً واحدةً. في الخروج التقت عيناي بالرجل الممسوح الملامح، لمّا رآني أُمسك بيد زوجتي هزّ رأسه.

مرّت الأيّام والأسابيع علينا كالحلم. ثمّ عرفنا أنّ الطفل الآتي سيكون ولدًا. لم أكن أسمح لزينب بأن تلمس أيّ شيءٍ في المنزل. زاد نشاطي داخله. لم أكن أريد أن أفقد ابني. خطّطنا لقدومه. أمضي يومي بين العمل وتنظيف المنزل وتجهيز الغذاء، وفي العشيّ أجهّز الغرفة الخاصّة بالطفل.

كانت أولى الغرف التي عملنا على تجهيزها. لم نشأ أن يأتي فيجد غرفته غير جاهزة، لهذا السّبب اهتممتُ بغرفته أكثر من أيّ غرفةٍ أخرى، فطليتُها وأثّثتها بحبٍّ وشغف.

كنّا نطير من الفرح حتّى جاء ذلك اليوم. صارت زينب أضعف. أصابتها من بردِ الشتاء حمّى شديدةٌ. كان ابني يمتصّ صحّتها. لم تمضِ سوى أيّامٍ قليلة بعد مرضها حتّى سقط الجنين، وودّعنا حلمنا. ورغم تحسّن حالة زينب، ظلّت عامين في كربٍ عظيمٍ بدا واضحًا من هزالها وعينيها الغائرتين في السواد وقلّة حيلتها إزاء الحياة. كنتُ حزينًا على فقدان طفلي، لكن حاولت أن أكون قويًّا من أجلها. يجب عليك، أحيانًا، أن تكون أملًا للآخرين. علينا أن نكمل حياتنا بقدر ما نستطيع، وأن نحارب من أجل ذلك. أقولها لك، لو جاء ذاك الطفل إلى الحياة، لما آلت حياتنا إلى ما آلت إليه من ظروف. ولكن، لنتمسّك بالحياة. مازلنا حتّى اليوم نسمّي الغرفة «دار غزالة».

---

7 سعادة: المشروب المحلّيّ في الجماهيريّة والمماثل لمشروب بيبسي.

8 أي النّار: يناير أو كانون الثاني حسب التقويم الجماهيريّ.

9 أسعد والبياض: أسود، جزء من اللهجة الليبيّة القديمة المتطيّرة من اللون الأسود. والبياض هو الفحم.

دار غزالة

«الفرس على راكبها»، مثلٌ شعبيٌّ يعني أنّ المرأة تتخلّق بأخلاق زوجها، وأنّه هو الذي يربّيها بعد أبيها. يأمل الكثير من شباب ليبيا، في وقت كتابة هذه الكلمات، أن يتزوّجوا نساء يمكنهم أن «يربّوهنّ على أيديهم».

(٥)

كنتُ في الثامنة من العمر عندما نزلت زينب أوّل مرّةٍ، صحبة الصادق إلى الزقاق تشاهدنا نلعبُ الكرة، نحاول جدّيًّا ألّا نطيّرها كي لا تستقرّ بإحدى الشرف المهجورة أو في نافذة أحد البيوت، أو لا سمح الله في الكاتدرائيّة. تركها الصادق تجلس على الرصيف. فتاة صغيرة في الثالثة من العُمر، تشاهد الفتيان يتجارون خلف الكرة. كنتُ حارس المرمى، لا أتذكّر أيّ مركزٍ آخر لعبتُ فيه غير حارس المرمى. كانت هي تجلس خلف مرماي، خفتُ على الفتاة الصغيرة أن ترتطم بها الكرة الجلديّة. في الأمس البعيد، كانت الكرات خشنةً، وقد تطبع على وجهك خدًّا أحمر يجعلك أضحوكة المدرسة أيّامًا قبل أن يختفي. كان لي نصيبي من الإصابات المتعلّقة بلعب الكرة. نزفتُ مرّاتٍ كثيرةً من أنفي، فقط لأنّ يديّ أخطأتا تقدير طيرانها لتصطدم بوجهي. اشتهرتُ عند الأطفال بالحارس الذي يصدُّ بوجهه. في مباريات الكرة الأولى من حياتك، يُحدَّد مصيرك ولقبك الذي سيُطلق عليك في أيّام حياتك المقبلة. سُمّيتُ ميلاد «المرزنة» وميلاد «الخبزة»، أو ميلاد عجينة -كذلك اللقب الذي أطلقه عليَّ أبناء المعسكر- لعجزي عن الجري في طفولتي، بعد أن سمّنتني أمّي بالخبز والمعجّنات.

كانت الطفلة الصغيرة جالسةً تشاهد بانبهارٍ ما نفعله، بينما آخذ قسطًا من الراحة بعد أن برعت في صدّ الكرة. أنظر إليها، مازلتُ أتذكّر ما كانت ترتديه: فستانًا أبيض على الكتفين، وحول خصرها مربّعاتٌ حمراء متداخلةٌ مع أُخَر بيضاء. شعرها الفاحم الذي لا يزال في طورِ النموّ مشبوكٌ كالتاج في ضفائر. لونها السُكّريّ وحذاؤها الأحمر جعلا منها أميرةً صغيرةً تشاهد مبارزة فرسان. تجلس على الناصية قرب نباتاتٍ للعمّ كمال، هي نباتات الوذينة وزهورها الحمراء الصغيرة. سرحتُ لحظاتٍ في وجودها صحبتنا، إلى أن أيقظتني صيحات الفتيان في فريقي بأن أقفز إلى الكرة التي لم

تمهلني حتّى صفعت وجهي الغارق في التيه. بعد أن استيقظت من حالة الدوار الخاطفة، كان الفتيان يصيحون بي. الفريق الخصم يضحك من منظري. لكنّني كنتُ معلّقًا بالطفلة، وهي تضحك من وجهي الأحمر. ابتسمتُ، كنتُ طفلًا في ذلك الوقت، لكنّني متأكّدٌ، الآن، أنّني أحسستُ بشيء مّا سيجمعنا لاحقًا.

لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى أصبحتُ أراها في المدرسة ترتدي قرمبيولها الأبيض والأسود، مزيّنةً إيّاه بربطةٍ زهريّةٍ حول عنقها. في الأيّام الأولى، كنّا، الصادق وأنا، نصطحبها معنا. تحاول هي اللحاق بنا، إلّا أنّ الصادق يعتبرها عبئًا غير مرغوبٍ فيه، فيحاول بمشيته السريعة أن يجعلها تتخلّف عنّا، وبينما أجاري أخاها في مشيتهِ السريعة، أنظر إلى الخلف لأطمئنّ أنّها ما تزال تتبعنا. أراها تجاهد حقيبتها الكبيرة على ظهرها حتّى تتمكّن من الركض بالقرب منّا. في بعض الأحيان، كانت تتعلّق بإصبعي الصغير المخضّب فكنتُ على استحياءٍ أصحَبها معي إلى المدرسة والصادق يسبقنا، على مرِّ الأشهر التالية، تمتّنَتْ علاقتي بها. في بعض الأيّام كنتُ أصحبها إلى المدرسة بنفسي، عندما يكون أخوها مريضًا، أو عندما يهرب ويتخلّى عنها فأجدها جالسةً تبكي في درجِ العمارة. استمرّت هذه العلاقة حتّى بعد أن افترقت أنا والصادق، في طابور الصباح، عندما أخبرني أنّ أبي سارقٌ، وقد سرق المخبز من صاحبه. بعد ذلك، وعلى عكسِ المتوقّع، قَويت العلاقة فأصبحت أشتري لها السندويتشات من مشرب المدرسة، وبينما أجلس وحيدًا في الاستراحة كانت تأتي لتجالسني. لا نتحادث، ولكن نتشارك السندويتشات، أو عصير اليوقا. أحيانًا، كنتُ أشتري شيكولاتة من الدكّان، فأشاركها إيّاها. أفتح غلافها لأمرّرها إليها على استحياءٍ. في الكوشة كانت تأخذ منّي الخبز. أهبها رغيفًا أو اثنيْن بعيدًا عن عينِ أبي. بقيت علاقتنا هكذا دون حديثٍ في معظم الوقت، إلى أن عاد أبي إلى بئر حسين، لأبدأ حياةً جديدةً، نسيتُها وأخاها مع مرور الوقت. غرقتُ في متاعبي الخاصّة، وفي التعرّف إلى الطبيعة الجديدة لبيتي الجديد، بيتٍ كان أبي يبنيه طيلة وجودنا بالظهرة. شهدتُ بناءه في رحلاتنا إلى القرية، كان أبي يتركني لأتفسّح في البناءِ الجديد العظيم، أنفلتُ منه لأتتبّع سواني الرمّان والبرتقال، وأقطف زهور اللوز واللوز نفسه في الصيف. هذا ما مثّلته لي القرية طيلة طفولتي. مجرّد مزرعةٍ كبيرةٍ مليئةٍ بالخوخ اللذيذ، وجبن الريكوطا والحليب الطازج، ومصنع مثلّجات البطريق. عند عودتنا إليها بدأت تخفتُ ملامح الظهرة في عينيَّ. لطالما حاولتُ الإبقاء عليها بكامل جهدي. كنتُ أزور الشارع في مراهقتي مرّاتٍ عديدةً في رحلاتٍ أخفيها عن أبي. ولكنّي نسيتُ وجود زينب. في كلّ يومٍ تكبر فيه يقلّ وجودها بالزقاق، الذي كانت تركب فيه درّاجتها، أو تلعب «النقّيزة» مع بقيّةِ فتيات الشارع. في بداية شبابي، نسيتُ الشارع أيضًا. كنتُ مهمومًا بالبقاء على قيدِ الحياة، وتتبّع نشوةِ الشباب الأولى. لكن في نهايات

العشرينات، ألمّت بي الذكريات إلى بيتنا القديم وشارعنا القديم، فصرتُ أقضي معظم أيّامي في العشيّ بالظهرة، صحبة الجيران القدامى، بعد أن أنتهي من العمل في البيتزاريا.

كنتُ أجلس مع أحد أصدقاء الطفولة القدامى، على قارعة الطريق، نشرب شاي المساء، ونستمعُ لموسيقى الراي. عندما مرّت شابّةٌ في الرابعة والعشرين من عمرها، بكامل أناقتها وجمالها، تحمل حقيبةً أصغر بكثيرٍ من الحقيبة التي تجرّها تحت ظهرها، عيناها إلى الأسفل تحاول في مشيتها ألّا تجذب الأنظار إليها، تدخل العمارة المتهاوية التي نقشتُ فيها رائحة دمي ومخاطي وعرقي، توقّف الزمن بي لحظةً، فسألت صديق الطفولة عن اسمها، «معقولة لم تعرفها؟ هذه زينب، أخت الصادق»، «كيف هو الصادق على العموم؟»، «جيّد، لكنّنا لم نعد نراه، يقضي أغلب وقته في بيتهم الجديد جنوب المدينة، سيغادرون الشارع قريبًا». أخبرني الصديق أنّها مازالت تدرس بالجامعة، وأنّ الخُطّاب قد توقّفوا عن زيارة بيتهم، بعد رفضها ورغبتها في إكمال دراستها. ففكّرت بأنّ عليّ أن أتحدّث إليها، وأصرّح لها بحبّي الذي نسجته خطواتها وهي ملتصقةٌ بحائط العمارة. حاولتُ أكثر من مرّةٍ أن أعترض طريقها اليوميّ، وهي تنزل من الحافلة إلى البيت. فشلت كلّ محاولاتي، بعد أن أقرّر العدول عنها حرجًا، أو خوفًا من ردّ فعلها، أو من أن يراني الصادق فتفشل خطّتي في الحصول ولو على دقائق للحديث معها. حفظتُ أماكنها، حديقة الجامعة، وهي تتغدّى وتضحك مع صديقاتها، مقهى الحاج فتحي، أو في دكاكين الملابس بشارع أوّل سبتمبر، كافيتريا كلّيّة الهندسة وحديقتها الخائفة دومًا من العشّاق، وقوفها خارج الجامعة تنتظر الحافلات التي تقلّ الناس متّخذةً سيدي المصري طريقًا لها، ومن ثمّ طريق السكّة، بين كلّ تلك البنايات القديمة والناس القدامى الذين عاشوا فيها كتمثال الغزالة المحفور في جدران البيوت. تُوقِف الحافلة، كلّ مرّةٍ، في جزيرة قصر الشعب، لتنزل هي بهدوءٍ. حفظتُ الرائحة التي تخلّفها وهي تتمشّى بالقرب من قصر الشعب. حفظتُ خيالها الذي يتوقّف لحظاتٍ قبل أن يدخل إلى مكتبة المختار لتتركه خلفها. رسمتُ في عقلي مشاويرها، والشباب الذين يعاكسونها، وهي تنزلُ إلى شارع الوادي، تبحث في المكتبات عن كتابٍ طال أمد بحثها عنه. كنتُ كشبحٍ يتتبّع خطواتها وسكناتها من بعيد، دون أن أسمح لها بأن تراني. أحيانًا، كانت تقفُ فجأةً في الطريق لتلتفت خلفها كأنّها أحسّت بوجودي، فألتفتُ إلى الجهة الأخرى حتّى لا ترى وجهي. لم أنجح يومًا في إغواء فتاة. كنتُ فاشلًا حتّى في نظر العشّاق والشباب المغامر. خمّنت وأنا أراقبها، أنّ زينب أحبّت أن تطيل طريق عودتها إلى البيت. تخترع كلّ يومٍ زقاقًا جديدًا لتقطعه وتكتشف فيه المدينة، أمرٌ حُرِمت منه الفتيات في هذه البلاد، أو بالأحرى دُفعن إلى تركه وسط نظرات المتحرّشين والمراقبين. كانت عندما تدخل الأزقّة شبه الخالية، تحرّك يدها نحو جدران المباني القديمة كأنّها

تُخاطرها. أسمعها من مكاني، على بعدِ مبنًى أو اثنين، وهي تغنّي بصوتٍ خفيضٍ، صوتٍ ملائكيٍّ أحببت أن أنصت إليه. كان الأمر نادرًا، ولكن عند حدوثه، كان يمكنها أن تشغفك حبًّا.

إلاّ أنّه ونظرًا إلى كوني إنسانًا هزيلًا، كشفت زينب ذات مساءٍ خريفيٍّ تتبّعي إيّاها صدفةً. كنتُ قد انتهيتُ من العمل في البيتزاريا متعجّلًا لأراها. وقفتُ والريح الباردة تنقل أوراق ما تبقّى من أشجارٍ تلفّني على عتبات قصر الشعب. وقفتُ ساعةً أبحثُ في الحافلات، التي تتوقّف لحظاتٍ لتفرغ ما في جوفها من ركّابٍ، باحثًا عن جسدها، الذي مازال لم يتعلّم جيّدًا كيف ينزل منها. كنتُ أخشى ألّا أراها فيذهب جهدي في الوقوف على السور سُدًى. مع مرور الحافلة تلو الأخرى أشرفت على فقدان الأمل. أشعلتُ سيجارةً وفكّرت في حلمٍ كان يلاحقني طيلة سنواتٍ، بالإضافة إلى تفاصيل جديدةٍ. رأيتُني أصنع الخبز مجدّدًا في كوشة أبي. كان رغيفًا إنجليزيًّا رأيته، ذات مرّةٍ، في أحد الأفلام المهرّبة، وتمنّيت لو أمكنني يومًا خَبزه. تحوّل الحلم فجأةً إلى كابوسٍ مخيفٍ، حلّ فيه وجه المادونّا محلّ وجه أبي وهو يرغمني على أن أعدّ رغيفًا تلو آخر بلا توقّف حتّى أخرّ على أرضيّة الكوشة منهكًا. يتكرّر المشهد أكثر من مرّةٍ، قبل أن أعود إلى الحياة مستيقظًا متمتمًا بكلماتٍ حفظتها عن أمّي لأطرد الشيطان.

وأخيرًا وصلت حافلة زينب، على غير عادتها متأخّرةً. نزلت هي بسرعةٍ من الحافلة، وكادت تقع. حركة نزولها لم تكن كالمعتاد. حفظت أنّها كانت تمسك باليد في الباب، وتحاول الوصول إلى الأرض ببطءٍ، ولكنّها قفزت من الدرج هذه المرّة. قلتُ لنفسي: «حسنًا، حان وقت الاعتراف بحبّكَ لها أو أيّ شيءٍ شبيهٍ بذلك». كانت تخطو بسرعةٍ تحت سورِ القصر. أسرعتُ للّحاقِ بها، إلّا أنّ غريزة الاختباء جعلتني أتردّد في التقرّبِ منها. كنتُ أنتظر أن تنعطف يسارًا، نحو شارع البلديّة، كعادتها، إلّا أنّها استمرّت في المشي عبر الرصيف، لتقطع الشارع حيث زحمة البشر. فجأةً توقّفت والتفتت إلى الخلف، التفتُّ بسرعة لأشاهد عبر نافذة أحد الدكاكين كاميرا كوداك اليابانية الجديدة. ذكّرتني الكاميرا بشغف أبي بالتصوير، الشغف الذي فشل في نقله إليّ، وفكّرت في ما إذا كنّا نملك صورةً لزينب وهي صغيرةٌ في البيت، سيكون سهلًا بعد ذلك أن أخبرها بحبّي لها، وبأنّنا نملك تاريخًا مشتركًا. سيكون أجمل أن نكون أنا وهي فقط في الصورة. فكّرت في مأسويّة المشهد، إذا اكتشفتْ أنّني ألاحقها، وأن تتعرّف عليَّ. ملامحي لم تتغيّر كثيرًا، صحيحٌ أنّني كنتُ أربّي شاربي وأتّبع موضة الشباب في جعل شعري «بانكِس»، ألمّعه بزيت الزيتون، لكنّ الصفات العامّة فيَّ لم تتغيّر كثيرًا. نحفتُ أكثر وصرتُ أطول، هذا كلّ ما في الأمر، وسيكون من السهل عليها أن تتعرّف إليَّ، ومن ثمّ قد تشكوني إلى أخيها، فيبحث عنّي في أحياء المدينة، ولن يكون الأمر صعبًا، فأغلب شباب شارعنا القديم يأتون إلى البيتزاريا، لأنّها، وبفخرٍ، أفضل بيتزاريا بوسط البلاد ذلك

الوقت. يعود الأمر إلى العجين الذي أستخدمه بطبيعة الحال. قد يطاردني الصادق، وقد يبحث عنّي حتّى في القرية ليلقّنني درسًا. كلّ الخصومات التي دخلتُها في طفولتي كنت فيها الطرف الأضعف، حتّى خصومتي معه ولكمي له ثمّ هجومه عليَّ وبكائي كـ«البنات». في المعسكر، أيضًا لم أفلح في العراك، ولا حتّى في خصوماتي البسيطة مع عرْفِي بالبيتزاريا، التي ينتهي بي الأمر فيها إلى أن أقلب العجين، وأخرج تائهًا في المدينة حتّى يتّصل بي ليسترضيني للعودة إلى العمل. لم أكن جيّدًا في اللكم ولا الركل، رغم حبّي الشديد لرياضة الملاكمة، ومشاهدتي لها بقدر الإمكان متتبّعًا المباريات المعادة لمايك تايسون ومحمّد علي والبرنس نسيم حميد. تخيّلتُ مرارًا صراخ زينب في الطريق العامّ، أو استنجادها برجال الشرطة، حتّى يردعوني ويلقّنوني درسًا. تخيّلتُها أيضًا تصفعني بنفسها، وهي تحاول الهروب منّي. في مكاني مقابل نافذة الدكّان، أحاول التلصّص عليها بعيني اليسرى، استمرّت هي في المشي وبنسقٍ أسرع من ذي قبل، أسرعتُ، فوجدتُني أصطدم بها أمام مكتبة المختار، عندها جمدت وهي تنظر إلى عينيّ. «كشف أمري»، قلتُ لنفسي.

- ميلاد؟ قالت وهي تتنفّس الصعداء وتحاول البحث عن الفتى في ملامحي.

- زينب. قلتُ.

- ....

- مضى زمنٌ لم أرَكِ فيه. قلتُ.

إذَن، كان مقدَّرًا لها أن تكتشف وجودي، وإلّا لم يكن لقصّتي أيّ معنًى، ولن يحدث كلّ ما أخبرتك به حتّى الآن. تقول لي أمّي إنّ الله عندما قرّر أن يخلق الدنيا وما فيها كان قد كتب كلّ شيءٍ وعرّف الرجال بزوجاتهم في الجنّة وسلّمهم مفاتيح قلوبهنّ، وعلّمهم كيف يلتقون بهنّ. كان حدوث الأمر مخطّطًا له، إن صحّ التعبير، ولم أكن سوى لاعبٍ في القصّة. شعرتُ بانفراج أساريرها، عند رؤيتها إيّاي، على عكسِ ما توقّعته. تبدّدت مخاوفي حين ابتسمت، وبقي شعوري بالحرج والخجل من وقوفي أمامها في الشارع.

- الحمد لله أنّك أنت يا ميلاد.

تغلغلت هذه الكلمات في صدري وأخذت تُشرع نوافذه المغلقة. نعم الحمد لله أنّني أنا، وأنّني لستُ غيري حتّى أنعم بلقائها مرّةً أخرى في حياتي. شكرًا له إذ صوّرني وجعلني أغرقُ في ذاتي حتّى

لا أتغيّر كما فعل صغارٌ كثيرون من أبناء جيلي. كان واجبًا عليَّ أن أتضرّع إليه بكامل الديانات، أن أدخل الكاتدرائيّة، التي أخجلت وجودي، وأتضرّع إليه فيها، أن أذهب إلى سيدي عبد السلام، وأخبره أنّ وساطته عند الله قد نجحت بالفعل وأترك له دينارًا حتّى يرافقني في مستقبلي، أن أذبح خروفًا حمدًا لله، لتلك اللّحظة، ولأنّني حسب كلامها كنتُ أنا ميلاد.

عرفتُ بعد حديثٍ قصيرٍ معها أنّ شابًّا حاول التحرّش بها في الجامعة، «لهذا تأخّرتِ عن موعدنا اليوميّ يا زينب» قلتُ لنفسي معاتبًا قلقها، ظلّ هذا الشابّ يتبعها إلى الحافلة، ولم ينفكّ ينظر إليها بلا حياء، بل حاول التحرّش بها عبر كلماتٍ ظنّ أنّها قد تغويها. كنتُ أفكّر في ما يمكن أن أفعله إذا حدث وتبعها خارج الحافلة، وقرّر أن يمسك بيدها أو يزيد من مضايقتها بعباراته الأفعوانيّة. كنت سأكون الشاهد الوحيد على هذه الحادثة، هل كنتُ سأجري نحوه وألكمه كما يفعل محمّد علي؟ حمدتُ الله مرةً أخرى أنّني أنا، فقد يحدث العكس، ويتحوّل مشهدي البطوليّ إلى فشلٍ ذريعٍ وركلاتٍ مؤلمةٍ في بطني. نعم كنتُ سأكبر في عينِ زينب، وقد أتحصّل على حضنٍ منها، لا ليس حضنًا، لا أحد يحصل على حضنٍ في بلدنا من فتاةٍ غريبةٍ في الشارع العامّ. كنتُ على الأقلّ سأتحصّل على دمعةٍ منها وابتسامةٍ، حتّى بعد تدفّق الدم من فمي. كانت لا تزال ترتعد من صورة الشاب. عرضتُ عليها أن أصطحبها إلى البيت. كان مشوارنا قصيرًا في تلك المرّة، تبادلنا أسئلةً عن أحوالنا وأحوال الجيران في العموم. انحدرنا خلف عمارة الدينار، وألفينا أنفسنا وحيدَيْن هناك.

- هل تعلم؟ لم يعد الشارع كما كان بعد إغلاق الكوشة. كيف العمل في القرية؟

- توقّفتُ عن العمل في الكوشة بعد وفاة أبي، أنا الآن أعمل في البيتزاريا قريبًا من هنا.

- أنا أحبّ البيتزا.

وأنا أحبّك، كنتُ أريد أن أقول لها، لكنّ ذلك لم يحدث. كان على هذه الكلمات أن تنتظر مشاوير مشابهةً حتّى تخرج من فمي إليها. عقدنا اتّفاقًا: أن أصطحبها من مكانِ نزولها من الحافلة حتّى بيتها. لم يكن الصادق حاضرًا لحماية أخته، فرأيت أن أفعل ذلك. على كلّ حالٍ، كنتُ أصطحبها إلى المدرسة في سنواتها الأولى، وأحمل عنها حقيبتها، ما ضرّ لو فعلتُ ذلك، هذه المرّة، ونحن ناضجان، فأحمل عنها خوفها من المتربّصين والمتحرّشين والمعاكسين؟ كنتُ أنهي عملي في البيتزاريا باكرًا متلهّفًا إلى ذلك الموعد، أغسل وجهي وشعري جيّدًا من الدقيق، أعاود تسريح شعري، اصطحبتُ معي ملابس أرتديها بعد العمل، اشتريتُ لأوّل مرّةٍ في حياتي عطرًا، وقرّرتُ أن أقتنص الفرصة لمواعدة زينب بينما أحميها من الرجال. كان أمرًا منطقيًّا، أعود الآن إلى تلك

الأيّام مبتسمًا من الشابّ الذي كنتُه، وهو يكتشفُ الحُبّ فجأةً. أحيانًا آخذ أقراص بيتزا، لتأكلها بدلًا من الورود والهدايا التي تفضح حبّي أكثر ممّا يجب.

في اليوم الأوّل، أخذتنا رحلة الرفقة -كما أحبّت زينب تسميتها- والمواعدة -كما أطلقت عليها داخلي- إلى مقهى الأورورا، نازليْن من شارع أوّل سبتمبر، ومن ثمّ منعطفين نحو شارع هايتي شبه ساكتيْن، متباعدين قليلًا. كلٌّ منّا يسترق النظرات نحو الآخر. شعرتُ بعينيها تخترقان روحي ونحن نتمشّى داخل المدينة وزحمتها، حتّى قطع صمتنا تفاجؤ زينب من خنصري المخضّب، الخنصر ذاته الذي تعلّقت به في الأيّام الماطرة ونحنُ ذاهبان إلى المدرسة:

- أوه، مازلتَ تحنّي إصبعك يا ميلاد.

- آه، نعم... أحيانًا أنسى متى صبغته.

- أتذكّر أنّني كنتُ أمسك به عندما أشعر بالخوف من الرعد.

تمنّيتُ لو أنّ الرعد صعق البلاد مرّةً أخرى، أن ينتابها الهلع منه فتنجذب نحوي مجدّدًا، وأن تحمل إصبعي معها داخل شوارع المدينة، تدفّئه بقبضتها الناعمة، وتجرّه في الأزقّة، تغنّي له: «نطرتك حبيبي... ويا هوا دخل الهوى خذني على بلادي»، بينما تلامس جدران المباني. ليس من الضروريّ أن أكون موجودًا معه، يمكنني أن أقطعه لها، وأتركه هديّةً تهتدي به صوب السكينة والشجاعة. فلتأخذه ليبيت معها في غرفتها تحت وسادتها، أو فوق الكوميدينو، ولتحمله كقلادةٍ على عنقها الذي يخبّئه المجتمع عن الشمس. هاكِ يا زينب، خذيه، كنتُ أريد أن أقول لها.

- في فترة مّا تخلّيتُ عن الحنّاء، خوفًا من تعليقاتِ أبي أو المادونّا.

- من المادونّا؟

- قصّة طويلة.

نعم، عند غرقي في العمل بالكوشة مع أبي أيّامَ القرية، أخبرني بأن أتوقّف عن صبغِ إصبعي. كان أبي لا يحبّ رؤية الحنّاء، وقد توقّفت أمّي زمنًا عن صبغ يديْها بها، ولم تعد إلى ذلك إلّا بعد وفاته، «الحنّاء تفسدُ الخبز» قال لي محاولًا تبرير أمره لي، بعد أن أخبرته أنّ جدّي (عمّه) كان يصبغ إصبعه. في المعسكر توقّفتُ عن ذلك أيضًا. أدركتُ أنّني سأكون أضحوكةً إذا فعلتُ. واستمرّ تأثير

المعسكر في روحي عامًا إلى أن تمكّنتُ من استعادة شخصيّتي القديمة، وعدتُ أجالس أخواتي. أترك لهنّ شعري يلعبن به وأنا نائمٌ على حِجر إحداهنّ.

في لقائنا الثاني، ذرعنا الظهرة بأكملها. بدأنا رحلتنا من فندق الودّان. كان هناك بعض الأجانب الذين تبدو عليهم سماتُ مهنة الصحافة، تحت حماية مخبري الدولة وأعينهم، وسيّاح قلّة جاؤوا من تونس ليشاهدوا معالم البلاد الأثريّة. قلّت مساحات الصمت بيننا، ونحن نراقب الأجانب. أخبرتني زينب بأنّها طالما تمنّت العمل في الصحافة، وأنّ عشقها لشقّةِ عمّها، وعمّها ذاته وأصحابه، جعلها تخوض محاولات في الكتابة الصحفيّة، لكنّها باءت بالفشل أمام نظرة أبيها إلى إرث العائلة الفنّيّ والأدبيّ. أمرها أن تدرس الطبّ. خضعت لذلك، إلّا أنّها خبّأت حلمها داخلها تستعيده كلّما مرّت بشقّة عمّها لتقضي معه يومها. تنظّف له الشقّة، وتشرب معه الشاي بالقرفة، ويحدّثها عن لوحته الجديدة التي يرسمها، أو يُعلّمها الرسم. هل أخبرتك أنّ لزينب محاولاتٍ فنّيّةً عديدةً؟ لحظة، لا شكّ أنّني قد احتفظتُ بالكرّاس في المخزن رفقة أوراقها وكتبها.

ها هي محاولاتها الفنّيّة بالقلم الرصاص. ثمّة صورةٌ أريدُ أن أريك إيّاها، تعود إلى أحد لقاءاتنا على الكورنيش. أظنّه اللقاء الثالث أو الرابع، أم هل كان الخامس؟ لا الخامس غرقنا في المدينة القديمة، نبحثُ عن دكّانةٍ قديمة ذهبت إليها في طفولتها مع أبيها، فظلّت في عقلها. أنا متأكّد أنّها رسمتني في أحد اللقاءات الأولى. المهمّ، هذه هي اللوحة، رسمتها لي وأنا أراقب الميناء تحت المطر، كنتُ أريد الهروب من المطر، لكنّها أصرّت على أن نبقى تحتها. كانت تحاول رسمي ضاحكةً. يمكن ملاحظة وجود آثار المطر على الورقة، وعلى سحنتِي، وخطوط القلم الرصاص. لم أفهم كيف تمكّنت من فعل ذلك. تحمّلتُ وجودي تحت المطر بينما ترسم شاربيّ وعينيَّ الواسعتيْن. الشخصيّة لا تشبهني كثيرًا في الملامح، إذا أردت أن أقول الحقيقة. ولكنّها تمثّلني. ثمّة لوحاتٌ أخرى، واحدةٌ للدكّانة القديمة في المدينة، واحدةٌ للحديقة –متى كان لقاء الحديقة؟- واحدةٌ أخرى لشبحي، وأنا أعمل في البيتزاريا، عندما اضطرّت هي إلى أن تعود باكرًا، وتأخّرت أنا عن أخذها من مكانِنا المعتاد فوجدتُها أمامي في البيتزاريا مرتجفةً. لم يكن يتتبّعها أحدٌ في ذلك اليوم، لكنّ اعتيادها على لقائنا خلّف فيها أثرًا. يعود بي الزمن الآن، فأتفاجأ كيف أمكننا فعل كلّ ذلك تحت سلطة المجتمع. أخبرتني المدام أنّ الأمر صار مستعصيًا على العشّاق الجدد الآن، وصارت سلطة المجتمع تسنّ سكاكينها أكثر فأكثر. لم تكن زينب تلك الفتاة المتحرّرة، ولكنّها لم تكن أيضًا محافظةً. كانت بين بين. لها أفكارها المحافظة كما لها أفكارها المتحرّرة، خصوصًا في ما يتعلّق بالفنّ. رجّحتُ ذلك نظرًا إلى علاقتها الحميمة بعمّها، وكان هذا النصف من روحها هو الذي يدفعُ علاقتنا في أيّامها الأولى.

هل يعني ذلك أنّ علاقتنا كانت عذريّةً بحتةً؟ طبعًا لا، سأكون كاذبًا إن قلتُ لك ذلك، وسأخون العهد الذي قطعته على أبي. في يوم خوفها ودخولها المفاجئ إلى البيتزاريا، المكان الذي حاولتُ وقتًا طويلًا تجنّب لقائنا فيه، وفي نهاية القيلولة بعد انتهائها من محاضرات يومها، (كان من المفترض أن تكون هناك محاضرةٌ أخيرةٌ أنتهي أنا خلالها من العمل)، كان عَرْفي ينام مع زوجته، والمحلّ خاليًا من الزبائن، وكنتُ أنظّف المكان بعد أن خفّت الزحمة. ألمّع المصطبة مرتديًا ملابس العمل مغطًّى بالدقيق، وفجأةً وجدتُها بجواري، كان الدمع ينزلُ من عينيْها وعلامات الخوف تحيط بها. أسرعتُ لأنزل الباب المعدنيّ حتّى منتصفه، قبل أن أطمئنّ عليها. حاولتُ، في البدء، أن أهدّئها، لكنّها سرعان ما حضنتني. لم يمضِ سوى عددٍ قليلٍ من اللقاءات بيننا، شعرتُ بيديها وهما تحكمان على ظهري. كنتُ واقفًا كعود قصبٍ، لا أدري ما هي الخطوة التالية التي عليَّ القيام بها: هل أطوّقها بيديَّ كما فعلت هي؟ كانت يداي مرفوعتين إلى أعلى، أُمسك بالحلّة التي كنتُ بصدد غسلها عندما دخلت عليَّ، أجهشت بالبكاء. خفتُ أن يكون قد ضايقها الشابّ ذاته. بعد مضيّ ثوانٍ تمكّنتُ من دفع يديَّ نحو جسدها حتّى أغطّيها تحتي، شعرتُ بخوفها، بلهفتها، وأنّبتُ نفسي على ما فعلته بها. تركتها تتشبّث بي قليلًا، ثمّ رفعت رأسها فجأةً لتلتقي عيوننا كالتقاء الخميرة بالماء. لم أقترب يومًا من أنثى كما فعلتُ تلك اللحظة. المسافة بيننا ذابت، وصار عليَّ الآن أن أبوح لها بمشاعري، وأخبرها بأنّي أحبّها. لم أعرف كيف اختفت كلّ مخاوفي وأفكاري وتعقيداتي التي رسمتها لي الحياة. اقترب فمِي من شفتيْها وقبّلتها. سارع قلبي في دقّاته، وزادت سخونة المكان. كانت قبلةً خفيفةً وسريعةً، لكنّها كادت تبكيني أيضًا.

- «لا بأس، لن أتأخّر عليكِ مرّةً أخرى»،قلتُ لها مهدّئًا.

جهّزتُ لها طاولةً، وصنعتُ بعض الشرائح من عجينةٍ كنتُ قد أعددتها مسبقًا. كانت الشريحة التي أعددتها نابوليتانية بحتةً، أصنعها لنفسي، حتّى عَرْفي لا يأكل منها. لم يؤمن بهذه الطريقة التي حاولتُ مرارًا أن أقنعه بجدواها. وضعتُ الشريحة العظيمة أمامها مزيّنةً بأوراقِ الحبق التي قطفتها من سانية بيتنا. وجلستُ أشاهدها وهي تلتهمها وتشرب من قنّينة السعادة، بينما كنتُ ألتهم سعادتي التي لقّتني قبل ذلك بلحظاتٍ. أردتُ أن أغنّي لها: «عيونك، عيونك... في عيونك نظرة حزينة، تحكي عن الحبّ وحنينه»، وأن أقول لها كم ليلة أمضيتها وأنا أتخيّل مشهد التقاء شفاهنا، أو كم أبكى قلبي الدفء الذي خلّفه جسدها حول جسدي وهي تحتضنني.

- أنتِ تحبّين البيتزا، وأنا أحبّك.

هل قلتُ ذلك فعلًا؟ أم يُخيّل إليّ الآن أنّي قلته، لا أعلم، ولكنّ المشهد برمّته جعلني أفصح لها عن حبّي. لم أحتج إلى أن أسمع الكلمة منها، لأنّني عرفتُ عند دخولها البيتزاريا أنّها تحبّني. حاولنا إخفاء انجذابنا في لقاءاتنا السابقة، لقاءاتٍ مرّت بعد ضحكاتٍ طويلةٍ، كنّا نتوقّف بعدها صامتيْن مدركيْن أنّ أمرًا مّا يحدث بيننا لكنّنا كنّا نحاول إخفاءه، أقول لها وسط زحمة سوق المشير مثلًا: هل تعلمين أنّ الناس في هذا المكان كانوا يبيعون معجون الطماطم بالجرامات؟ أو شيئًا من هذا القبيل، يدفعنا بعيدين عن الخجل والصمت المقلق وجنون الانجذاب والحُبّ الصامت، ووجودنا وسط زحمة البشر وباعة الحرير والعطريّة، ولكن هكذا هو الحبّ حسب اعتقادي، إنّه يكبرُ ببطءٍ حتّى يصعد فجأةً إلى قمّةٍ عاليةٍ. هناك في القمّة، يقرّر العاشقان ما إذا كان بإمكانهما أن يجرّبا صعود قممٍ أعلى أو أن يحافظا على وجودهما فيها لتصبح عادةً لهما، أو أن ينزلا مفترقيْن، أمّا نحن فارتقينا قممًا بعيدةً جدًّا غيّرت مجرى تاريخنا الشخصيّ.

لن أقول لك إنّني مؤمنٌ صالحٌ. لديَّ أخطائي ورغباتي رغم محبّتي لله. حلمتُ، كأيّ شابٍّ آخر كُبِحَ جماحُه، بأنّني طارحت زينب الفراش، وحلمتُ بفتياتٍ غيرها قبل لقائي بها مرّةً أخرى في حياتي اللّاحقة. استمنيتُ، وأنا أراقب من سطحِ منزلنا جارتنا التي كانت قد تركت شبّاك نافذة المطبخ مفتوحًا وهي ترتدي فستان المنزل. وأطارت عقلي قصص العبسي الجنسيّة عن العاهرات الجزائريّات واللّيبيّات اللّائي «علّم عليهنّ» في تونس حسب عبارته المفضّلة. ومارستُ العادة السرّيّة وأنا أشاهد الأفلام التونسيّة والأمريكيّة المهرّبة. الأفلام المصريّة التي كانت تتصدّق علينا بمشاهد القبل والرقص الشرقيّ والآهات فقط جعلتني أريد أن أفرغ جموحي، بينما يستمني العبسي تحت البطّانيّة أمامي ونحن نشاهد الأفلام في البراكّة، حتّى إنّه دبّر لي، ذات مرّةٍ، محاولتي الأولى لمضاجعة عاهرةٍ استأجرها هو وأصدقاؤه، في مزرعة عمّي محمّد ببئر الأسطى ميلاد، في واحدةٍ من ليالٍ حمراء كانوا يحيونها بها بين فينةٍ وأخرى. كنتُ على علمٍ بتلك الليالي المليئة بالخمر والرقص والعربدة ومضاجعة العاهرات محاولًا الابتعاد عنها. فآخر ما كنتُ أرجوه هو أن تلاحقنا شرطة الآداب بين أشجار المزرعة. في تلك الليلة وبعد إصرار العبسي عليَّ أن أذهب حتّى أطهوَ لهم، وبعد أن شبعت العاهرة من طعامي، عرض عليّ العبسي الفتاةَ التي كانت في الثلاثين من عمرها، شابّة قمحيّة اللون، ممتلئة قليلًا، تحاول قدر الإمكان أن تخفي ملامح وجهها بالمكياج الرخيص الذي يُرجَّح أنّها اشترته من دكاكين شارع الرشيد. كانت تسمّي نفسها «خدّوجة»، ابتسمتُ لتشابه اسمها مع اسم خدّوجتي، بلدة الخميرة. كان العبسي قد ضاجعها صحبة أحد رفاقه مرّاتٍ عديدةً. أسمعها وأنا أجهّز الشواء تضحك وتتأوّه، بينما يدخل العبسي «عبسيّه» في لحمها. أحاول ألّا أنظر من نافذة الغرفة، التي تشيع فيها رائحة الجنس والعرق والمنيّ، بينما «ميلادي» يتعذّب لتذوّق اللحم. ناداني العبسي: «ميلاد، تعال العب معانا»، لم أرد ذلك، كنتُ أخجل من

جسدي وأنا وحيدٌ أغتسل في الحمّام، فما بالك بتعريته أمام ابن عمّي ورفيقه والفتاة. «الحمد لله، ليست لديَّ نيّة»، قلتُ له، ضحكت العاهرة، عندما سمعت كلماتي، وضحك صديقا العبسي اللذان كانا يرقصان في الخارج على أنغامِ المرسكاوي. خرج العبسي عاريًا من الغرفة. كان بإمكاني رؤية زبره وسائل الفتاة قد أحاطه، حاولتُ أن أبعد وجهي عنه، ضحك، أمسك بي وجذبني إليْه قائلًا لي:

- ادخل، اعطيه لها، وإلا اعطيتك مَتاعي.

قد ينتابك الضحك ممّا أقوله. وقد يراودك سؤال: لماذا عليَّ أن أخبرك بكلّ هذا، وهل له أيّ علاقةٍ بقصّتي؟ سأقول لك نعم، كانت للعبسي محاولاتٌ عديدةٌ لجعلي «فحلًا» قبل زواجي بزينب، وحتّى بعد ذلك، كان يؤمن أنّ الرجل لا يحرجه أيّ شيءٍ سوى مدى خبرة قضيبه في جعل النساء يبكين ويتحرّقن شوقًا إليه، ومدى قدرة عقله على احتمال الكحول. غير ذلك، يمكن للرجل أن يتعامل معه بلا حرج، ولأثبت أنّ ميلادي لن يحرجني في مستقبلي الجنسيّ، كان عليَّ من وجهة نظره أن أدخل في المعمعة مع خدّوجته، وأن أنسى أمر خدّوجتي وخبزي لمرّةٍ واحدةٍ في عمري، أن أترك الشواء يحترق إن تطلّب الأمر ذلك، وبهذا وجدتُني أمام خدّوجة مستلقيةً على الفراش كأميرةٍ مصريّةٍ، مرتكزةً برأسها على مرفقها مظهرةً ردفيها لي وانحناءات جسدها. نهداها يتدلّيان كعنقوديْ عنبٍ ناضجيْن مستعدّين للقطاف، بينما رفيق العبسي مستلقٍ بعد أن أنهكته الفرس التي تنظر نحوي الآن بتحدٍّ.

- تعال، أطعمني منه كما أطعمتني من أكلك.

- «وكّلها يا ميلاد هاهاهاهاهاها». قال رفيق العبسي وهو يشعل سيجارته.

- لا أستطيع. قلتُ للعبسي.

- لا تستطيع؟ «تنوّض وإلّا لا»؟ قال لي العبسي وقد أمسك ميلادي ليتحسّسه.

- ....

- مستيقظ، معنى ذلك أنّك تستطيع هاهاهاهاهاها. قال العبسي.

ارتدى العبسي ورفيقه سرواليهما، وخرجا يضحكان من الغرفة. توعّد العبسي خدّوجة بجولةٍ أخرى. كانت المفضّلة من بين عاهراته. فكّرت في عمّي الذي سألني، ذات مرّة، عمّا إذا كان ابنه يسكر أم لا. قلتُ له: «لا، ولكن أظنّه يضاجع العاهرات فقط». انفتحت أسارير العمّ لمّا سمع ذلك قائلًا لي: «إن كان كذلك فلا بأس، المهمّ ألّا يقرب الخمر يا ميلاد، الولد أمانة في رقبتك». لم يدرِ العمّ أنّني أنا الذي كنتُ أمانةً في عنق ابنه. أغلقتُ الباب مستعدًّا للمواجهة بيني وبين الوحش الذي يتغزّل بي، مظهرةً مفاتنها في الفراش المليء برائحة العرق والسوائل الدبقة. امتدّت رعشةٌ في جسدي. لاحظت رنين خنصري المخضّب، حاولتُ أن أخلع سروالي، لكنّني كنت متشنّجًا. حاولتْ تشجيعي قائلة: «لا تخف، أنا لا أعضّ، أمصّ فقط»، وبعد أن استاءت من سحنتي المتجمّدة أمامها رقدت على بطنها تمتدّ يدها إلى علبة المكياج كي تتزيّن لما تبقّى من الليلة، مخمورةً ومرميّةً في خدرها. أغراني انحناء مؤخّرتها المليئة بعلامات تمدّد شحمِها. تشجّعت متقدّمًا لأغلق النافذة تمامًا ساحبًا الستائر. كانت تراقبني بانحراف عينها اليمنى نحوي. صدرت منها ضحكةٌ: «أها، أنت تحبّ الأسرار، تعال لا تخف... سأخرجك عريسًا». دارت في بالي مشاهد الدقائق المقبلة من «تخرّجي». بعد دقائق سأكون قد خططت سطرًا من سطور الرجولة في البلد، «هيّا يا حبيبي... تعال والعب بهما». هزّت ردفيْها بينما أنهت مكياجها. رأيتُني وأنا أركبها وهي تصيحُ من اللذّة. مرّ مشهد صياحها في مخيّلتي ليخترق الجدران حتّى يمتدّ إلى أذن العبسي المخمورة فيهنأ وتنفرج أساريره، ويقول لرفاقه: «أخبرتكم أنّ ابن عمّي فحل، الحاج ميلاد ذرّيته كاملة من الفحول... نحن نهلك النساء». ضاجعتها في مخيّلتي، كما يجب أن تُضاجع عاهرةً، جعلتها تبكي، تترجّاني أن أتوقّف وأنا في كامل جموحي. نزعتُ أزرار قميصي، كانت تنتظر منّي أن أنتهي من المهزلة، ميلادي يزداد نبضه، وقبل أن أقترب منها، تبلّل سروالي. كان يمكنها أن ترى ذلك، ضحكت.

- أنتَ من أولئك الرجال إذَن.

نزلتُ بعينيْ لأرى ما فعلته في حقِّ نفسي، كنت من شدّة الجموح قد أفلتُّ سائلي حتّى قبل أن ألمسها. انكسرت. أجهشتُ بالبكاء. لم أفهم ما الذي حدث لي. كان من المفترض أن أهيم بها وتهيم بي، حتّى يخفى عنّي برهاني. ولكنّي قد أفسدتُ، كما أفعل في العادة، كلَّ شيء. جلستُ في كرسيٍّ قديمٍ كان لجدّي، وبكيت، إلّا أنّ أمرًا في خدّوجة جعلها تتعاطف معي. لفّت على جسدها الشرشاف، واقتربت منّي. حاولت تهدئة روعي:

- لا تخف يا عزيزي، يحدث ذلك أمامي دائمًا.

- لا ليس بهذه الطريقة، أنا لستُ رجلًا.

- بل أنت كذلك.

قالت لي كاذبةً تحاول تخفيف ألمي الذي اشتدّ. مرّت في عقلي كلّ تلك الكلمات التي تلقّفتها عن رجولتي، «الراجل ما يحشّمه شي إلّا الكاتسو»، يقول لي العبسي دومًا، وحتّى في هذه المحاولة، فشلت وأحرجت، وأمام امرأةٍ، أبي يؤنّبني على «ميوعتي»، وعمّي يحتقر أفعالي البعيدة عن الرجولة. المادونّا وهو يهزأ بي يحاول أن يقتل الطفل داخلي بلا جدوى، والآن هذه العاهرة شاهدٌ جديدٌ على خيبتي وهواني. ربّتت على ظهري، وجلست بجانبي مشعلةً سيجارتها.

- لا تخف، لن أقول لأحد.

قالت وقد أحسّت بالموقف الحرج الذي سأكون فيه عندما يعلم العبسي أنّني قد قذفت مبكّرًا. رفعتُ رأسي نحوها. صارت أجمل من ذي قبل. كانت مسحة الحنان داخلها قد جعلتني أغيّر فكرتي عنها. كنتُ أبحث فيها عن وجهٍ مألوفٍ يمكنه التعاطف معي. نفخت دخان السيجارة ونهضت لتحكم إغلاق الباب. جسدها جميلٌ حتّى داخل الشرشاف. مشت بغنجٍ إلى الباب وعادت بغنجٍ نحوي، أطلّت برأسها من ستائر النافذة لتراقب زبائنها وما يصنعون. تأكّدت أنّهم مازالوا مهمومين بالشرب والرقص، جلست على الفراش وقالت لي:

- اسمع، يبدو أنّك فتًى طيّب ولا تشبههم. كنتُ أراقبك في بداية السهرة وأنت تطبخ وتنظّف، يمكنني أن أعرف الرجل الشريف من الخبيث، وأنت رجل شريف، لا تلم نفسك لأنّك لم تستطع أن تنيك مجرّد قحبة مثلي. أبيع حياتي ليكون لي رجل مثلك، هل تصدّقني؟ قالت بهدوءٍ وقد تحوّل الحيوان الجنسيّ داخلها إلى كائنٍ يشبه الأمّ الحنون.

- سيعلم العبسي بما صنعت، فعلتي ظاهرة في سروالي.

- هذا أمر هيّن.

نهضت حاملةً علبة المكياج واقتربت منّي. انثنت حتّى تستخدم حيلها لتمسح عنّي الشاهد، أوقفتها، ابتسمت وسلّمتني العلبة، كنت أخاف أن تلمسني. قابعًا في حزني، «استخدم أحمر الشفاه وما أمكنك من بقيّة المكياج لتغطّي، ربّما يمكنك رسم شفة حمراء، هكذا لتغيظهم»، فعلتُ ذلك، كنت لا أزال متشكّكًا في قدرة هذا على تغطية الفعلة، عادت إلى مكانها لتنسف شكّي.

- أمّا الأمر الثاني فلا تخف، هل تعتقد أنّ مجموعة من المراهقين يمكنهم أن يجعلوا خدّوجة تصيح؟

وانطلقت تتأوّه وحدها تنظر نحوي مبتسمةً، تمسك بجسدها وهي تصيح: «آه يا ميلاد... ياسر، ياسر»، كنتُ أراقبها وهي تمثّل عمليّتنا المفترضة. «انظر من النافذة هل يسمعون»، قالت لي. نهضتُ لأمرّر عينيَّ بين الستار أراقبهم، كانوا قد توقّفوا ينصتون إلى الصوت المتأوّه الخارج من الغرفة، «آه يا ميلاد... آه ياسر»، «دورك الآن، قل أيّ شيءٍ، اشتمني»، «لا أعرف»، «حسنًا، قل ورائي: اصمتي يا عاهرة، هل تعتقدين أنّني سأتساهل معكِ، خذي»، «اصمتي يا عاهرة»، «قلها بصوت رجوليّ خشن، كأنّك تضربني»، «اصمتي يا عاهرة، هل تعتقدين أنّني سأتساهل معكِ، خذي». كنّا نضحك ونحن نمثّل. أراقب الشباب وقد دخلوا مسرعين للاستراحة. كانوا الآن خلف بابنا. ضَحِكتُ، بَكَت، تأوّهتْ، ضحكتُ. أطلقت صرخة النهاية معلنةً أنّني جعلتها تبلغ الذروة، فاندهشت الأصوات خلف الباب وسكتت تترقّب. جلستُ على الكرسيّ، سلّمتني سيجارةً ودخنّا مبتسميْن. تمكّنت من جَعلي بطل القوم، عند خروجي من الغرفة تلقّاني الجمع مهنّئين. رفع عبسي كأسه الممزوجة بالليمون والكوثر والبوخة قائلًا لهم: «قلتُ لكم إنّ ميلاد هو الوريث الشرعيّ للحاج ميلاد الأسطى، أكبر فحل عرفته بئر حسين وبئر الأسطى ميلاد والبلاد بأكملها».

في تلك الليلة، وبعد انتهاء السهرة وخلود الرفاق للنوم، كنتُ جالسًا وحدي أحتسي شرابي الأخير وأدخّن سيجارتي، جاءت خدّوجة لتجلس معي، أخبرتني قصّتها. قالت لي إنّها كانت في الخامسة والعشرين من العمر، في عمري بالضبط، عندما مارست الجنس أوّل مرّةٍ. كانت تحبّ فتًى من المدينة راودها عن نفسها فأدخلها شقّة صديقٍ له. قالت إنّها جامعته من أجل الحبّ، ورأت أن تهبه نفسها، فما الخير في الحبّ إذا لم يهب الحبيب محبوبه كلّ ما يملك. فكرة أدخلها الشابّ في عقلها حتّى نال ثمار جسدها، «كنتُ نحيلةً، تشهدُ لي نساء المدينة بالجمال قبل أن أذبل»، وبعد مرّةٍ ومرّتين وثلاثٍ وعشرين لفَظها حبيبُها، عندما طلبت منه الزواج. قال لها إنّه لا يتزوّج العاهرات، كادت تقتل نفسها من المهانة. لن يتسنّى لها أن تعيش في حضنِ عائلتها التي ستكتشف فعلتها مع أوّل عريسٍ يريد أن يفتضّ بكارتها، وهي التي افتُضّت في أوّل جماع بينها وبين الحبيب الخائن. «ومنذ ذلك الوقت، أصبحت أنتقم من الرجال بأن أتحصّل على أموالهم، معشر الكلاب»، قالت لي.

- عدني يا ميلاد، إذا أحببت يومًا وحدث بينك وبين حبيبتك ما حدث بيني وبين ابن الكلب، ألّا تلفظها كما لفظني، هل يمكنك فعل ذلك؟

رفعت إصبعها الخنصر في اتّجاهي حتّى اشتبك بإصبعي الخنصر، علامةً على وعدي لها. «إصبعك مخضّب، قلت لك إنّك لا تشبههم». قالت وضحكت، واختفى ضحكها.

- عدني يا ميلاد، ألّا تتركني وحيدةً أبدًا.

جاءني صوت زينب وهي تنهي آخر قطعة بيتزا رافعةً إصبعها الخنصر، رفعتُ خنصري ذا الحنّاء ليلتقي الإصبعان علامةً على وعدي لها. ابتسمتُ. هل تركتها بعد ذلك؟ لا أظنّ، نعم قد أكون خذلتها، في بعضِ الأحيان، إلّا أنّي كنتُ دائمًا إلى جانبها، أشجّعها، أرافقها وأحاول قدر استطاعتي حمايتها. أتذكّر أنّنا كنّا في الحديقة، بعد مغامرةٍ أخرى في البيتزاريا، أكثر خطورةً من الأولى – صارت البيتزاريا المكان الذي أودّ أن ألتقي بها فيه- اطّلعتُ فيها على نهديْها اللذيذيْن، ومصصتُ من رحيقهما، وتبادلنا القُبل الشغوفة الحارقة للقلب، على الشفتيْن أو شحمتي الأذن أو العنق أو الجيد، لكنّنا لم نصل إلى التحام الجسديْن تمامًا. كانت زينب تخاف من ذلك، وكنتُ أنا متشكّكًا في قدرتي على فعلها. لم ألمس زينبتها ولم تلمس ميلادي. كنّا فقط نستمتع بذكاء اللحظة فوق مصطبة العمل في البيتزاريا والدقيق يلفّنا ضاحكيْن، نتحارب أحيانًا برمي الدقيق على وجهَينا، «سأصنعُ منكَ بيتزا»، تقول لي زينب، «سأخبزكِ»، أقول لها، وننغمرُ في شبقِ الحُبّ، مرتقبيْن شبح العَرْف الذي قد يسحب الباب المعدنيّ في أيّ لحظةٍ، أو شبح الصادق، الذي قد يكتشف أخته تغوص في الرذيلة مع صديق طفولته. نظّفنا ملابسنا جيّدًا بعدما شبعنا من الحُبّ، وخرجنا إلى حديقة الغزالة عندما كانت ملتقى العشّاق. كنّا مخموريْن بلذّة التجربة. جلسنا في أحد المقاعد، عيوننا تلتقي ولا تبحث في المكان، غائبين كنّا عن سلطة المجتمع المراقب، ومخدّرين تحت أشجار الحديقة، حتّى أخرجنا من تلهّفنا صوتٌ خشنٌ لمجموعةٍ من الشباب.

- ماذا تفعلان أيّها النذل وأيّتها الفاسدة؟ قال أحدهم.

- هل ترضاها لأختك؟ قال الآخر.

- نعم أرضاها.

قد أخرج أحيانًا عن شخصيّتي. أتعجّب بعد ذلك من قدرتي على فعلِها. فكما أخبرتك فعلتُ ذلك من قبل، إذ ضربت أسماء لمّا علمتُ أنّها تتلقّى الرسائل من زميلٍ لها في الدراسة، جررتها من شعرها من غرفتها حتّى وسط البيت، بينما أخواتي يلحقنني راجين منّي أن أتوقّف. «تكلّمي في الأولاد يا فاسدة؟»، قلتُ لها، مازلتُ أريد أن أقتل نفسي عندما أعود إلى تلك الحادثة، صفعتها وقبل أن أعيد

الصفع مرّةً أخرى أوقفتني أمّي لتطردني من البيت. ظلّت أسماء تخافني سنواتٍ حتّى تمكّنتُ من رَأْب الصدع، الذي خلّفته الحادثة بيننا فوثقت بي مجدّدًا وعادت إلى الحديث معي. رددت ردًّا فاجأ الشباب، فهمّوا بلكمي وضربي وطَرد زينب من الحديقة متوعّدين إيّاها بأخذها إلى مركز الشرطة، إذا وجدوها معي مرّةً أخرى في الحديقة، أو في أيّ مكانٍ. وعادوا إلى ضربي من جديدٍ، وأنا أحاول أن أخبّئ وجهي عنهم. حاول أحدهم طعني بسكّين إلّا أنّ قربنا من مركز الشرطة جعل أحد عناصر الأمن، وكانت سحنته كسحنة الضفادع، يقترب منّا فأسرعوا هاربين. بقيتُ في الحديقة أتألّم، أفكّر في ما حلَّ بزينب، هل وصلت إلى البيت بسلامٍ؟ هل يُحمَل ذلك على أنّي تركتها؟ إذَن فقد خنتُ العهد.

مرّ ذلك اليوم ثقيلًا عليَّ. كنتُ أخشى أن أذهب إلى الشارع كي لا يراني أبناء الحيّ ممزّق الملابس ومضروبًا، لكنّي أردتُ أن أطمئنّ على زينب. مضى اليوم كالدهر وأنا أنتظر قدوم الغد لأتمكّن من رؤيتها مجدّدًا، وأعتذر منها عن فعلتي إذ تخلّيت عنها وتركتهم يسبّونها ويطردونها، أعتذر عن كوني أنا. ولكن ما رأيك في أن نغيّر الموضوع قليلًا، علّنا نشرب كأس شايٍ أخرى في الحديقة؟

(٦)

ما فائدة أن أخبرك بقصّة زواجي من زينب بأكملها على كلّ حالٍ؟ أفضّل أن نقفز إلى الأيّام التي تلت الزواج، أيّامَ أخذتنا البيجو إلى تونس، وبالتحديد إلى جربة ودار غزالة، ما رأيك؟ يمكننا بعد ذلك أن نعاود الحديث قليلًا عن الأيّام التي تلت حادثة ضربي وإذلالي. فثمّة ما أودّ أن أقصّه عليك نظرًا إلى أهميّته في قصّتي، وهو، على كلّ حال السّبب الوحيد الّذي جعلني أروي لك ما رويتُه عن بداية علاقتنا. يمكنك الجلوس، بينما أسقي النباتات، وسأحدّثك عمّا يمكنني وصفه بأجمل أيامِ عمري.

بعد مضيّ أسبوعٍ مرهق من أيّام الزواج ختمناه بليلة الزفّة، جهّزنا أنفسنا صباحًا للسفر برًّا إلى الشمال الغربيّ. كنّا نقطع الطريق مستمعَيْن إلى الموسيقى، نتخطّى باعة البنزين في المناطق الحدوديّة، باعة التمر والمشتغلين بالصرف وباعة الأواني الفخّاريّة، كنّا نريد التوجّه إلى جِربة أوّلًا لنستريح يومًا أو يوميْن، قبل أن نذهب إلى الحمّامات، ومن ثمّ إلى العاصمة. عند مُغادرتنا الحدود اللّيبيّة، أخرجت زينب نصف جسدها من نافذة السيّارة مُحاولةً احتضان الرّيح، وصرخت «لطالما أردت فعل ذلك». ثمّ نزعت عنها حجابها، «نعم هكذا أفضل، الحَرّ في الخارج لا يطاق»، قلتُ لها. «لم أفهم يومًا تسامحك يا حبيبي، لكنّني أحبّه»، لم تفهم أنّني، وفي سنين عمري كلّها،

كنتُ أسمع أخواتي يتأفّفن من الحجاب خصوصًا في أيّام الصيف وصعوبة التنفّس في وجوده، بالإضافة إلى الحرارة والملابس الغليظة، أمر فكّرت أنّ حلّه المنطقيّ في ألّا يرتدي المرء حجابًا، أو يرتديه بطريقةٍ تُتيح له أن يتنفّس جيّدًا، وأن يخفّف عنه الحَرّ. كانت أخواتي يضحكن من منطقي، بينما تنظر إليّ أمّي بشيءٍ يشبه الاشمئزاز من عقيدتي المهزوزة. كنّا ننصتُ إلى أحمد فكرون في سوليل سوليل يغنّي للديسكو، عندما انحدرت الشمس نحو الضحى. وصلنا إلى طريق تحدّها من الجانبين سبخةٌ عظيمةٌ.

- توقّف، إنّها الفلامينجو.

قالت لي زينب، لم أكن قد رأيت طيور الفلامينجو قبل ذلك في حياتي. نعم كنتُ أراها في التلفاز، لكن لم أرها رأي العين. رأيت طيورًا عديدةً في مغامراتي مع البحر، لقلقًا، إوزًّا مهاجرًا وبطًّا مهاجرًا، نوارس وطيورًا غريبة الأشكال، لم أحفظ يومًا أسماءها، لكن لم أشاهد قبل ذلك سربًا كاملًا من الفلامينجو في حرارة الصيف. كانت تقف داخل السبخة بقَدم واحدةٍ. نزلت زينب تريد أن تقترب أكثر، تذكّرتُ معلومةً جيّدةً كان يمكنني أن أتباهى بها شاهدتها في فيلمٍ وثائقيٍّ على التلفاز. أطفأتُ محرّك السيارة واقتربتُ منها ألفّ يدي حولها.

- هل تعلمين أنّ لون الفلامينجو الورديّ يأتي من أكله للقمبري؟

- الله.

- الفلامينجو دليل على أنّ ما تأكله يصبغ عليك.

- هاهاهاها، وأنت ماذا تأكل حتّى أصبحت رطبًا هكذا؟

- الخبز.

- كلّنا نأكل الخبز.

- ما يأكله مجتمعنا لا يعدّ خبزًا، إنّه كائنٌ مشوّهٌ، الخبز الحقيقيّ مصنوعٌ بحبٍّ، تخيّلي لو أكلتِ يوميًا من خبزِ أمّك؟

- لم أكن أعلم أنّك فيلسوف أيضًا يا ميلُو.

نعم هذا كان اللقب الذي أطلقته عليّ زينب، «ميلُو» وليس «ميلّو» كما يفعل العبسي. كانت ميلُو أكثر جمالًا وفيها خصوصيّةٌ ومصبوغةً بحُبٍّ. أردتُ أن أسألها عن الطعام الذي جعلها لطيفةً وجميلةً ومثيرةً هكذا. هل كانت تأكل الكعك المحلّى كلّ يومٍ؟ أم كانت تداوم على تناول الفواكه الطازجة والشهيّة؟ وقفنا نصف ساعةٍ أمام سرب الفلامينجو، وهو شامخٌ تحت الحرارة، يراودنا الحُبّ عن أنفسنا. ثمّ انطلقنا إلى جِربَة. حدث أن استوقفتنا بوّابات الأمن، وتحرّش بي بعض هؤلاء العناصر غامزين لي بأن أدفع غرامةً مّا عن قانونٍ لم أفهمه، «جهّز مالك لتفرح بالحاكم»، قال لي العبسي قبل أن أنطلق إلى رحلتي بأيّامٍ في جملة نصائح قدّمها لي مع أرقام عاهراتٍ يعرفهنّ، إذا حدث أن أملّ من زوجتي. في النهاية وصلنا إلى حومة السوق، توقّفنا لتناول قهوةٍ وبعض المرطّبات. جلسنا في أحد المقاهي المطلّة على ساحة السوق، كانت المباني البيضاء المزيّنة بالأزرق السماويّ تفرض علينا السكينة.

- ماذا تريدين أن تشربي؟

- كوكا كولا.

- أنا أريدُ قهوة وكرواسون.

قلتُ للنادل، وأمضيتُ وقتي أتفحّص فرحتها. كانت تتلفّتُ يمنةً ويَسرةً، كأنّها وجدت المكان الذي تريدُ العيش فيه لما تبقّى من حياتها. كان هناك رجلٌ عجوزٌ يدور في فضاء المقهى، يبيعُ أعواد الياسمين، «لا تأبه للباعة الجوّالين، إنّهم لصوص متلوّنون، عليك أن تطردهم بسرعة وألّا تدخل معهم في النقاش»، قال لي العبسي في جملة نصائحه.

- أريد أن أرقص هنا في الساحة.

قالت لي زينب، وهي تكاد تطير رافعةً يديها خلف رأسها تستريح من تعبِ السيّارة. كانت الساحة تتوسّط مجموعةً من الدكاكين الصغيرة، بعضها يبيع الأقمشة التقليديّة المزخرفة لجذب السيّاح الأجانب، البعضُ الآخر يبيع الحُليّ والسجّاد و«الفواكه الجافّة»، مغازات وجملة من مقتعدي الطرقات والسيّاح يغزون المكان، ونحن جالسان في ظلّ المقهى. عاد النّادل حاملًا طلباتنا. حسنًا، حان الآن موعد تذوّق «الكرواسون» الأسطوريّ، الذي سمعتُ عنه من الأسطى اخميّس ومن العبسي بعد ذلك، نظرتُ إليه، إنّه شبيه بالبريوش إلّا أنّه يبدو من الخارج أكثر هشاشةً. أخذت قطعتي ونهشتها بسعادةٍ. عرفتُ الفرق في لحظةٍ واحدةٍ، لا يحتاج الكرواسون إلى أيّ إضافاتٍ

ليكون لذيذًا، على عكسِ البريوش الذي يشبعه الحاج فتحي بالعسل واللوز والزُّبدة كأنّه ساندويتش. كان الكرواسون مليئًا بالزُبدة. عجينته تشبه البقلاوة. صفّقتُ للفرنسيس، وتأكّدت عند ذلك من تغلّبهم على الإيطاليّين في فنّ الخبيز. تنافس الشعبان زمنًا طويلًا لإثبات من هو الأفضل في الفطائر والمخبوزات. نجح الإيطاليّون في إرغام العالم على أكل البيتزا وهذه نقطةٌ تُحسب لهم، لكنّ نجاح الفرنسيّين في جعل مخبوزٍ مثل الكرواسون يكتسب هذه الشهرة الواسعة هو ما أذهلني. البيتزا كانت تبيعُ نفسها بنفسها. تركيبتها المكوّنة من الجُبن وصلصلة الطماطم والزيتون، وكونها طعامًا يؤكل في أيّ وقتٍ وحينٍ هو سرّ نجاحها، لكنّ الكرواسون، إنّه... إنّه شيءٌ يشبه الرومانسيّة. أشعلتُ سيجارتي فرحًا وقد احتسيتُ من قهوتي الآن.

- هل يمكنني أن أدخّن معك؟ سألتني زينب وقد قطعت حبل أفكاري.

- لماذا تريدين أن تدخّني؟

- لا أعلم، لكن لطالما انجذبتُ إليه، أبي وأخي وعمّي مدخّنون شرهون، لكنّهم لم يسمحوا لي يومًا بأن أشعل سيجارة ولن يفعلوا ذلك أبدًا.

- سيجارة واحدة فقط، بعدها لا للتدخين؟

- لماذا؟

- إنّه مضرّ بالصحّة والشرف. قلتُ لها بعفويّةٍ أحاول مشاكستها.

- ها أنت تدخّنه، هل أضرّ بشرفك؟

- لا.

- إذَن، لماذا تعتقد أنّه سيضرّ بشرفي؟

- الأمر مختلف.

- لا، ليس مختلفًا، جدّتي تستنشقُ النّفّة.

- وجدّتي كانت تمضغُ التبغ السودانيّ.

- إذَن؟

- إذَن، يحقّ لكِ أن تدخّني.

كنتُ أشعر أنّ شجارنا الأوّل في حياتنا الزوجيّة كاد يندلع، لهذا طردته بسرعةٍ. كنّا قد تشاجرنا من قبل في أيّام المواعدة أو «الرفقة»، لكنّ شجارات الأزواج وخصوصًا في أيّامهم الأولى نذير شؤمٍ. بعضهم قد يطلّق زوجته من أوّل أيّام زواجهما فقط لأنّ اختلافًا في الرأي قد حدث بينهما. شجّعني على الخضوع منظر النساء من حولنا وهنّ يدخّنّ. كان منظرًا طريفًا عندما رأيت امرأةً عجوزًا ترتدي الحجاب وتشعل سيجارةً أمام أبنائها، ورغم وجود بعض العائلات الليبيّة التي تتجوّل وتتسوّق في المكان، فقد رأيتُ أنّ سيجارةً واحدةً لن تضرّ. حاولت إشعال سيجارتها وأنا أتذكّر أولى محاولاتي، لم تتمكّن من استنشاق دخانها كما يجب، فدعوتها إلى أن تشاهدني.

- عليكِ في البدء أن تشعري بوجودها معكِ، استنشقيها كأنّها النصف المفقود من حياتك وقد وجدتِه بعد بحثٍ طويل.

- يا سلام، هل هذه عباراتك؟

- لا، إنّها عبارات السي الباهي، كان رفيقي في الكوشة، كان رومانسيًّا ويحبّ السجائر أكثر من أيّ شيءٍ آخر، أكثر من النساء.

- وأنت؟

- أنا أحبّ امرأة واحدة فقط، لكنّي أحمل قدرًا كبيرًا من الاحترام للمرأة. بل إنّ في حياة تلك المرأة ونمط حياتها أشياء تجعلني منجذبًا إليها.

استقبلنا منتصف النهار في مطعمٍ يهوديٍّ داخل السوق، دخلناه بالخطإ بعدما قرأنا يافطة تقول «الطرابلسي»، في الداخل رأينا صورًا قديمةً لطرابلس، واحدةً لمطعمٍ قديمٍ في حارة اليهود، ويافطةً مكتوبةً بخطِّ اليد «الجِربي»، صورًا أخرى لسينما الميرامار القديمة ولسوقِ المشير، رجالًا ونساء يرتدون الزيّ الطرابلسيّ في لقاءاتٍ عائليّةٍ، صورةً لرجلٍ ليبيٍّ أمام تمثال الحسناء والغزال، وجامع قُرجي وقوس ماركوس أوريليوس بعد أن رمّمه الإيطاليّون. كنّا في متحفٍ للنوستالجيا الليبو-يهودو-إيطاليّة، الحاكم العسكري بالبو داخل مطعمٍ يهوديٍّ في طرابلس يجلس صحبة رِبِّي.

كان ديكور المطعم يحملُ جزءًا من طرابلس وجزءًا من جِربة. استقبلنا رجلٌ عجوزٌ سمينٌ بسحنته ملوحة برج «أبو ليلة»، حدّثنا بلهجةٍ طرابلسيّةٍ قديمةٍ لم نتبيّنها إلّا بعد معالجة الرطانة التي بها.

- ليبيّون؟

- نعم، نحن من طرابلس.

- المحروسة، حفظها ربِّي. أنا بنيامين الطرابلسي، أحد أبنائها القدامى.

قال متأوّهًا ثم فُرِجَت أساريره. استقبلنا استقبالًا حسنًا ونادى ابنته. كانت الفتاة ترتدي فستانًا قصيرًا أحمر اللون مرقّطًا بدوائر بيضاء، شعرها الفاحم يدلّ على أنّ عروس البحر قد أصابتها حتّى وهي بعيدةٌ عنها، «هذه سارة ابنتي، شوفي ولاد بلادك، لا يزورنا ليبيّون كثر هنا، إنّهم يحبّون أن يأكلوا عند المسلمين»، وجّه إلينا الكلام، ثمّ طلب أن نحدّد طلباتنا. جلس بجانبنا ليسأل عن طرابلس. كنّا نبحث في قائمة الطعام الفرنسيّة من دون أن ندرك ما قد نتورّط في طلبه. أحسّ صديقنا بأنّنا في مأزقٍ، وبأنّنا لا نحسن سوى قراءة الحروف اللاتينيّة، «هذا حرايمي حوت، دندشي... شيء عجيب، سيأخذكم الطعم إلى باب بحر». كنتُ أبحث في عينَي زينب، التي ظلّت تعلِّق نظرها بفستان الفتاة مأخذوةً به. كانت تتخيّل نفسها في الفستان وهي تذرع شوارع المدينة. تساءلتُ عن الكيفيّة التي سيتلقّى بها والدها خبر رغبة ابنته في ارتداء فستانٍ كهذا، فقد أخبرتني مرارًا قبل زواجنا أنّها كانت تشاهد الأفلام صحبة عمّها وتتعلّق أنظارها بثياب الفتيات. «هذي فاصوليا كرشة، أنصحكم بها، لن تجدوا مثيلتها إلّا عند مطعم عبيّة، هل ما يزال مفتوحًا؟ آخر مرّة زرتُ فيها المدينة منذ عشر سنوات، ولا أعلم ما الذي ألمّ به»، قال لنا بينيامين صاحب المطعم. كان قد قرّر لنا ما سنأكل. انصرفت الفتاة بينما ظلّت عينا زينب معلّقتين بها.

- حسنًا ما الذي استجدّ في طرابلس؟ ولدتُ فيها وترعرعتُ وعشتُ فيها أجمل أيّام عمري. أنا من يهود الحارة.

لم يكن ينتظر إجابةً منّا، حدّثنا عن آخر مرّةٍ رآها فيها، حدث ذلك بعد عامِ الغارة بثلاثِ سنواتٍ، كانت كئيبةً –نعم أتذكّر ذلك عندما كنتُ في مقتبل الشباب- كما وصفها، حزينةً ووحيدةً وتشعرُ بالخوف. عجبنا لوصفه المدينةَ كأنّما يصف إنسانًا حيًّا، يتنفّس وينام ويعيش مثلنا، قصّ علينا ذكريات طفولته فيها، وحدّثنا عن التنوّع الثقافيّ والعرقيّ الذي كان يسري في عروقها. قال لنا إنّه عندما نزل المدينة مجدّدًا رآها كالحةً بلا ألوان، كان يشعر بفقدانها ألوانَها كأنّ فنّانيها غادروها

ليبحثوا عن لقمةِ العيش في بلادٍ أخرى. لم يتمكّن من زيارة الكثير من معالمها وظلّ يخفي هُويّته اليهوديّة عن الناس. كنتُ غير مرتاحٍ في الجلوس. شعرتُ بأنّني أخون القضيّة الفلسطينيّة، بينما كانت زينب متلهّفةً إلى سماع قصّته. لكنّني شعرتُ بحرجٍ ولم أشأ أن أنهض خارجًا فأهين الرجل العجوزِ الذي شعر بالحنين إلى وطنٍ فقده وافتقده، ثمّ إنّني أحببت السعادة التي أشرقت من وجه زينب، وكنتُ أراقبها وهي تنصتُ لأحاديثه الشيّقة. قلتُ له إنّنا جئنا في إجازة شهرِ العسل، وإنّها المرّة الأولى لنا في تونس، لعلّي أجد بعض النصائح من أهل البلد، فهم أعلم الناس بالأماكن التي يمكن للمرء أن يأكل فيها بثمنٍ بخسٍ وجودةٍ مناسبةٍ وبتلك التي يمكنهم أن يقطنوا فيها.

- هل حجزتم في فندق؟

- ليس بعد، لم يمضِ الكثير من الوقت على وصولنا وأحببنا أن نشرب القهوة ونتغدّى قبل أن نفعل ذلك. قلتُ له.

- كم تريدون البقاء في جِربَة؟

- يوما، أو يومين.

- إذَن، ستبيتانِ عندي.

- لا داعي إلى ذلك.

- وربّي العزيز ستبيتان عندي. أبناء طرابلس هم أبنائي، لديّ قسمٌ منفصل في البيت يمكنكما أن تناما فيه، يبعد عن الشاطئ مسافةً قصيرة وتستطيعان السباحة فيه، إذا أردتما ذلك، دون مضايقةٍ من أحد.

تخيّلت ردّ فعل أمّي إذا ما أخبرتها أنّني أكلتُ أكل يهوديٍّ وبتُّ عنده. لا شكّ أنّها ستجنّ. أرغمني لطف الرجل على قبول عرضه. بعد موافقتنا استمرّ في سردِ حكايته عن المدينة وعن جِربة. قال لنا إنّه يعرف امرأةً من طرابلس تأتي كلّ بضعة أشهرٍ مع ابنها الصغير. كانت تاجرةً تشتري الحُليّ وأواني الطبخ من جِربة. صادف أن دخلت المطعم مثلنا، فنشأت بينهما صداقةٌ، بعد أن عرف أنّ والدها كان يبيع لوالده الأقمشة الدمشقيّة، ويأتي كلّ خميسٍ إلى مطعمه في حارة اليهود ليأكل الحرايمي. كانا صديقيْن فعرض عليها مساعدتها في شراء بضاعتها بأرخص أثمان السوق، وكان يؤجّر لها السكن عندما تقرّر أن تبقى أسبوعًا أو أكثر، «ما اسم المرأة؟»، قالت له زينب،

«زعيمة الأندلسي». قال بينايمين، رنّ اسم المرأة في أذنِ زينب كصدفةٍ جميلةٍ من صدف القدر، فهذه المرأة القويّة هي عمّتها، هلّلت قائلة: «إنّها عمّتي»، «هذا إذَن داعٍ أكبر إلى أن أستضيفكما. إنّ السيّدة زعيمة فاضلة وكريمة وسيُسعدني أن أعتني بابنة أخيها. الغداء والمبيت على حسابي». وجاء الغداء، أعجبني الخبز ومدى هشاشته من الخارج. كنتُ أريد سؤاله عن المخبز الذي يشتريه منه، ذكّرني الخبز بالأسطى اخميّس، وكنتُ أريد الاتّصال به إن سمح لي الوقت بلقائه حتّى نسترجع سويًّا ذكريات الكوشة. أمضينا ما تبقّى من الوقت في المطعم صحبة السيّد بينيامين وابنته سارة، التي سرعان ما عقدت صداقةً مع زينب. «هل يمكن أن أعرف من أين اشتريتِ هذا الفستان؟»، سمعتها تسألها بينما أحاول مجاراة الرجل العجوز في ذكرياته عن قهوة طرابلس، ونحن نشربُ من شاي المطعم، «القهوة في طرابلس كانت ألذّ ما يوصف، للأسف ففي آخر مرّةٍ زرت المدينة لم أتمكّن من تلذّذ القهوة جيّدًا، وبدت أقرب إلى طعم القهوة هنا، سيّئة». وافقته في أنّ القهوة بجِربة سيّئةٌ، لكنّي كنتُ أدافع عن مذاق القهوة الطرابلسيّة. ثمّة شيئان يدافع عنهما اللّيبيون دومًا عندما يسافرون خارج طرابلس، القهوة والطعام. وافقني أنّ الطعام، وخصوصًا البيتزا، ألذّ بكثيرٍ ممّا هو في جِربة. قلتُ له إنّ بإمكاني أن أصنع له البيتزا إن أراد. «اتّفقنا، وسيكون بمثابة دفعك إيجار المبيت». كنتُ سأترك النقود في البيت بعد أن نخرج منه في اليوم التالي. أنهينا وجبة الحرايمي والمفروم المُبطّن والتريليا المقليّة. هنّأته بالمذاق الرائع وسألته عن كيفيّة طبخ حرايمي، مثل الذي ذقته للتوّ. أجابني أنّ الطعم يكمن في جودة السمك، وفي وضع السمكة المناسبة. بعضُ أنواع السمك لا تتماشى مع الحرايمي. نعم يمكنك أن تضع وراثة في الطبق، ولكنّها لن تضيف مذاقًا كالدندشي. ثمّ إنّ اختيارك فصوصَ الثوم يجب أن يكون بعنايةٍ، وأن يكون مقدارها متناسبًا مع مقدار السمك. الثوم والكمّون قد يغطيان طعم السمك، لهذا يجب أن تكون حذرًا في إضافتهما، إذا أردت أن تضيف معجون الطماطم فيُستَحسن أن تعرف كيف تصنعه في البيت، لكن لا بأس في شراء علبةٍ جاهزةٍ منه. كان يلقي عليَّ قصيدةً لا طريقةَ صناعة الطبق. ولكم كنت أعشق الاستماع إلى الكيفيّة التي يُحدّثني الناس بها عن طريقة طهي طبقٍ مّا، شيء أخذته عن أبي، من نبرة صوته والكلمات التي يختارها المرء، يمكنك معرفة ما إذا كان يطهى الطبق بشغفٍ أم لا. هذه حيلةٌ يمكنك استخدامها إذا ما راودك الشكّ حول جودة الطعام قبل طلبه. ليكن سؤالك عن طريقة طهيه فقط، إذا شعرت بشغف «الشيف» وهو يحدّثك عنه، فأنت أمام الطبق الصحيح.

قُبيْل أذان العصر، ذهبتُ للراحة في مبيتنا، ركبنا أنا وزينب وسارة البيجو إلى بيتهم. كانت هناك لافتةٌ رخاميّة في مدخل البيت تقول لنا إنّنا في ضيافة «دار غزالة»، بيتٍ شبه تونسيٍّ شبه فرنسيٍّ كان مقسّمًا إلى جزأيْن، على امتداد سوره الصغير ياسمينةٌ متسلّقةٌ وحديقةٌ صغيرةٌ ممتلئةٌ بمختلف

أشكال الغرس، باحةٌ تشرف على أحدِ حيطانها صورة غزالٍ منحوتٍ يخرج من فمهِ الماء. ركنتُ البيجو على الرصيف، ثمّ انتقلت سارة تقود سيّارة والدها المركونة في الكراج وخرجت مع زينب، حملتُ الحقائب إلى الداخل، مع جبنٍ اشتريتُه من السوق، كان صعبًا أن أجد جبنًا بجودةٍ عاليةٍ لكنّي فعلتُ ذلك في النهاية، وقد اشتريت الخضار التي سأستخدمها للصلصة. أستخدم نوعًا معيّنًا من الصلصلة للبيتزا المنزليّة، هي مزيج من الطماطم، الثوم، الحبق والزعتر وزيت الزيتون بنسبٍ متفاوتةٍ. تركتُ زينب مع صديقتها الجديدة لتشتري فستانًا شبيهًا بالذي تلبسه سارة، طبختُ الصلصة وعجنتُ البيتزا حتّى تكون شبه جاهزةٍ للسهرة. في العادة أحبّ أن يكون عجين البيتزا جاهزًا قبل ذلك بيومٍ، أنا أضيف ثلثيْن من الماء نسبة إلى وزن الدقيق –الدقيق هو المكون المعياري الذي تقيس به كمية بقية المكوّنات-. فضّلتُ هذه المرّة أن أجعل العجين يحملُ من الماء نسبةً أقلّ– سيكون من الصعب التعامل مع عجينٍ بنسبة ماءٍ عاليةٍ وهو لم يخمر إلّا لبضع ساعاتٍ، وإيّاك ثمّ إيّاك استخدام «البيكنق بودر» هذه نصيحتي لك إذا شاء القدر وصنعت شرائح البيتزا يومًا مّا-، بعد أن عجنتُها عرفتُ أنّه يمكنني أن أستريح قليلًا وأنام.

دخلتُ غرفة النوم، كان ذلك أوّل لقاءٍ لي بخزّانات الملابس المدفونة في الجِدار. تأمّلتُ الخشب الأبيض ونجمة داود منقوشةٌ داخله باللون الأزرق السماويّ. شعرتُ بالخوف، كأنّني محاصرٌ من الموساد، إلّا أنّ خوفي سرعان ما تبدّد عندما ألقيت نظري نحو النافذة الواسعة. كانت في تركيبها تشبه نوافذنا. فالبرسيان الخشبيّ الأزرق يذكّرني ببيوت بئر حسين، والجزء الزجاجيّ المطليّ بالأبيض، كلّ ذلك يشبه في تركيبه نوافذنا، إلّا أنّ اختلاط الألوان كان أكثر جمالًا. كانت نوافذنا صغيرةً بألوانٍ بُنّيّةٍ قاتمةٍ مضافًا إليها جزءٌ حديديٌّ يمنعُ السرّاق من دخول البيت، ثمّ إنّها كانت أعلى قليلًا من هذه النافذة، التي يمكنك الجلوس عليها براحةٍ. شعرتُ دومًا أنّني سجينٌ في بيوتنا، ولم أفهم كيف يمكن لبلدٍ مطمئنٍّ وآمنٍ كبلدنا في عهدِ القائد أن يتسلّح الناس فيه بالأسوار العالية، التي تعلوها زجاجاتٌ مكسورةٌ كأنّنا في معسكرٍ أو سجنٍ، وبنوافذ صغيرةٍ ومسيّجةٍ بالقضبان الحديديّة. لم يأتِني هذا الشعور وأنا في مبيت السي بينيامين. كنتُ مليئًا بحواسّي، شاعرًا بالراحة النفسيّة داخل المبيت رغم صغره. سمعتُ أمواج البحر وهي تتلاطم على الشاطئ، زاد سروري، اقتربتُ من النافذة، لم يكن هناك سورٌ عالٍ يحجب رؤيتي عن خارج البيت، «ما كان لي أن أتلذّذ بمنظرٍ كهذا لو كنتُ في فندقٍ»، قلتُ لنفسي. كان السور الأبيض الصغير يجاور نباتات الوذيّنة. في كلّ زاويةٍ من زواياه نخلةٌ، البيت بأكمله أشبه بمعبدٍ على الشاطئ. كان يمكنني رؤية الشاطئ بصعوبةٍ نظرًا إلى وجود غابةٍ من نباتات الوذينة المشتبكة في سورٍ طويلٍ ينتهي عند التقائه بالشاطئ صانعًا الطريق. كان للسي بنيامين ذوقٌ فنّيٌّ رائعٌ، فقد أضاف سدّةً خشبيّةً على طولِ

الطريق يمكن للنباتات أن تتسلّقها لتضيف ظلًّا هانئًا إلى الشاطئ. سقطتُ بجسدي على السرير تحت النافذة بعد أن تلذّذت بالمنظرِ.

مرّ بي حلمٌ ممزوجٌ بطعم الذاكرة، حلمت أنّني صحبة أبي على الشاطئ، كنّا في غوط الرمّان، أبي أحبّ البحر كحبّه للخبز. نخرج عند الفجر في البيجو، يقلّنا أنا وأخواتي، وأحيانًا أبناء الجيران. لم أكن قد تعلّمت العوم بعد، بل إنّني كنتُ أخاف البحر. في الحُلم (أو في ذلك اليوم) اصطحبنا كلًّا من الصادق وأخته الصغرى زينب -لا أتذكّر أنّني ذهبت إلى البحر يومًا مع زينب-، إلى شاطئٍ سريٍّ في غوط الرمّان، لا يأتيه كثيرٌ من الناس، إمّا لعدم معرفتهم به، أو لأنّهم فضّلوا العوم في السندباد، أو في قرى تاجوراء القريبة. دخلنا غابةً من أشجار البلّوط والصنوبر، وخرجنا نجري نبحث عن البحر. ابتسم أبي من الخلف ينتظرُ منّا أن نحلّ اللغز، وهو متّكئٌ بمرفقيه على هيكل البيجو. اقتربنا من الجُرف وأُصبنا بخيبةِ أملٍ. أمكننا رؤية الشاطئ تحتنا. لم يكن هناك أحدٌ من المصطافين فيه. لا مصيف ولا هم يحزنون. نظرنا إلى أبي نتساءل كيف يمكننا أن ننزل إلى الشاطئ. أخرج بطّيخًا من السيّارة، وتقدّم نحونا، قال لنا: «اقفزوا هاهاهاهاهاها». كنّا مجموعةً من الأطفال، ولم نستوعب النكتة بعدُ. نظرنا بعبوسٍ نحوه، فقال لنا متحدّيًا: «لا بحر لكم اليوم، سنأكل البطّيخ هنا عند الجرف ثمّ نعود». وبعد ذلك حمل أسماء وطلب منّا أن نلحقه. نزل بهدوءٍ من منحدرٍ صنعته أرجلٌ بشريّةٌ بين الأحراش والنباتات البحريّة، نبات بزهور بيضاء كان ينتشر في المكان. لم أعرف حتّى اليوم ما هو. أحببت وجوده في المكان، كأنّه يطمئننا أنّه يمكننا النزول. وبعد دقائق من المشي في المنحدر وصلنا إلى الجنّة. قال أبي وهو ينتظر منّا أن ننزل: «هيّا، لقد بلغنا الجنّة»، لكنّه لم يعلم أنّني كنت ألاقي مشقّةً في النزول. كنتُ خائفًا من أن أنزلق وأصيب كاحلي الذي ما يزال يحمل آثار إصاباتٍ قديمةٍ بسبب الانزلاق، ولم أشأ أن يكون اليوم أحدها. كانت زينب خلفي في المؤخّرة. لم يتبقّ سوانا، ونحن في منحدرٍ يشبه الدرج، علوّه مترٌ. كانت هي في الخامسة، ولا يزال يتملّكها شيءٌ من خوف الأطفال الصغار. نظرتُ نحو الدرج بحذرٍ. كان عليَّ أن أقفز، فعلتها. حمدت الله على ذلك، نظرتُ إلى زينب، التي وقفت متجمّدةً هناك مرتديةً مايوهها الأصفر. هي تخاف المرتفعات، وهذا الدرج الحجريّ أشبه بمرتفعٍ بالنسبة إليها. رفعتُ يدي نحوها، حتّى أساعدها على القفز، فعلت ذلك. نزلنا ما تبقّى من المنحدر، الذي صار سهلًا، وهي ممسكةٌ بإصبعي الخنصر، ولحقنا بالباقين الذين بدؤوا في العوم. وضع أبي البطّيخة على الشاطئ وردمها هو وأخواتي بالرمل حتّى لا يجرفها الماء. أسرعتُ قافزًا في المياه على الشاطئ، أشاهدُ أبي الذي نزع قميصه. بدا شعر صدره كغابةٍ كثيفةٍ تحمي بشرته الحِنّائيّة. دخل البحر بعد أن اطمأنّ على وضعِ أسماء وبقيّة الفتيات. توغّل في عمق البحر وظلّ يسبحُ بلا توقّف، حتّى لم يعد بإمكاننا رؤيته بسهولة. تشوّش حلمي قليلًا، كنتُ مليئًا بالتراب، أمنّي النفس لو أمكنني العوم

مثل أبي، حتّى تلك المسافة البعيدة، لكن كنت خائفًا من البحر في الوقت ذاته. الصادق يضحكُ من جُبني، وهو يسبح حتّى يصل مستوى الماء إلى رقبته: «تعال لا تكن مثل البنات»، قال لي. كان يمكنني رؤية رأسه إلى أن اختفى، «صادق» ناديت، سمعتُ قصصًا عن الغرق في البحر، ولم أرد أن أشهد أحدها. اختفى ثواني في الماء، حتّى خرج عاليًا يحمله أبي. كان الصادق يضحك بينما يقف على كتفي أبي. أردتُ ذلك: «ميلاد، إذا لم تأتِ سأغرقك»، قال أبي. قفز الصادق، ثمّ سبح أبي باتّجاهي. أردت الخروج من البحر، لكنّ وجود زينب الجالسة على الشاطئ بجانبي جعلني في موقفٍ محرجٍ، لم أرد لفتاةٍ غريبةٍ عنّي أن تضحك منّي. اقترب أبي. تبوّلت على نفسي في الماء. حملني معه وهو يدخل البحر. كنتُ أبكي محاولًا الهرب منه. قال وهو يحملني على كتفه: «اسمع يا ولد، إذا كنتَ تخشى الغرق فستفعل ذلك، وإن لم تتعلّم السباحة، فلن تكون شجاعًا أبدًا لتمضي في الحياة قدمًا». في طفولتي لم أفكّر بما حاول أبي نحته في مخيّلتي من وجه التشابه بين السباحة والحياة، لكن عندما كبرت عرفتُ ما كان يقصده. أدخلني معه إلى عمق البحر. أنا أسبح على كتفه، وهو يغطس أحيانًا، ليجعلني أتذوّق ملح البحر، «إذا شارفت على فقدان التنفّس ربّت على كتفي حتّى أصعد»، كان يقول لي قبل أن يغطس. يتأخّر وهو يسبح بي إلى الداخل. أربّت على كتفه فلا يصعد إلى أعلى. كان يحاول تحدّي خوفي من الغرق، وعندما أفقد الأمل يصعد إلى أعلى. أحاول التقاط أنفاسي. وصلنا إلى مكانٍ رأيتُ فيه أجساد أخواتي والصادق وزينب كالأقزام في الأفق، «الآن سأتركك» قال لي، «وعليك اللحاق بي إلى الشاطئ».

- ميلاد، ميلاد... انظر ماذا اشتريت.

أيقظتني زينب من حُلمي حاملةً معها بيكيني، حاولتُ أن أستوعب المشهد أمامي وزوجتي تحملُ صدريّة السباحة، مرتديةً فستانها الجديد. ما تزال رائحة البحر المالحة تطارد أنفي. فكّرت في ما إذا كانت الرائحة حقيقيّةً أم مجرّد مخلّفاتٍ من حُلمي. تفحّصتها بعينيَّ. كانت تحمل بيكيني أصفر عليه صور بطّيخٍ، «هل أكلنا البطّيخ في الحُلم؟» سألتُ نفسي. كانت تنظر إلى الملابس بفرحٍ. وضعت البكيني جانبًا، ثمّ قالت: «انظر، الفستان، إنّه يليق بي أليس كذلك؟»، كان عليّ أن أدخّن سيجارةً، لأتمكّن من معالجة الواقع الذي أمامي، وأتبيّن أنّه ليس بقيّةً من حلمي.

- هل سترتدين البكيني؟

- نعم، أخبرتني سارة أنّ الشاطئ الذي يطلُّ عليه بيتهم خاصّ، ولا يأتيه أحد.

- لا أعلم، أعتقد أنّنا قد نخاطر بذلك. أشعلتُ سيجارتي.

- كيف؟

- لستُ مرتاحًا لفكرة البكيني، إنّنا مسلمون في نهاية الأمر، ألا يمكنكِ أن تسبحي بملابس أكثر احترامًا؟ قلتُ نافخًا الدخان باتّجاه النافذة.

- أكثر احترامًا لمن؟ قالت لي وقد ذهبت فرحتها، وحلَّ شيءٌ يشبه الغضب والاستعداد.

نعم، أعلم، لقد أخبرتك أنّ زينب كانت شبه محافظةٍ، شبه متحرّرةٍ، لكن على رسلك، فعليك في البدء معرفة من كان يربّيها فعليًّا. كان والدها قد استقال من تربية الأطفال، محمّلًا بهموم الوظيفة، ولم يكن سوى عائلٍ للبيت؛ لذا، كجميعنا، كانت أمّها مربّيتها، وبالإضافة إلى ذلك كان لعمّها التأثير الأكبر عليها، خصوصًا في عقليّتها وكيفيّة تفكيرها. من أمّها أخذت الجانب الاجتماعيّ من التربية، وبهذا كانت لا تحادث الرجال خارج نطاق العائلة. عند خروجها إلى أيّ مكانٍ في الحدود الترابيّة للبلاد، كانت تشبه أيّ فتاةٍ أخرى ملتزمةٍ بالحدود الحمراء، تلك التي يرسمها المجتمع. تمشي في الطريق باحتشامٍ، وعيناها لا تكادان تغادران الأرض. وكانت تحبّ حفلات الأعراسِ والمناسبات الاجتماعيّة والدينيّة، تغوص في تفاصيلها بأكملها وبأدقّها، تعشقُ كلّ ما تعشقه فتيات البلاد، وعندما تذهب إلى البحر صحبة أبيها والعائلة كانت تدخله بكامل ملابسها -إلّا إن كان ذلك في ساعات الفجر الأولى، إذ يسمح لها والدها بأن تسبح بلا حجاب، عندما لا يكون هناك مصطافون-، ثمّ إنّها ملتزمةٌ بمعظم التقاليد الشعبيّة، لكن، كان تفكيرها مختلفًا جدًّا. تشرّبت من عمّها المنقطع الأطفال -مثلي- وغير المتزوّج أفكارًا يمكنني القول إنّها غريبةٌ، ولم أسمع بها من قبل. فقد كان الفنّان يرى أنّ الناس ابتعدوا ابتعادًا مخيفًا عن الدين، وأنّ سلطة الرجل على المرأة ليست من الدين في شيءٍ، لكنّ الرجال خرّبوا الدينَ واستغلّوه لمصلحتهم حتّى يَأْمنوا شرّ النساء. كان من عجيب أفكاره أنّ الخمر ليس محرّمًا -هل تصدّق؟ أنا ميلاد شارب الخمر الذي أصحو بعد سكرتي، أوقن أنّه محرَّمٌ، رغم أنّي مدمنٌ عليه-، وأنّ حجاب المرأة يشبه الرجل في كثيرٍ منه، «هناك الدين الحقيقيّ وهناك دين المجتمع، والأمران مختلفان»، كنتُ أسمعها تقول لي ناقلةً أفكار عمّها. لم تكن تفوتُ زينبَ صلاةٌ واحدةٌ. وكانت مقتنعةً بأنّ كلّ ما تفعله ليس محرّمًا. لم أكن متبحّرًا في الدين حتّى أجادلها، خصوصًا عندما توجّه الدلائل كرصاصةٍ إلى كلامي. أثّر عمّها في حياتها تأثيرًا لم يكن يومًا لرجلٍ -ولا حتّى أنا-. لم ألتقِ به سوى مرّةٍ واحدةٍ في عمري. حدث ذلك في الخطوبة، عندما تحدّث معي على انفرادٍ قائلًا لي: «أعلم أنّ والدها لم يشترط عليك ذلك، ولكنّ ابنتي ستشتغل، رأيت أنّ من الواجب عليَّ إخبارك، ثمّ إنّني لن أتسامح معك إذا غصبتها يومًا على شيءٍ وإن كان تافهًا». كان رغم روحه الحسّاسة ككلّ الفنّانين إلّا أنّ به شيئًا من ملامح المشكلجي، ابن

بلدٍ حقيقيٍّ، يمكنه أن يتحوّل إلى وحشٍ إذا استدعى الأمر ذلك. أخافتني النظرات التي كان يبادلني إيّاها، فكنتُ حذرًا في النقاش معها.

لم يدم نقاشنا حول البكيني سوى دقائق، كادت أن تبكي عندما عرفت موقفي من الأمر، فكّرت أنّني سأسعد عندما أراها ترتدي ملابس البطّيخ تلك، ولا أخفي عنك أنّني كنتُ سأكون على شيءٍ من السعادة، فليس هناك أجمل من أن يسبح المرء مع امرأةٍ حرّةٍ، ولكن كنتُ متوتّرًا من فكرة أن يرى رجلٌ آخر حتّى إن لم يكن ليبيًّا جسدَ زوجتي. ارتمت على السرير تبكي حظّها العاثر، وأنّها تزوّجت رجلًا يشبه بقيّة (المتخلّفين) في بلادها. تحوّلت من كائنٍ وديعٍ إلى بركانٍ غاضبٍ يصرخُ في وجهي بأنّني كذبتُ عليها وخدعتها. كنتُ أنظر إلى نفسي في مرآة الغرفة متسائلًا عمّا إذا كنت قد قطعت لها وعدًا بأن ترتدي البكيني، فلم أجده، لم نتناقش يومًا في ذلك. كان كلٌّ منّا يرى صورةً من الآخر يفضّلها. ومع عنفوان الحُبّ تختفي كلّ تلك التفاصيل الصغيرة كارتداء البكيني على شاطئ البحر، تدخين السجائر، عدد الأطفال الذين سننجبهم، ما إذا كنتُ مستعدًّا لأخبرها أنّني سكّير أم لا، وما إذا كنتُ سأسمح لها بشرب النبيذ أم لا، هل كانت هي من سيعتني بالمنزل أم أنا الذي سأجد نفسي غارقًا في بحرِ ملابس لها ترميها في كلّ مكانٍ، أمور أرى الآن أنّ على كلّ زوجيْن أن يفكّرا فيها جيّدًا، وألّا يستحيا من النقاش فيها، إذا أردت أخذ رأيي في ذلك. ولأنّ قلبي مرهفٌ، ولأنّني كنتُ أتساءل دومًا: لمَ على أخواتي أن يرتدين ملابسهنّ كلّها وهنّ يسبحن؟ -بعد أن رأيتهنّ في طفولتهنّ يسبحن بالمايوه قبل أن تصير الجُبّة فجأةً لباس البحر لهنّ-، خفتُ من أن يكون هذا العراك نهاية زواجنا، أن نعود إلى ليبيا في اليوم ذاته وأنا أخبر عائلتي أنّي طلّقتُ زينب، بعد شهورٍ طويلةٍ سبحتُ فيها متخيّلًا حياتنا معًا بكامل تفاصيلها.

- لا بأس يا زينب، يمكنكِ السباحة بالبكيني، ولكن بشرط. قلتُ لها.

- ما هو؟ قالت باكيةً.

- ألّا يكون هناك ليبيّ في المكان، ما تزال الخطّيفة مصبوغةً في يديكِ ولا أريدُ لأحد من البلاد أن يتعرّف علينا.

- كيف ستعرف ذلك؟

- يمكنني أن أعرفهم، الدم يجذب.

وبعد أن خرجتُ إلى الشاطئ لأطمئنّ أن لا أحد يمكنُ أن يكون في المكان، عدتُ إليها، كانت ترتدي البكيني حوله روب بتفاصيل تونسيّةٍ، اشترته من السوق. بدت جميلةً. صرّتها وحبّة الخال بجانبها. بطنها اللذيذ الذي قبّلته أكثر من مرّةٍ، الصدريّة تزيد من فتنةِ نهديْها. صور البطّيخ تثير صورتها الطفوليّة في رأسي. تحرّك ميلاد الصغير قليلًا موافقًا إيّاي على جمال المرأة التي أمامي. كانت الخطّيفة رمز «الفضيحة» تزيد من فتنتها أمامي. سبقتها في الخروج من البيت، بحثتُ عن بنيامين، وبعد أن تأكّدتُ من أنّه ليس في المكان، طلبت منها أن تسرع. لم تكن تدري أنّني مازلتُ مقتنعًا بأنّني لا أريد لأيّ رجلٍ أن يرى جسدها شبه العاري، حتّى لو كان عجوزًا يهوديًّا لا تربطنا به علاقةٌ، وقد يكون الغد آخر يومٍ نراه فيه. نزلنا إلى الشاطئ متّخذَين طريق الوذينة. تساءلتُ، ونحن نتحرّك تحتها، عمّا إذا كان بإمكاني أن أزرعها بالطريقة ذاتها في بيتنا -لقد فعلتُ ذلك، وإلّا لما كنّا الآن جالسَيْن تحت ظلّها في الحديقة-. وصلنا إلى الشاطئ، وبدأنا نسبحُ على الفور.

- لا أعرف السباحة. قالت لي وقد خلعت عنها الروب.

- الأمر سهل، تعالَي معي.

قلتُ، وأنا أسحبها إلى حيث يصل مستوى البحر عنقَها ويغطّي جسدها – هل فعلتُ ذلك لأنّني كنتُ متشكّكًا في جدوى السباحة بالبكيني أم لا؟ لا أعلم-، لعبنا قليلًا، نثرنا الماء على جسدَينا، حملتُها بين يديّ وقذفتها إلى صفحة الماء. حاولت أن تغرقني إلّا أنّ جسدها الصغير لم يساعدها في ذلك، حضنتها وأردتُ سحبها أكثر إلى الداخل، كانت تستنجدُ بأبٍ خياليٍّ على الشاطئ خائفةً منّي. كنتُ أحيانًا ألعب معها ألعابًا ثقيلةً كهذه، لأرى ما إذا كنت أحمل بعدُ أيّ رغبةٍ عنيفةٍ في ذاتي، أحيانًا كنتُ أمسك بخناقها، بينما تضحك هي وتحاول إبعادي عن قتلها خنقًا كبطلات الأفلام، انتبهتُ عندما أصبح صياحها أقرب إلى الحقيقة منه إلى اللعب، «أعتذر، تحمّست»، «كفانا لعبًا رجاءً، ولتعلّمني السباحة»، قفزتُ على ظهري، وتركت صفحة الماء ترفعني عاليًا، قلتُ لها مناديًا: «ارخي روحك، تعومي»، لم تكن زينب من أولئك الذين قد يتركون أنفسهم للتيّار يسحبهم كيفما شاء، كانت تُقاوم تيّار البحر، تمامًا مثلما تُقاوم تيّار الحياة. «لا أستطيع»، قالت، «حسنًا، ستغرقين إذَن»، «كيف؟»، «إذا كنتِ تخافين من الغرق، ستغرقين، وإن لم تتعلّمي السباحة، لن تكوني شجاعةً أبدًا حتّى تمضي في الحياة»، قلتُ مكرّرًا كلمات أبي، تذكّرتُ حلمي مجدّدًا، «من قال لك ذلك؟»، «أبي قال ذلك، على الأقلّ أظنّ أنّه فعل».

- ماذا تقصد؟ قالت وهي تحاول تقليد حركاتي وأنا مستلقٍ على ظهري.

- قبل أن توقظيني، حلمتُ بأبي على البحر.

وقصصت لها حُلمي، بدت متحمّسةً له. ذكرتُ لها أنّني في الحُلم حملتها ونحن في المنحدر حتّى تنزل، «هل أنت متأكّد؟»، قالت لي، طبعًا أنا متأكّد، لكنّها اعترضت على كلامي. قالت لي إنّها لا تتذكّر مطلقًا أنّها ذهبت يومًا إلى البحرِ معنا. نعم تتذكّر عندما كان الصادق يهرب منها في الفجر ليذهب مع «العم مختار»، وتذكّرت أنّها تستيقظ وتجري إلى النافذة فترى البيجو قد غادرت مكان ركنها للتوّ، فتبكي أمام أبيها. تعجّبتُ من إقحامي إيّاها في الحُلم، شككتُ في رجاحة ذكرياتي، إلى هذا اليوم تراودني فكرة أنّ زينب لم توجد قطّ، وأنّ حياتي معها مجرّد خيالٍ لا يمكنني أن أتركه وشأنه. عندما أبقى وحيدًا في البيت وقتًا طويلًا، ثماني ساعاتٍ أو ما شابه، يراودني ذلك الشعور حتّى تعود هي إلى البيت، لأتمكّن من لمسها والإحساس بها. لمستُ وجهها ونحن في البحر ممازحًا حتّى أرفع الحرج عن أحلامي الغبيّة التي تورّطني «زينب، هل أنتِ موجودةٌ حقًا؟»، تضحكُ فتقول لي: «لا أنا مجرّد حلم»، ثمّ تسألني عن بقيّةِ حُلمي أو ذكراي مع أبي.

- هل غرقت بعد أن تركك؟

- أتذكّر أنّني غرقتُ في البداية، فكان يعود إلى رفعي على كتفه ثمّ يفلتني قائلًا: «ارخي روحك تعوم»، لم أفهم في البدء ماذا يقصد، ثمّ قال لي: «سلّم نفسك للبحر كأنّك تسلّمها لسرير، ستطفو»، فعلتُ ذلك، «الآن حرّك يديك وقدميك في اتّجاهات مختلفة، جدّف، كما أفعل أنا». أخطأت محاولاتي الأولى حتّى نجحت. «انظر أنا أعوم»، ابتسم أبي ثمّ قال لي: «الحقني إذَن».

- والبطّيخة؟

- أيّ بطّيخة؟

- البطيخة التي كان أبوك يحملها مع أسماء، هل أكلناها؟

- في الحُلم؟

- نعم.

- لا أعرف، لقد أيقظتِني بصدريّة البطيخ هذه.

وأدخلتُ يدي في صدريّة البطيخ، حتّى أقطف حبّتَيْ التوت. كان خلوّ البحر من الناس وقرب غروب الشمس يغريني بلمسها في أماكنها اللذيذة. تبادلنا القُبل تحت الغروب. عندما لاحظت غروب الشمس قالت لي: «ها، حقّقتُ هدفًا مّا في لائحتي». لم أكن أعلم بوجود اللّائحة قبل ذلك، إلّا أنّ لزينب لائحةً بالأشياء التي أرادت تحقيقها قبل أن تموت، منها نشر كتابها عن عمّها ولوحاته، تقبيل الشخص المناسب في البحر تحت غروب الشمس، السفر إلى إيطاليا، وأن يكون لها أطفالٌ يضجّون حياةً. «هل لك أهداف تريد تحقيقها؟»، «أنا؟ لم أفكّر في الأمر مسبقًا». لم أجد الكلمات المناسبة لذلك، لقد تربّيت في بيئةٍ لا تحلم، ولا تشجّع على الحلم، ربّما الهدف الوحيد الذي أردت تحقيقه هو أن أخبز أكبر قدرٍ من أشكال الخبز. لكنّني سعدتُ بأن أكون الشخص المناسب، الذي حقّقت معه أحد أهدافها.

(٥)

آففف، أرجو منك المعذرة، فكلّما تذكّرت تلك الأيّام انساب دمعي بلا إرادةٍ منّي. سهرة تلك الليلة مع بنيامين وعائلته، وإعجابهم بالبيتزا التي أعددتها، ورقصُنا معًا على أنغام الموسيقى... الآن، أنا مستعدّ لأقصّ عليك بقيّة ما حدث أيّام الرفقة. أحتاج إلى مزيدٍ من الشاي، وأنت؟ لديّ مربّى مشمش أعددته في المنزل، ما رأيك؟ مع البعض من البشماط الذي أخزّنه، والقليل من الزُبدة، سيراودك حبّ تذوّقها، قطفتُ المشمش بنفسي من مزرعة عمّي، كنتُ أتلذّذ بقطف الفواكه منها، انتقامًا لما فعله بي.

حسنًا، أين كنّا؟ آه، لم أنم طيلة اليوم بسبب ما حدث. ولكن في اليوم التالي، خرجتُ مسرعًا إلى الظهرة باحثًا عنها في الأماكن التي اعتدنا أن نذرعها. كانت الأورورا رغم زحمة الروّاد موحشةً وكئيبةً. الحديقة صارت أكثر قذارةً واتّساخًا تحتلّها الجرذان. تمثال الغزالة بدا قبيحًا وموغلًا في تحدّي روحي، وطيف زينب لا يمشي بجانبه ويداها تغطسان في مياهه. بحثتُ عنها كالمجنون في كلّ مكانٍ، لأعتذر منها عمّا فعلته بها، في المكتبات التي تزورها، مكتبة المعارف، مكتبة المختار، مكتبة الفِرجاني ومكتبات شارع الوادي. كانت كلّها مجرّد دكاكين ملأها الغُبار وخيوط العناكب والعجزة، ولا وجود لزينب فيها لتربّت على الكُتب الوحيدة. اختفت روائح العطور والبخور والسجّاد والأقمشة والبقوليّات والنُحاس من سوق المشير وسوق القزدارة وسوق الرباع، وأصبحت القلعة مجرّد جانّ عملاقٍ جاثمٍ على صدرِ المدينة. انتزع اختفاؤها من كلّ تلك الأمكنة الجمالَ الذي تضفيه عليها. لم تعد الظهرة والكاتدرائيّة تلك الظهرة التي عرفت. أمضيتُ ساعات يومي الأولى أبحث عنها، متجاهلًا دوام عملي في البيتزاريا. كان الخلاف بيني وبين عَرفي، على كلّ حالٍ،

يزداد بسبب ما لاحظه من «تغيّر» في شخصي. لمّا أصابني الإعياء، جلستُ في نافورة الظهرة ألتقطُ أنفاسي، اشتريتُ كوب قهوة وجلستُ أمام قصر الشعب أدخّن سجائري وأفكّر في مصيرِ زينب. تركني المنطق منذ حادثة الأمس، ولم أعد أفكّر جيّدًا، ثمّ إنّ استيقاظي طيلة الليل زاد من تشوّش بصيرتي. رحتُ أخمّنُ ما تمرّ به هي. وضعتُ كلّ السيناريوهات أمامي. أن تكون قد اختفت في شوارع المدينة، طردها الرجال الغلاظ ولربّما تكون وصلت إلى مزارع بئر الأسطى ميلاد بحثًا عنّي فيها. لا شكّ أنّ التعب أنهكها ومزّق حذاءها الأحمر، فصارت تجري في المزارع يصيبها النجم الشوكيّ حتّى يدميها. لا شكّ أنّها تعيش ضائعةً وخائفة بحثًا عن ميلادها بلا فائدةٍ. قد تكون ارتطمت بسيّارةٍ عند صعودها إلى الظهرة الفوقيّة وهي الآن نزيلةٌ بمستشفى الحوادث فاقدة الذاكرة، أو لعلّها عادت بالفعل إلى البيت فاكتشف الصادق بكاءها وأرغمها على أن تحكي له ما حدث، وهو الآن يذرع الشوارع نفسها التي ذرعتها بحثًا عنّي ليلقّنني درسًا لن أنساه عن الرجولة، وكيف أنّ بنات الناس لسن لُعبًا، أو قد تكون عادت إلى البيت بخطًى غاضبةٍ ولكن ثابتةٍ عازمةً على ألّا تحدّثني بعد ذلك. أنهيتُ سيجارتي الثانية والثالثة والسادسة وأنا أمتصّ روحي مرهقًا من التعب والتفكير. زاد رعب شمس الظهيرة من إخفاقي في البحث عن الراحة. إلّا أنّي، وفي خضمّ صراع الشمس مع الغيوم، نمتُ كالمتشرّدين على النافورة، أنصتُ لمنبّهات السيّارات، وصياح شرطة المرور وثقل زقزقة العصافير. لكنّني نمت. كنتُ مجهَدًا حتّى إنّني حلمتُ حُلمًا عجيبًا. رأيتُنا في الحديقة مرّةً أخرى، كنّا قد عدنا للتوّ من البيتزاريا مخمورَيْن بالحبّ كما فعلنا البارحة. عادت مجموعة من الرجال ليقفوا أمامنا، ولكن هذه المرّة قبل أن يكونوا ممسوحي الوجوه، تمكّنتُ من تبيّن وجوههم، رأيتُ أبي والمادونّا والصادق والعبسي وعمّي محمّد وحتّى عَرْفي. تحلّقوا حولنا، وبدأ أبي الحديث: «ما الذي فعلته بزينب يا ميلاد؟ هل هذا صنيع رجال؟»، «ميلاد مختار الأسطى، كم مرّةً قلتُ لك لا للحبّ في المعسكر؟»، صاح المادونّا، «هل أتحصّل على قبلةٍ منها كما فعلت يا ميلّو»، يقول العبسي، «في البيتزاريا يا ميلاد؟» يقول لي عَرْفي، فيزداد توتّري وأعوم في عرقي. مع كلّ كلمةٍ يختفي جزءٌ من زينب كأنّ عاري يأخذها بعيدًا عنّي. الوجوه تزداد ضخامة، «أختي يا ميلاد؟ كنتُ أعرف أنّك راودتها عن نفسها منذُ أوّل يومٍ لها في المدرسة، سرقتها كما فعل والدك بالكوشة»، يقول لي الصادق. أحاول التشبّث بزينب والاحتماء بها قبل أن تختفي. الوجوه تكرّر كلماتها وتقتلني ببطءٍ. اختفى جسد زينب ولم يبق إلّا وجهها. قالت لي قبل أن تختفي: «أنت لست رجلًا». ازدادت حرارتي ورُعبي.

- ميلاد، ما الذي تفعله هُنا؟

جاءني الصوت كلحنٍ يرقّصني. استيقظت عرقان. حاولتُ تبيّن الجسد الذي أيقظني من تحت أشعّة الشمس القويّة، تمكّنتُ من رؤية زينب تتّضح وسط الأشعة.

- زينب.

- لقد قلقتُ عليك، بحثتُ عنك في كلّ مكانٍ، في البيتزاريا وفي الكورنيش ولم أجدك، كنتُ عائدةً إلى موقف الحافلات عندما وجدتك مرميًّا هنا في طريقي، انظر إلى نفسك، تبدو في حالة سيّئةٍ، هل ضربوك؟

خريطة وجهي مملوءةٌ بالكدمات، ملابسي ممزّقة ولم أتمكّن من نزعها منذ أمس، كنتُ أبدو حقًّا كمتشرّدٍ، لذلك لم يتحدّث أحدٌ معي طيلة الوقت، ولم يحاول إنسانٌ إيقاظي في مغبّة القيلولة. أرادت احتضاني، عرفتُ ذلك من ملامحها القلقة. اقتربت وجلست إلى جانبي. حلّ علينا صمتٌ قميءٌ لم يحدث منذ الأيّام الأولى للرفقة. ورغم سعادتي بأنّ خيالاتي التي نسجتها خابت جميعها، كنتُ أحتقر نفسي. أردت الهروب منها هذه المرّة. أبعدتُ وجهي حتّى لا ترى حالتي الرثّة، وبحثتُ عن شيءٍ أعلّق نظري به. بحثتُ في زحمة السيّارات في الطريق، كانت هي في مقابل ذلك تشاهد أشجار حديقة قصر الشعب، واضعةً يديها على فخذيها، تنتظرُ منّي أن أتحدّث. وعندما يئست منّي، نطقت.

- أتعلم؟ بالأمس أسرعتُ إلى مركز الشرطة بالقرب من الحديقة. أخبرتهم أنّ هناك مجموعةً من الشباب يضربونك. قلقتُ عليك. وقفتُ هناك أراقب الشرطيّ وهو يطردهم، أردتُ أن أعود إليك حتّى أطمئنّ بنفسي عن حالتك إلّا أنّ شيئًا مّا أوقفني، خفتُ أن تهرب منّي.

- أهرب منك؟

- أنت تعرف، بعد كلّ الذي حصل، وبعد تلقّي الضربات، خمّنتُ أنّك لا تريد أن ترى وجهي أبدًا.

- أريدُ أن أرى وجهكِ دائمًا.

- ....

- أنا آسف، لقد خذلتكِ.

- لماذا تأسف؟

- لأنّني لم أكن رجلًا، اكتفيتُ بأن أكون أنا.

- لم أهتمّ يومًا للرجال الأقوياء، أحببتك لأنّك أنت، حنون ولطيفٌ ولأنّك تعدّ لي البيتزا وتنصتُ لكلّ ما أقوله ولأنّك تحترمني، لا يهمّ إذا كنتُ قويًّا وقادرًا على اللكم والضرب والركل، كما لا يهمّ إن كنتَ شجاعًا كفاية للقتل من أجلي، ما يهمّ... أنّني عندما أمسك إصبعك الأصغر، أشعر بالسكينة.

إذَن لقد زالت متاعبي. هذا الحدث هو الوحيد الذي جعلني واثقًا من نفسي متسامحًا معها. كلماتها وهي تنساب عبر أذنيَّ داخل نفسي المرهقة تمتصُّ الشكّ، جعلتني أنسى تعبي وألمي والحياة أجمعها، وعدتُ أرى الجمال في الأماكن المحيطة بي. أتذكّر أنّ أمّي كانت تصنعُ لي شراب الليمون والعسل والرُّب عندما أمرض، كانت هذه الكلمات بمثابة الشراب لي، لم يهمّ إذا كان الدواء غير نافعٍ بالضرورة، أو أنّه لن يشفي كلّ داءٍ. لكن في لحظته بالذات شعرتُ بالتحسّن، وبعروقي تنشط، وبدمي يتجدّد. كنتُ مستعدًّا للتسكّع في المدينة مجدّدًا كما فعلنا كلّ يومٍ ونحن نبحثُ عن زقاقٍ جديد، أو دكّانةٍ مدسوسةٍ في عتبة الزمن، عن نورسٍ يحلّق فوق الكورنيش يحمل قصّةً مّا، أو البواخر وهي تمخر البحر بعيدًا عن وطننا، نمنّي النفس أن تأخذنا معها في رحلةٍ رومانسيّة. كنتُ مستعدًّا للمضيّ قُدمًا في الحُب والحياة والقُبل، وأن أتعطّر وألبس جيّدًا. ابتسمتُ لها كطفلٍ ظَلّ وحيدًا في البيت خائفًا يُفكّر في احتمال تخلّي أمّه عنه، وعندما فتَحت الباب مُحمّلةً بالحلوى والبسكويت طار فرحًا واحتضنها. عندما أنهت زينب كلماتها، أمسكت بإصبعي، تناسينا عالمنا ومجتمعنا وأرضنا وعائلتينا.

صلح الحال كما صلح جسدي وحالي. عاد روتين الحياة، استرقنا القبلات في البيتزاريا وفي الأزقّة الخلفيّة بعيدًا عن أعينِ الناس، كنّا نلعبُ في أزقّةِ المدينة، نكتشف ممرًّا مغلقة نوافذه والزرع على شرفاته لم يُسقَ منذ زمنٍ، ولا أحد يمرّ فيه، فأسترق قبلةً سريعة منها لتجري الحياة في جسدي. نجري خارجين من الزقاق باحثين عن آخر، افتعلنا الكثير هاربَيْن من عينٍ خفيّةٍ تراقبنا، إلى أن جاءت تلك اللحظة.

- أنا مستعدّة الآن. قالت لي زينب ونحنُ في البيتزاريا.

- حقًّا؟

لم أكن مستعدًّا، فقد خفتُ من عَرْفي، فآخر ما يريد رؤيته هو فتاةٌ عاريةٌ ممدّدةٌ على مصطبةِ العمل. فكّرت في مكانٍ يمكننا أن نفعلها فيه، حيث لا عين تراقبنا. خطرت ببالي مزرعة عمّي، سأضرب عصفورَيْن بحجرٍ واحدٍ: ألتحم بحبيبتي، وأوقع به انتقامي النهائيّ. فكّرتُ بأنّ علينا فعل ذلك في الصباح الباكر. العمّ يذهب إلى مزرعته في العشيّ. كان عليَّ أن أحدّث العبسي عن رغبتي في «كراءِ» الغرفة أوّلًا، ولكن ماذا كنتُ سأقول له؟ وهل سيرغبُ في مصاحبتي. «خدّوجة» قلتُ، سأخبره أنّني استأجرتها لساعةٍ حتّى ألقّنها درسًا جيّدًا في فنون الجنس، «ولكن إذا أراد أن يصحبني ليلقّنها هو أيضًا الدرس؟»، «عبسي، خدّوجة أخبرتني أنّها تريدني أنا فقط»، لا، لا...ليس هكذا، «عبسي، إنّها تريد أن تدفع لي مقابل خدمتي لها»، لا هذه كذبةٌ لا تصدَّق، «أريد أن أتعلّم شيئًا جديدًا»، نعم هذه كذبةٌ يمكن تصديقها ولكن تحتاج إلى إضافاتٍ «أرجوك، لا تخبر عبسي بذلك، فهو زبوني المفضّل، ولا أريده أن يعرف أنّني فعلتها معك وحدك»، إنّه جميل تصنعه هي لي، سأخون ثقة أبي ووصيّته، ولكن من أجل الصالح العامّ. إذَن هذه كذبةٌ متكاملةٌ تعزّز ثقته بنفسه، وتجعلني وحيدًا معها دون أن أخشى رغبة العبسي في اللحاق بنا، «الصباح الباكر، نعم... لديها زبائن كثرٌ في ذلك اليوم، وقد دبّرت لي الأمر من قوّادها بالواسطة، سيكون الأمر سريعًا». قلتُ لنفسي وأنا أتخيّل مشهد أخذي مفتاحَ المزرعة وموافقة العبسي.

- هل سنفعلها هنا؟ قلتُ لها وهي تقبّلني.

- نعم، ما المشكلة لا أحد هنا. قالت لي.

- لا لا، الأمر خطر هنا، ثمّ إنّي أريد أن نكون مرتاحيْن، ما رأيك في مزرعة عمّي؟

- كعاهرة؟

- لا لا بالطبع، ولكنّني أخاف عليكِ.

- امممممم.

- ثمّ إنّني لا أريد لصورة عَرْفي أن تراقبني. قلتُ مشيرًا إلى صورةٍ قديمةٍ لِعَرْفي على الحائط.

وجاء ذلك الصباح. عند الساعة السابعة والنصف، موعد ذهابها إلى الجامعة، ركنتُ البيجو في موقفٍ بعيدًا عن الشارع والأعين المراقبة. خرجتُ من السيّارة أبحث في المكان. الحياة لم تُبَثّ بعد فيه، بضع سيّارات لمواطنين شرفاء يحبّون أعمالهم، وأطفال مدارس ينجرّون نحو الدوام

المدرسيّ. أشعلتُ سيجارةً وبحثتُ في نوافذ المباني المقابلة، لم تفتح بعدُ، سرَّني أنّي أعيش ضمن شعبٍ كسول في العموم، اقتربت منّي ترتدي الفرّاشية البيضاء تظهر منها عينٌ واحدة، لا شكّ أنّها سرقتها من أمّها، عرفتُ أنّها تحاول أن تخفي نفسها عن الجيران الذين قد يرونها في الطريق. ابتعدتُ عن السيّارة قرب جزيرة الدوران تاركًا الباب مفتوحًا. أردت أن أُسرع في حَضنها لنجاحها في الخروج، لكن كنتُ أتّبع خطّةً محكمةً وضعناها معًا، أن تركب هي السيّارة، ترتمي راقدةً في الكرسيّ الخلفيّ دقائق قبل أن أعود أنا متأكّدًا من أنّي لا ألفت الأنظار. أسرعتُ إلى السيّارة، كان المحرّك شغّالًا ولم يكن عليَّ سوى البدء بسرعةٍ في الحركة. فعلتُ ذلك، وانطلقنا في رحلتنا عبر الطريق. هي لا تزال راقدة يمكنني النظر إلى جسدها في المرآة، وأنا أقود كأيّ مواطنٍ شريفٍ ذاهبٍ إلى عمله، محاولًا ألّا أظهر قلقي للسائقين من الخلف. عندما اجتزنا طريق الجامعة اطمأنّت للجلوس. نظرتُ إليها مبتسمًا، «صباح الخير»، كانت خجولةً، قالت بهدوءٍ «صباح النور». وضعت الفراشية على كتفها وأخرجت علبة المكياج لتزيّن وجهها. «لا داعي إلى ذلك»، قلتُ لها. «أنتِ لستِ عاهرة»، متذكّرًا خدّوجة. وضعت علبة المكياج، «أحمر الشفاه فقط إذَن»، قالت لي. كانت أمامنا ساعةٌ أو ما شابه لننهي المسألة.

- الله، أريد أن أعيش بقيّة حياتي هُنا.

وصلنا إلى مزرعة العمّ. لم أفكّر يومًا في جمالها قبل أن تذكّرني هي بذلك. كانت مزرعة الحاج محمّد الأسطى قطعةً من الجنّة، تبدأ بطريقٍ ترابيّةٍ تظلّلها أشجار الصنوبر يمنةً ويسرةً، وتنتهي في اتّساعها بأرضٍ كبيرةٍ. في كلّ قطعةٍ منها نوعٌ من الأشجار، برتقال، أشجار توت في كلّ مكانٍ تعمل كمظلّات وغذاء للناس والنمل والدود والعصافير، جابية كبيرة سبحنا فيها مئات المرّات، قطعة تتكاثر فيها دوالي العنب. يبدو أنّ مُزارعًا إيطاليًا أحسن زراعتها قبل ذلك بعقودٍ منتظرًا من مزرعة الخميرة أن تحوّل مذاقه إلى نبيذٍ في الجابية. أشجار لوز وخوخ ومشمش وصنوبر تحدّ كلّ قطعةٍ، التين والزيتون والرمّان والبرقوق وليمون ونخيل برُنصي يذكّرني بالمادونّا كلّما قطفتُ من ثماره، أشجار سرو يؤجّر مساحتها للنحّالين يستثمرونها، ومساحة شاسعة يزرعُ فيها القمح والشعير حتّى لا يقع فريسةً لشحّ القمح. كانت جميلةً بالفعل، ولكنّ وجود زينب فيها أفلح في أن يريني ذلك الجمال. دخلنا الاستراحة، التي اعتدتُ على وجودها في حياتي كمكانٍ أطهى فيه للعبسي ورفاقه. الاستراحة مقسّمة إلى أقسام ثلاثة، المطبخ والحمام، حاوية كان العم يستضيفُ فيها عاهراته ويفرغ فيها نزواته، غرفة وحيدة بجانب المطبخ لاجتماعات العائلة ونزوات العبسي، كلّها تطلّ على جنينة مسيّجة تتوسّطها شجرة تفّاحٍ وحيدةٌ نسيتُ وجودها في المكان من شدّة الاعتياد على تفاصيله.

- تفّاح، لم أر يومًا شجرة تفّاح.

- نسيتُ أنّها موجودة من كثرة الاعتياد عليها، هيّا جرّبيها.

قطفتُ لها تفّاحةً ناضجةً. كانت الشجرة شحيحة الولادة، وفي بعضِ المواسم لا تلدُ مطلقًا، كانت كئيبةً كأنّها أدركت أنّ هذا ليس مكانها. نظرتُ إلى الثمرة، تذكّرتُ آدم وسبب خروجه من الجنّة. لقد أخبره الله أن يعيش فيها، ولكن ألّا يقرب شجرة التفّاح (أم كانت شجرة رمّان؟) ولكنّ اشتهاء حواء لها (هل اشتهتها أم اشتهاها؟) جعله مغلوبًا على أمرِه يصعدُ الشجرة ليقطف لها التفّاحة مثلما فعلتُ في ذلك الحين، قالت لي المدام عندما قصصتُ عليها ما فكّرتُ فيه تلك اللحظة، إنّ التفّاحة كانت رمزًا للجنسِ المحرّم. فرفعتُ رأسي إلى السماء أحدّق في ما إذا كان عقابٌ مّا سيحلّ بي. أعطيتها التفّاحة، كانت طفلةً تبتسمُ لأوّل هديّةٍ تتلقّاها في حياتها. ظننتُ أنّ هذه التفاحة تزنُ عند زينب كلّ شرائح البيتزا التي صنعتُها لها. كان إصبعي الخنصر يرنّ من التوتر. أرى علامات التوتّر قد بدأت تتّضحُ على ملامحها ونحنُ نشاهدُ الغرفة في انتظارنا، سلّمتُها الإصبع حتّى أسكن بسكينتها ودخلنا المكان. الفراش ذاته الذي أغرتني فيه خدّوجة، والرائحة العطِنة ذاتها، كأيّ مكانٍ لم يُهوَّ منذ زمنٍ. فتحتُ النافذة، وتمدّدت هي في الفراش، «دعنا لا نغادر هذا المكان»، قالت لي وأنا أراقب البيجو المركونة أمام الاستراحة باحثًا عن أيّ شخصٍ في المكان ـ من حسن حظّنا أنّ العمّ قد طرد العامل النيجريّ من المزرعة-، «إذَن، علينا فعلها الآن»، قلتُ لها. «لا تفكّر كثيرًا، تعالَ إليَّ»، وضعت التفّاحة المقضومة على الطاولة المصاحبة للسرير ومدّت يدها نحوي، استيقظ ميلادي. خفتُ أن يفعلها بي مجدّدًا. سأنزعه إن فعلها. نزعتُ سروالي وارتميتُ أقبّلها، تعريّنا كآدم وحواء عندما أكلا من الثمر الحرام فانكشفت سوأتاهما لهما، وغرقنا في حضنٍ طويلٍ قبل أن نفعلها. كنتُ قد أكلت البارحة بعضًا من العسل واللوز كما وصّاني العبسي وهو يسلّمني المفتاح «حتّى تدمن خدّوجة عليك، المرّة القادمة أخبرك يا ميلّو، ستناديك هي وتدفع لك مقابل الجنس، أنا لا أنيكها بالمال منذ زمنٍ طويلٍ، وحان الآن دورك»، لذا استعدتُ ثقتي بنفسي.

بعد أن انتهينا من الجولةِ الأولى التي لم تدم سوى دقائق قليلةٍ قذفتُ فيها بعد أن ولجتُها بثوانٍ قليلةٍ، استلقينا على السرير نراقب السقف، كنتُ مستحيًا من فعلتي. لم يقدّم لي العسل واللوز شيئًا، لكنّي في الوقت ذاته كنتُ سعيدًا بهذا اللقاء، «أين الدم؟» قلتُ وأنا أنظر إلى الفراش، «ليست كلّ فتاة لديها غشاء بكارة»، قالت لي. شككتُ في الأمر. كنتُ أريد أن أسألها عن مصدرٍ معلوماتها، وكيف عرفت ذلك، قرأت الأسئلة التي تدور في وجهي، «عرفتُ ذلك من مصادر طبّيّة في إحدى الموادّ التي ندرسها بالكلّيّة»، «لم أنهِ دراستي يومًا، أقصى ما وصلتُ إليه الدراسة الثانويّة»،

«أعرف ذلك يا ميلُو»، «أنا لا أريد أن أنهي دراستي، لم أحبّ الطبّ يومًا»، قالت وهي تمسكُ بيدي، ثمّ همسَتْ «كنتُ أخشى أن تكون لي بكارة، فتنفضّ فتخاف منّي». «أخاف منك؟ أنا لا أخاف منك»، قبّلتها، مسحتُ شعرها، وحضنتها، كانت تستلقِي على صدري العاري، جسدها ملتفٌّ حولي، وغناء الهدهد في الخارج يطمئننا أن لا أحد هناك سواه، قد يذهب الهدهد إلى العمّ ويخبره بما رآه، لكن فليذهب إلى الجحيم، لن أسمح له بأن يتطاول عليَّ أكثر ممّا فعل، سأخبر ذلك اللّعين أنّ ما فعلته هو ما تبقّى من ثمن الكوشة.

- هل تريدُ أن تتزوّجني الآن، بعدما فعلناه؟ سألتني.

- طبعًا، أريدُ ذلك.

- عرفتُ أنّك لا تنظر إليّ نظرة المرء إلى عاهرة، ولهذا أحببتُ أن أمنحك نفسي.

- لا تقلقي، سنتزوّج، وعد.

أعطيتها إصبعي الخنصر المخضّب لتلعب به قبل أن نبدأ الجولة الثانية.

(٦)

- ميلُو، هل تزوّجتني لأنّك فتحتني؟

كنّا قد عدنا من سهرةٍ مع عائلة بنيامين، أخذتنا الأحاديث والقصص والتعرّف على أفراد العائلة، متناسين الوقت وتعبَ السفر والسباحة ورحلة الغد، كنّا أربعة على الطاولة في بدايةِ السهرة، بنيامين وابنته سارة التي تعتني بالبيت وزينب وأنا، كانت زوجته «غزالة» قد توفّيت منذ سنتيْن وأبناؤه موزّعين في أنحاءِ العالم، بدأنا السهرة بعشاءٍ أعدّه بنيامين، طبق من الوراثة المشويّة وسلطة مشويّة وخبز «طليان»، ومع هذا قنّينة عصير عنبٍ وقنّينة نبيذٍ، «لا بأس، إذا شربتُ النبيذ أمامكم أليس كذلك؟»، سألنا بنيامين، كانت زينب لا تزال فرِحةً بفستانها الجديد، تجلسُ بالقرب من سارة تتهامسان، كنتُ في موقفٍ لا يُحسدُ عليه. لم أعرف كيف جُذِبْنا إلى هذه المغامرة الغريبة مع عائلةٍ يهوديّةٍ لا نعرف عنها شيئًا، وزوجتي تتصرّف مع الفتاة كأنّها صديقة طفولتها. مرّت ببالي فكرة أنّ كلّ ما يحدث هو مجرّد مؤامرةٍ صهيونيّةٍ للإيقاع بنا. يأتي السيّاح الليبيّون إلى جِربة كأوّل مدينة لهم في تونس، ومن ثمّ يجدون أنفسهم يتخلّون عن مبادئهم التي تربّوا على حفظها، «نعم... نعم، لا مشكلة»، اقتربت زينب وهمست في أذني، «أريد أن أجرّب مذاق النبيذ، لطالما أردتُ

ذلك»، «حسنًا لا مشكلة» همستُ لها مُحرَجًا، لعنتُ عمّها وعلاقتها به، كما لعنتُ الموقف. أنظرُ إلى الخُبز ولحم الحوت الشهيّ، أريد أن أنسى نفسي فيه ثمّ أخرج متناسيًا البيتزا، لكنّ عبارات بنيامين المرحّبة، عندما دخلنا البيت، أثقلت كاهلي وجعلتني مقيّدًا، «هناك فِلم يمكننا أن نشاهده معًا إذا أردتم، اسمه صيف في حلق الوادي، لم يمضِ على عرضه سوى سنواتٍ ثلاث، وبذلك يمكنك يا سي ميلاد أن تجهّز لنا البيتزا لنأكلها»، لم أعرف الفِلم قبل ذلك، كنتُ قد شاهدتُ مع العبسي منذ سنوات عبر أحد الأشرطة المهرّبة فيلمًا تونسيًّا عنوانه: «عصفور السطح»، عن فتى يشاهدُ الفتيات العاريات في الحمّامِ البخاريّ، لذا كنتُ متخوّفًا من أن يكون الفيلم شبيهًا بذلك، كان آخر ما أتمنّاه أن أشاهد مجموعةً من الفتيات العاريات مع زوجتي صحبة أشخاصٍ آخرين. حتّى في طفولتي ودخولي السينما لم يسبق أن تفرّجت على فيلمٍ مع فتاةٍ غير أخواتي اللّائي كنّ يحتلنَ بي للتسلّل إلى قاعاتها بينما أنام على حجر إحداهنّ. كانت غالبيّة جمهور الأفلام من الرجال والشباب. وجدنا أنفسنا نفضّل قنّينة النبيذ بدلًا من العصير. لم أشأ أن أكون الوحيد الذي يتحلّى ببعض من النفاق الاجتماعيّ ويشرب العصير بينما البقيّة تغرّد أعينهم وعقولهم بحلاوة النبيذ.

- في صحّتكما.

- في صحّتك.

رفعت زينب الكأس رفعَ خبيرٍ في شرب النبيذ، شككت في أنّها جرّبته من قبل، شيءٌ مّا في طريقة شربها له يشي بأنّها قد تجرّعت ولو قليلًا منه قبل أن تلتقيني. قد تكون احتست منه في إحدى تلك المرّات، التي تنظّف فيها شقّة عمّها، عندما يغيب عنها أيّامًا في معرضٍ فنّيٍّ بإيطاليا. حكت لي عن مغامراتها في الشقّة. ولأكون صريحًا معك، فقد كنتُ أكثر من مرّةٍ إحدى شخصيّات تلك المغامرات. قطعنا شوطًا طويلًا لسلخِ جلد الثعابين الذي يغطّي رغباتنا، ولم يكن موقفٌ كهذا سوى إحدى مراحل انتزاع الجلد. أردتُ أن أصل بسرعة إلى حالة السكر التي يتوقّف عندها الحرج. شربت كأسي دفعةً واحدةً. سرّ بنيامين ممّا رآه منّا. كان الرجل صريحًا جدًّا. لكنّني كنتُ متربّصًا لمؤامرته الصهيوصليبيّة على أيّةِ حالٍ، أو هذا الذي ظننته، «هل تعلم يا سي ميلاد؟ هذه أوّل مرّةٍ أرى رجلًا مسلمًا يسكر صحبة زوجته». ابتسمتُ ابتسامة صفراء، «لقد سمعتُ من أبي قصصًا عن أيّام الطبرنات في طرابلس، وكيف كان اليهود يشربون مع المسلمين في البار نفسه، وقد يرقصون أو يشتعلُ عراك بينهم»، «كما عرفتُ رجالًا ليبيّين في جربة يأتون لشهرِ العسل، يتركون زوجاتهم في غرفة الفندق، ويذهبون ليسهروا ويسكروا ثمّ يعودون إليْهنّ في الليل مخمورين»، «حتّى السيّدة زعيمة كانت تأبى أن تشرب أمامي، لكنّها تعبّئ بعض زجاجات

الكحول في عُلب العصير لتهرّبها لزوجها»، أنا نفسي لم أرَ ذلك، لكنّني سمعتُ قصصًا عن رجالٍ يستخدمون نساءهم لتهريب الكحول عبر الحدود التونسيّة، يخبّئون الزجاجات في حقائب زوجاتهم تحت الملابس الداخليّة، كما رأيتُ في حيّ القراقشة نساءً يملأنَ الخمور ويبعنها بدلًا من أزواجهنّ، وقد سمعتُ من العبسي قصّة عن جارنا الذي استمنيتُ مرارًا على زوجته، وهي ترتدي البيجاما، بأنّه يرغمها أحيانًا على الشربِ معه، وقال لي العبسي بعظمةِ لسانه إنّ الجار عندما يشتري منه أحيانًا يقول له إنّ «زوجته قد أنهت الكُفرة ليلة الأمس، العاهرة»، قصص لم أصدّقها يومًا، ولكن ها أنا الآن أكون إحدى شخصيّاتها. كانت زينب تشرب نبيذها، وتتحدّث مع سارة عن الحياة في جِربة، كأنّها تخطّط لأن ننتقل إليها، عن البحر وتجربة العوم في البيكيني والفستان وقيادة السيّارات. كان بنيامين بجانبي يتحدّث بصوتٍ خفيضٍ يمسك بيدي بينما يتناول سمكته، «هل تحبّون الموسيقى؟»، «طبعًا»، «الهادي الجويني، يجب أن تستمعوا إليه»، رفع بينامين صوته موجّهًا حديثه إلى زينب التي تقابلني، «لاموني اللّي غاروا منّي، قالولي واش عجبك فيها، جاوبت اللّي جهلوا فنّي، خوذوا عيني شوفوا بيها»، كرّر كلمات الأغنية قبل أن يأمر ابنته أن تشغّل الموسيقى على الغراموفون جهاز تشغيل الإسطوانات، مقابلي كان هناك رفٌّ أبيض مليء بالإسطوانات القديمة. مضى زمنٌ بعيدٌ منذ آخر مرّةٍ رأيت فيها هذا الاختراع والأغلفة الستّينيّة والسبعينيّة والثمانينيّة التي تحملُ الإسطوانات السوداء داخلها. أنا من جيلٍ أنصت للراديو وأشرطة الكاسيت أكثر من إنصاته لكلمات والدَيْه. نهضت سارة وزينب التي بدت منذهلةً كعادتها من العالم، الذي يعيشُ فيه مضيّفنا وابنته. علتني ابتسامةٌ مخمورةٌ –كنتُ قد شربتُ حتّى ذلك الوقت كؤوسًا ثلاثًا، «يا سي ميلاد على رسلك، نحنُ مازلنا في بداية السهرة هاهاهاها»- وفي يدي الكأس الرابعة، راقبتهما، ولأوّل مرّةٍ تحلو في عيني سارة أكثر من زينب ذاتها، كانت سمراء تكبرني بعشر سنواتٍ لم يصبها حظّها من الزواج فقرّرت الاعتناء بوالدها. إذا شبّهتها بنباتٍ مّا، فستكون كخدّوجة صبّارةً مزهرةً -كانت زينب تشبه الياسمين-، وأنا لديَّ طفولةٌ محبّبة مع طابيات الصبّار المذهلة، التي كانت تسيّج سواني العائلة. اشتهيتُها خائنًا ثقة زينب بأنّني واقعٌ في جمالها وسحرها، حاولتُ أن أبعد فكرة اشتهائي إيّاها وعزوتُ ذلك إلى تأثير النبيذ، «سارة ابنتي تعدُّ أجمل بنات جِربة»، قال لي بنيامين، تساءلتُ عن قصده من قوله، «حفظها الله لك»، «وحفظ الله لك زينب. المرأة في طرابلس تمرّ بفترة عصيبة في تاريخها، لا يمكن أن يستمرّ الوضع هكذا إلى الأبد. العالم كلّه يتقدّم ونحنُ الليبيّين نتأخّر». وتسلّلت الموسيقى إلى عقلي بعد أن تركت سارة لزينب شرفَ تجربة وضع الإسطوانة على المشغّلة، اختفى ذلك الذعر والترقّب كما اختفت نظريّات المؤامرة الكونيّة التي تحلّ علينا، أنهينا عشاءنا ونهضنا نرقُص، «سأعلّمك كيف تراقص زوجتك رقصًا لن تفكّر بعده في تركك أبدًا. المرحومة غزالة لم تتركني يومًا حتّى وافتها المنيّة»، همس لي بنيامين.

أمسك بيدِ ابنته بينما يحكي الهادي الجويني لعاذليه أنّه يمكنهم أن يذهبوا إلى الجحيم، لأنّهم لن يفهموا أبدًا كيف لسيّدٍ مثله أن يحبّ خادمةً سوداء. رفع يد ابنته عاليًا ولفّ يده الأخرى حول جيدها، تراءت في عقلي آية «في جيدها حبلٌ من مَسَدٍ»، وقلتُ لنفسي إنّ جيدَ سارة يلفّه حبل أشبه بالنوّار، حرّك الرجل ابنته يمنةً بشيءٍ من حكمة راقصٍ تعلّم على يد راقصة فرنسيّة في إحدى حانات ليون، نهضتُ مع زينب، «هيّا يا سي ميلاد، افعل مثلنا»، نظرتُ في عينيها، كان هناك سحرٌ جديدٌ فيهما، تناسيتُ وجود سارة واستعدتُ حبّي لزينب. خمرت أفكاري وزاد انتعاشي بالموسيقى. رفعتُ يدها إلى الأعلى وقرّبت جذعها منّي، وبدأنا الرقص. كنتُ أراقب الرجل العجوز وابنته الضاحكة أتعلّم منهما الحركات، بينما تضع زينب رأسها على صدري غائبةً في اللحظة. كنّا ندور بالقربِ من الطاولة، ارتطم جسدي بالطاولة، «لا تأبه، فقط ارقص»، قالت سارة لي ضاحكةً وهي منغمسةٌ في الضحكِ مع أبيها، «هل ستكون لي ابنة أعلّمها الرقص؟» قلتُ بصوتٍ خفيضٍ سمعته زينب، «حقًّا يا ميلُو، هل تريد أن تتعلّم ابنتنا الرقص؟ أنت حقًّا مختلف»، جاءتني كلماتها وهي تنظرُ في وجهي بابتسامةٍ، كانت سكرانة، أمرٌ أكّدته لي عيناها الحمراوان الناعستان، لم تشرب سوى كأسيْن. «هناك أغنية جزائرية علينا أن نرقص عليها أيضًا»، قال بنيامين متقدّمًا نحو رفّ الإسطوانات، «هل سمعتَ بالشابّ خالد من قبل يا سي ميلاد؟»، كنتُ لا أزال أحتضن زوجتي بعد توقّف الموسيقى، «نعم، لديَّ أشرطة له»، «حسنًا، هذه الأغنية تناسب الجوّ الرومانسيّ لشهور العسل، اسمها بختة»، وانطلقت الأغنية، «بختة، نور تنادي، كيتي من البختة كيه، يرغبها مُرادي، أمنيتي الغالية سيدي»، نظرت إلى زينب وغنّيتُ معه، كنتُ ماهرًا في تتبّع اللهجة الجزائريّة، قلتُ لها ونحن نرقص: «زينب، نور تنادي، كيتي من الزينب كيه»، «ماذا تعني كيتي؟»، «أوّاه»، «ولماذا تتأوّه منّي»، «لأنّ حبّكِ صعبٌ عليَّ»، «صعب؟ كيف؟»، «لم أعلم يومًا بوجود امرأة تشبهك. أنتِ قوّة لا أملك أن أقاومها، كنتُ أعتقد أنّ كلّ البناتِ في طرابلس كالعجين يمكنُ تشكيلهنّ حسب ما تريد، لكن ها أنتِ تثبتين لي العكس»، «وهل هذا أمرٌ سيّئٌ؟» كنّا نرقصُ على تأوّهات الشابّ خالد والشيخ عبدالقادر الخالدي من حبيبته التي أثقل حبّه لها كاهله «ذبلت قلبي وحدي، كيتي من زينب كيْ»، «زينب، عود العرّاض، زينها ما كسبوه ريام»، راقبتُ مضيّفنا وابنته اللذين جلسا ينظران إلينا نرقصُ وحدنا تحت الليلِ البرتقاليّ الذي تنسجه علينا المصابيح، تعكسُ لونها على الطلاء الأبيض للمكان. كانا يبتسمان كأنّهما شهدا قصّة حبٍّ لا يمكن لها الحدوث في زمننا وبلادنا، «الأمر أصعب من أن يتمّ تصنيفه بوصفه سيّئًا أو جيّدًا، إنّه خليط من المشاعر المتناقضة»، «لكنّي أحبّكِ في النهاية، كحبّك للبيتزا»، قلتُ لها، فأعادت رأسها تريدُ أن تنام على جسدي المثقل بهموم دنياي.

توقّفت الموسيقى، بدأنا النصف الآخر من سهرتنا. خرجتُ وبنيامين ليدخّن سيجارته في الباحة تاركين الفتاتيْن تعملان على تنظيف طاولةِ العشاء والأواني. كان الرجل العجوز يحملُ من الطاقة ما لم أرَها في عجوزٍ قبله، إلّا أنّه كان يعاني من صدره، الذي أحرقته السجائر على مرّ الزمن. تعجّبتُ في بادئ الأمر من سبب خروجنا لتدخين السجائر. قال لي إنّ زوجته قد ماتت بسرطان الرئة، ورغم كونها لم تدخّن يومًا في حياتها، فقد أصيبت به بعد أن استنشقت لسنين عمرها دخانه داخل البيت وفي السيّارة. كان مدخّنًا شرِهًا، ولم يحبّ أن يأخذ السرطان ابنته منه كما فعل بزوجته، «إذَن لماذا لا تتركه؟»، «لا يمكن ذلك، علاقتي به تعدّت مرحلة تركه. أنا الآن لا أحسن استنشاق الهواء من دونه»، أخرجتُ علبة الرياضي من جيبي فتهلّلت أساريره، «سبورت» قال لي كأنّه يستعيد أيّام مراهقةٍ مشاكسةٍ يسرقُ فيها السجائر من جيبِ والده.

- اعذرني يا سي ميلاد، لكنّي أريد أن أسألك سؤالًا شخصيًّا.

- لا بأس بذلك.

- لماذا تزوّجت زينب؟ لا تبدو لي رجلًا متحرّرًا، تبدو كشابّ ترعرع على تقاليد المجتمع وأراها مندفعةً نحو التحرّر.

- ماذا؟

- آسف، إذا لم ترغب في الإجابة فلا بأس.

- لا، لا... ولكن السؤال غريب، كيف بدونا لك كذلك؟

- من نظراتك إليها وهي تشرب النبيذ.

- نظراتي؟

- العيون تشي بالكثير.

- لا... لا أعرف، أنا وزينب تربّينا مع بعض، وعشنا قصّة حبّ.

هذا سؤال طرحته على نفسي مرّاتٍ عديدةً، عندما أقدمت على طلبِ الزواج من زينب. كنتُ في دوّامة من الأفكار المتضاربة. فمن زاوية مّا، كنتُ موقنًا أنّ الحُبّ هو ما دفعني إلى ذلك، رغبتي

في عيشِ ما تبقّى لي من حياتي برفقتها، لم أجد نفسي على طبيعتها مع أيِّ امرأةٍ خارج دائرة أخواتي وأمّي، وها هي المرأة الوحيدة التي يمكنني أن أبقى معها من دون أن ترى في ذلك أمرًا مُريبًا، قد يضرّ بصورة الرجل في مخيّلتها. لم أكن مستعدًّا لأن أتزوّج امرأةً لا أعرفها، ثمّ إنّ تاريخي الطويل معها منذ الطفولة جعلني أرتاح لفكرة القدر المشترك بيننا. كانت زينب خياري العاطفيّ، إلّا أنّ هناك زاويةً أخرى جعلتني أحاول الهرب منها. المغامرات الجنسيّة التي عشناها في البيتزاريا، وحادثة فضّي لزينبتها في مزرعة عمّي، ثمّ استمرارنا في فعل ذلك كلّما أتيحت لنا الفرصة في شقّة عمّها، كلّ هذا أثّر في قرار زواجي منها، وحتّى الساعات الأخيرة قبل قراءة الفاتحة، كنتُ أفكّر في أنّ زواجي منها لم يكن سوى نتيجةٍ لكوني الرجل الذي غزا جسدها قبل زواجها. الوعدُ الذي قطعته على خدّوجة ساعدني في التفكير بأنّ زواجنا هو حصيلة لفعلتي، وبأنّني لن أكون رجلًا حقيقيًّا إذا تركتها تسير في طريقٍ تشبه طريق خدّوجة. لكنّي كنتُ أخاف الشائعات التي تسري في البلاد عن النساء اللّائي يتزوجهنّ الفاتحون، ومن همساتِ العبسي في البرّاكة لأصدقائه بأنّني تزوّجتها فقط لأنّي فتحتُها، همسات اعتاد على نقلها إلى من يجالسه عن العاهرات والزانيات القليلات الشرف اللّائي كُشف أمرهنّ من أحد أفراد العائلة فاضطرّ الفاتحون إلى أن يتزوّجوهنّ، للحفاظ على سمعةِ العائلة. كنتُ سأعاود التفكير في هذا السبب، بعد ساعات تقريبًا، متأثّرًا بفيلم «صيف في حلق الوادي».

- ولكن ليس بالحُبِّ وحده يختار المرء شريكه، قال لي بنيامين وهو يتلذّذ بتدخين الرياضي.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنّ الحُب مهمّ، لكن على الرجل منّا أن يختار امرأةً تناسب نمط عيشه، الحُبّ قد يتبخّر مع الوقت وتبقى العِشرة والثقة والصدق بين الزوجين، هل فهمتني؟

- لم أفهم بعد.

- أنا أعرف الناس الذين يقطنون في بئر حسين والمناطق المشابهة، التي تحوم حول وسط البلاد، تربطهم روابط أسريّة وثيقة تشبه القبائل، يكادون يكونون متشابهين في كلّ شيء، والزوجة لا تتّبع زوجها فقط هناك، بل تتّبع العائلة بأكملها، إنّها فرد منها وعليها أن تلتزم بتقاليد العائلة، خصوصًا أنّ زوجتك بنت مدينة.

- أنا أيضًا ابن مدينة، تربّيتُ في الظهرة.

- أن تتربّى في المدينة هو خلاف أن تعيش كامل عمرك فيها. لقد أحببتكما وأرجو لكما كامل السعادة في حياتكما اللاحقة. لم أقصد أن أهينك، ولكنّي أردت فتح عينيْك أمام مشاكل قد تواجهك في المستقبل، أن تكون مستعدًّا.

- لا... لا بأس، قلتُ كاذبًا ورميتُ سيجارتي قبل أن أكملها وأشعلتُ أخرى. كنتُ أريد لكم وجهه.

لم أفهم في ذلك الوقت لماذا كان العجوز على يقينٍ من أنّ زواجنا ستواجهه حربٌ شرسةٌ، ثمّ إنّني لم أُرد فهمَ ذلك. كنتُ مستمتعًا بالجوّ الشاعريّ الذي خلقته كؤوس النبيذ في رأسي. نسمةُ مساء الصيف تدغدغ شعيرات جلدي، وخرير الماء من فمِ الغزال المنحوت، وموسيقى ديسكو، تأتي أصداؤها من ملهًى لا يبعد إلّا مسافة أقدامٍ عن الشاطئ. أمواجُ البحر، وصوتُ العجوز النُحاسيّ، ودخان الرياضي يرتفعُ من فوق جرمه السمين، ورائحة ياسمين خفيفةٌ تتلاعب بوجودي في المكان، ضحكات زينب وسارة تأتي من نافذة المطبخ القريبة. سكتنا بعد النقاش البسيط. وعندما اقتربنا من إنهاء سجائرنا، راح هو يُدندن، فيما بقيت أفكّر في الوقاحة الّتي تطفّل بها على حياتي الخاصّة، وأسبّه في باطني. حينئذٍ أطلّت سارّة من باب المطبخ المفتوح على الباحة، وقالت: «سي ميلاد، المطبخ جاهز لصناعة البيتزا». رمينا أعقاب السجائر، ودخلنا «الدار»، «سأسبقكم إلى غرفةِ المعيشة»، قال السي بنيامين، ودخل ليُسقى من ماءِ الروح. «الفرن جاهز، سأصنعُ بوب كورن، ويمكنك البدء في تجهيز البيتزا»، قالت لي سارة، وأنا داخل إلى المطبخ. كانت زينب جالسةً على مصطبةٍ رخاميّةٍ عاليةٍ قليلًا، تحرّك ساقيْها كطفلةٍ. لمّا رأتني مدّت يديْها لي تدعوني إلى أن أتقدّم نحوها. اقتربتُ منها فقبّلتني سعيدةً أمام سارة. زاد تورّد خدّيّ المتورّدين من مخادعة النبيذ، نظرت سارة نحونا مبتسمةً قائلةً: «آه.....لاموغ»، تركت زوجتي وتقدّمتُ نحو أقراص العجين التي جهّزتها قبل السهرة للبدءِ في حلّها وتزيينها. ثمّة طرق لحلّ عجين البيتزا. يتوقّف الأمر على ذوقِك الفنّي، وعلى حرارة الفُرن بطبيعة الحال. ألقيتُ نظرةً على فرنِ المطبخ. كان يمكنه أن يجهّز بيتزا طرابلسيّة، مجموعة أقراص صغيرةٍ رطبةٍ بحجم كفتِ اليد، أو أكبرُ قليلًا. كنتُ متأكّدًا من أنّ الفرن لن يحمل أكثر من ذلك، فجهّزت عجيني على ذلك النحو. بدأت بحلِّ الأقراص، بينما كانت تحدّثني زينب وسارة عن مغامرتهما المسائيّة في شراءِ الملابس.

- سي ميلاد يبدو أنّ زوجتك امرأة قويّة. أنت رجل محظوظ.

- ما الذي حدث؟ قلتُ وأنا أعمل على أقراصي.

- كنّا نقود السيّارة وقد شارفنا على الوصول إلى السوق، عندما اقتربت منّا سيّارةٌ ليبيّةٌ بها مجموعةٌ من الشباب، حاولوا مضايقتنا. أنا كنتُ خائفةً على زينب، ولم يكن هناك أمنٌ يحوم في الأرجاء، ورغم أنّنا حاولنا الهروب منهم، وعدم الاكتراث لما يقولونه، فإنّهم كانوا يتمادون في مضايقتنا، بدا عليهم السُكر. أوقفنا السيّارة، فخرجت زينب باتّجاه السائق الذي كان يريد أن يخرج ليواصل مضايقته. وقفت أمام الباب، وفتحته. ولمّا أراد الوقوف، أغلقته بكامل قوّتها.

- الله.

- وربي العزيز، لم تتوقّف عن ذلك، ألقت عليهم الإهانات، وعرّفتهم أصول التربية، وهدّدتهم بالاتّصال بالحاكم، هربوا، يجب أن تفخر بها.

- أنا فخورٌ بك يا زينب. قلتُ.

خجِلت من كلامي، «عليك تعليمها القيادة» قالت لي سارة، وهي تضعُ بذور الذرة في الطنجرة، «طبعًا، يجب أن تقود السيّارة»، قلتُ ناظرًا نحو زينب مبتسمًا، «راه المرا اللي ما تعرفش تسوق، يُقعد الراجل الحاكم فيها»، قالت سارة موجّهة حديثها إلى زينب. أنهيتُ تجهيز أقراصي وأدخلتها إلى الفرن، جلستُ على كرسيّ حول الطاولة التي تتوسّط المطبخ، وذهبتُ أفكّر في كلماتِ سارة لزينب وأنا أتفحّص مكوّناتِ المطبخ، كان هناك صندوقٌ خشبيٌّ فوق مغطس الأواني لتعليق الأكواب، وبعض أواني الطبخ. الدواليب البيضاء الخشبيّة في حدودها رسومٌ لزهورٍ ورديّةٍ، تتشابك فيما بينها وتتّصل بأغصانٍ خضراء زاهيةٍ. الخزانات الكبيرة في الأسفل، والرخام فوق أخشابِ الخزانات، بالإضافة إلى غرفةٍ صغيرةٍ ملحقةٍ بالمطبخ تعمل مخزّنًا للموادّ الغذائيّة. سارة تقف أمام الغاز بعودها الأسمر المعرّق من الرقص ونسمةِ الصيف. امرأةٌ أربعينيّةٌ مازالت في ريعانِ شبابها. زينب جالسةٌ على المصطبة، وأنا أفكّر في تحذير سارة لزينب من سطوةِ الرجال. ها هي تخبرها السرّ وراء قطعِ سطوة الرجل على المرأة، «يلزمك تكوني مستقلّة، ويزّي من منيكة الرجال»، قالت سارة، وهي تشرحُ لها أهمّيّة الاستقلال عن الرجل اجتماعيًّا، اقتصاديًّا وعاطفيًّا وفيزيائيًّا وفكريًّا. تبادلنا أنا وزينب النظرات، نبتسمُ من الكلمة البذيئة التي ألقتها علينا، «عيب» قالت لها زينب.

- ما هو العيب؟ قالت سارة.

- تلك الكلمة التي قلتها عن الرجال. قالت زينب.

- منيكة؟

- «نعم». أجبتُها.

- لدينا نحن عادي، أقولها لأبي دائمًا، يزّي من المنيكة. قالتها مجدّدًا.

كنّا مخمورين، انتابتنا نوبة ضحكٍ زينب وأنا.

- قوليها يا زينب. قالت سارة.

- ماذا؟

- يزّي من المنيكة. قالت سارة.

- يزّي من المنيكة. قالت زينب، توقّفت ضحكتي.

وأخيرًا، جاءت الساعة والنصف الأخيرة من السهرة، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، لما أدخل بنيامين شريط الفيلم. جلسنا في الصالون، أنا وعلى يميني زينب تتّكئ برأسها على صدري، على يساري بنيامين في كرسيٍّ هزّاز من البامبو، وسارة على أحدِ كراسي الصالون. بدأ العرض، مقاطع متلاحقةٌ لحلق الوادي، واحدةٌ من ضواحي مدينة تونس الشماليّة، مجموعةٌ من مطاعم السمك الواقعة على البحر، أطفالٌ يلعبون، رجالٌ يشربون البيرّا على عتبات الحانات بجانبِ البحر، نساء في الشارع يرتدين التنانير والفساتين القصيرة، شبابٌ يتسكّعون ويتحلّقون في زوايا الشوارع الضيّقة يتغزّلون بالبنات، مساجد وكنائس ومعابد يهوديّة، أطفالٌ يتسلّلون إلى أحد البيوت ليسرقوا الياسمين. عائلاتٌ تجتمع على الغداء، الصيف ينضحُ من جبينِ رجلٍ أو ملابس امرأةٍ، ورائحة الطعام تنفذُ إلى أنفي، يأتي الحاج لزيارة إحدى العائلات، يجلسُ على الطاولة متحدّثًا عن اليهودِ الذين يكره أكلَهم القذِر. أنظرُ إلى بنيامين وهو يبتسم إزاء هذا التلميح، يسألني «هل طعامنا قذرٌ حقًّا يا سي ميلاد؟»، «على العكس»، تقول له زينب وهي تلتحفُ بي، ينهضُ الحاج ليدخل الحمّام فيرى إحدى الفتيات اللّائي كنّ يتعرّضن للمضايقة من الشباب عاريةً تمامًا. جسدها التمرّي اللون والشكلِ يرفعُ دلوًا تغتسلُ به. يشعرُ بالتعب من فرطِ الشهوة، أشعر بالحرجِ، ربّما عليَّ أن أستأذِن للذهابِ إلى الحمّام. كيف لي أن أشاهد فيلمًا كهذا مع زوجتي، في صحبةِ أناسٍ آخرين؟ تساءلتُ، لكنّني كنتُ قد تخطّيتُ حقّي في التساؤل منذ بداية هذا اليوم. شعرتُ أنّ كلّ ما سيحدث بعد شرب زينب النبيذَ معي لن يكون ذا تأثيرٍ، إلّا إن كان دخولنا في مغامرة قِمارٍ أو أكل الخنزير. غيّرتُ

موضعي بحيث أجعل زينب تجلس مستقلّةً عنّي. كان وجودها على صدري يخنقني، فملأتُ فمي بالبوب كورن حتّى أجتاز الأمر، مضيفًا إلى ذلك كأس بوخة بوخبزة من زجاجةٍ كان يشربُ منها السي بنيامين. تتابعت مشاهد الفيلم، الحاج، هذه الشخصيّة المتديّنة، ولكن الغليظة، والتي تسعى إلى إحكام قبضتها على الفتاة بكلّ الوسائل المتاحة لها. الشباب يدخلون في مغامرات من التلصّص على نهودِ الفتيات اللّائي يغتسلن بعد العودة من البحر، ثمّ تقبيلهنّ في حفلة عرس، «أين يقعُ هذا المكان؟»، «إنّه قريب من المرسى، يجبُ عليكم زيارتها، في تونس»، تساؤلات زينب عن الأماكن يجيبُ عليها بنيامين، «من هذه؟»، «إنّها كلاوديا، أعظم ممثّلات تونس»، لم أفهم وجود الممثّلة العظيمة في الفيلم. ربّما كان وجودها مجرّد دعايةٍ له، حتّى يستقبله الشعب بصدرٍ رحبٍ، ويهتاجون على دور السينما لرؤية كلاوديا وإن من عينِ الشاشة، العراك بين اليهود والعرب والإيطاليّين، مشاهد جنسيّةٌ أخرى، تزداد رغبتي في الدخول إلى الحمّام، العرق من حرّ الطقس والموقف والخمر يخنقني، نهود فتيات ومؤخّرات، ينتصب ميلادي وأخشى الإحراج، أنظر إلى استمتاع بنيامين بالمشاهد متلذّذًا، سارة الّتي تلتفّ حول نفسها، فستانها يكشف عن فخذها التمريّ، أبلع ريقي، أتوتّر لرؤية زينب وهي منسجمة مع الفيلم كطفلةٍ تكتشف لذّة السجائر. الفراشية «لم أعرف أنّ نساء تونس يرتدين الفراشية مثلنا»، أقول محاولًا التهرّب من الموقف المزعج متذكرا صورة زينب لما جاءتني به. دراما اجتماعيّة، رجالٌ يشربون البوخة ذاتها الّتي نشربها الآن. آه، عليَّ أن أشرب كأسًا أخرى. أشرب الكأس، تنقذني مثانتي ورغبتي في التقيّؤ، لم أشرب بهذا القدر طيلة حياتي، أهرب إلى الحمّام معتذرًا، أنهار على المبولة وأقذف كامل الليلة في الحمّام، تدمع عيناي وأغرق متّكئًا لدقيقة أو اثنتين على الأرض ألتقط أنفاسي، أرتاح فأبول، ثمّ أقف أمام المرآة أحاول تبيّن الشخص الذي أراه فيها، كيف أخرج من هذا الموقف؟ على رسلك يا ميلاد، ستنتهي الليلة وستصبح مجرّد ذكرى أخرى، التقطتُ أنفاسي بعد أن مسحتُ العرق وغسلتُ وجهي، وعدت. كان الجميع منسجمين مع الفيلم ولم يلاحظوا غيابي أو عودتي. إنّها النهاية: الفتاة ذاتها تتعرّى أمام الحاجّ لتعطيه مبتغاه، حتّى تتوقّف هذه الملهاة الاجتماعيّة، فيسقط مغشيًّا عليه.

- ما رأيكما؟ يقول بنيامين.

- فيلم جيّد إلّا أنّي لم أفهم الكثير ممّا قيل فيه.

- الفيلم يحكي دراما التنوّع والتعايش في المجتمع التونسيّ. حلق الواد بوصفها أحد أكثر الأماكن تنوّعا في تونس هي رمز هذه الدراما. قصّة الجنس وعائلاتٌ من أديانٍ مختلفة عاشت مراحل الطفولة والشباب والكهولة عَيشَ الإخوة لتحاول حادثةٌ واحدةٌ تفريقها.

- آه فهمت، لهذا كان «الحاج» غاضبًا، كلّ مرّة يرى فيها يهوديًّا أو مسيحيًّا. قلتُ هاربًا من كلمة جنس التي دسّها في حديثه.

- نعم، عندما شاهدتُ الفيلم أوّل مرّةٍ تذكّرتُ طرابلس. كانت المدينة تزخر بالإيطاليّين والمالطيّة واليهود والعرب والبربر والحبش والإنجليز في فترةٍ مّا، والآن كلّ شيءٍ تغيّر، في آخر مرّة زرتها فيها لم تكن سوى عجوزٍ رماديّةٍ، التنوّع وتقبّل الآخر والانفتاح عليه مهمّ يا ميلاد.

- أوافقك الرأي. قالت النسخة السكرانة منّي وقد بدأ النوم يطرق بابها.

ودّعنا الأب وابنته ورجعنا إلى المبيت. كنّا نرقصُ في الممرّ تحت تأثير ضوءِ القمر، ونسيم الصيف، والليلة العجيبة. دخلنا غرفة النوم، وألمّت بنا رغبةٌ عارمةٌ في الجنس. النافذة المفتوحة تنقل إلينا أمواج البحر محمّلةً بعبيرٍ طفيفٍ من الوذينة، تستحثّنا على أن نسرع في خلع ملابسنا ونتعرّى فوق السرير، أن أعاود اكتشاف تفاصيل جسدها من جديدٍ، كأنّها أوّل مرّةٍ أفعل فيها ذلك. تحت ضوءِ القمر ونسيم البحر أردنا أن ننجب ابننا الأوّل. أنزلُ من فمها إلى عنقها إلى نهديْها إلى بطنها، حيثُ حبّة الخال التي ألعبُ بها قليلًا، أنزلُ أكثر أمصّ الرحيق من زينبتها. لأوّل مرّةٍ في حياتي أتشجّع بما يكفي لأفعل ذلك. كنتُ خلال السنين أتلقّى بعض الدروس في إرضاء المرأة من خدّوجة، دروسًا نظريّةً. قالت لي ذات مرّةٍ: «إن كنت تحبّها، عليك لحسها كجيلاتي»، تأوّهت وذابت، وأمسكت فروة رأسي وذُبنا أكثر في الحُبّ. في تلك الليلة، استغرقني الأمر دقائق حتّى أفرغ رغبتي فيها. أصبحتُ أكثر صبرًا على الاستفراغ. فكّرت في سؤالِ بنيامين عن الدافع وراء زواجنا، فوجدتني أضاجعها لوقتٍ أطول. عندما انتهينا، أرادت زينب أن تقفز مسرعةً نحو البحر، كنتُ مثقلًا بتعب اليوم، وأبحث عن السرير متشوّقًا إلى استكمال رحلة الغد، إلّا أنّ رغبتها الشديدة في العوم تحت ضوء القمر جعلتني أنهض وأقاوم نُعاسي.

- ميلُو، هل تزوّجتني لأنّك فتحتني؟

- بالطبع لا، تزوّجتكِ لأنّك أنتِ.

قالت لي بعيدًا عن الشاطئ، تبحثُ عن الحقيقة في عيْنيّ. أطلّ صمتٌ مريبٌ بيننا ونحن نسبح أبعد. هي بحركاتٍ طفوليّةٍ، وأنا كسبّاحٍ ماهرٍ. فكّرتُ قليلًا. أخبرتها أنّ ذلك لم يكن سببًا يومًا. كنتُ أعرف أنّني أكذب، لكنّني خفتُ أنّها لن تصدّقني، فأردتُ تغيير مجرى الحديث. كنتُ أرى الأنوار تطفأ من المنازل المطلّة على البحر. الضوء الوحيد الذي يشعّ يأتي من غرفتنا نحن، ومن الملاهي

الليليّة والفنادق حولنا، وفي إغراقي في الكذب، تذكّرتُ ليلة الهروب من المعسكر. كانت ليلةً هادئةً كهذه الليلة، بالقرب من شاطئِ البحر.

- هل تعلمين؟ أنا أخافُ البحر في الليل.

- حقًّا؟ هل تريدُ العودة؟

- لا، وجودكِ معي يبعدُ خوفي. لكن لديَّ ذكرى سيّئةٌ مع البحر والليل. رأيتُ أحد رفاقي يقفز نحو نحبه فيه.

- الله، لم تخبرني بذلك يومًا.

- أبقيتُ الأمرَ سرًّا طيلة عمري. لم أرد أن يهزأ بي أحد عندما أقصّ له ذكرياتي مع العسكريّة.

اقتربت منّي. كان جسدانا بعيدين عن قاعِ البحر، ولم تعد تتمكّن من الوقوفِ بجسدها على التُربة تحت الماء، احتضنتني كأنّها تحتمي بي من الغرق، ولكن في الوقتِ نفسه تدفعني إلى ألّا أغرق في ذكرياتي أكثر، «ماذا حدث؟»، قصصتُ عليها ذكرياتي مع المادونا، وكيف كاد يقتلني في أكثر من مناسبةٍ، عن منير وهروبنا من الكلاب ليلًا وسط الشجيرات الشوكيّة، عن الدم الذي نزّ من ساعدِي، وخوفي من اكحيلة، ومن القفز نحو المجهول، عن خيانة زاهر لنا، وقَفْزِ منير الذي كان يحلم دومًا بأن يتزوّج الفتاة التي أحبّ، ثمّ حدّثتها عن الإمساك بي ذليلًا، فوق الجُرف وتمزيق جسدي وسجني وتعذيبي في الزنزانة، وعن محاولتي الانتحار.

- يا عيني عليك.

ضمّتني فسرَت السكينة مجدّدًا في جسدي المبلول.

(٥)

أعتذر عن الإطالة، ولكن بدا لي أنّ عليك معرفة كلّ هذا، حتّى يمكنك قبول ما سأقوله الآن. زينب وأنا واجهنا مصاعب شتّى هدّدت حبّنا، وأكثر من مرّة وجدنا أنفسنا في مفرق طرقٍ، ربّما كانت هي الطرف الأضعف أمام كلّ هذهِ الخيارات والقرارات التي كان علينا اتّخاذها، وربّما كنتُ أنا. المهمّ أنّنا اجتزناها كلّها، وتعلّمنا أن نتقبّل كلّ ما فينا، وأن ننهي خلافاتنا ومخاوفنا بحضنٍ طويلٍ،

أو مشيٍ على الكورنيش أو شاطئ البحر. أنا أعرف كلّ القصص التي تخيفها وهي كذلك. هي تعرفُ جيّدًا ما يثيرني، وتعرف الظلال التي أجرّها معي، وأنا كذلك. أذكر أنّي عندما تخوّفت من ذهابنا إلى شقّة عمّها، قصّت عليّ حادثةً شهدتها في طفولتها، لمّا كان الرجل زير نساء يبحث عنهنّ في كلّ مكانٍ، وكانت هي في الخامسة عشرة. كانت تملك مفتاحًا إضافيًّا للشقّة تدّخره للطوارئ ولتنظيفها، عندما يكون هو بعيدًا. كان قد أخبرها منذ أسبوع بأنّه مسافر، وأنّه سيحتاج منها إلى تنظيفها. فتحت باب الشقّة إذ سمعت صوت أزيز آتٍ من غرفة النوم. خافت أن يكون المتسبّب فيه جرذًا أو قططًا أو أن يحصل الأسوأ: سارق يلج الشقّة. دخلت ببطءٍ يجذبها صوت امرأةٍ تصرخ، فوجدته عاريًا يضاجع إحدى نسائه من «خدوجتها» كما يقول التوانسة. صُدِمَت من منظره، ولكنّها استطاعت أن تغالب نفسها عن الصراخ. كانت أمام اكتشافٍ عظيمٍ ولم تُرد أن تفسد اللحظة. قصّة كهذه، لم أكن سأسمعها البتّة من زينب، إذ لم نكن صريحيْن جدًّا في خصوص تجارب ماضينا، وما كان لي أن أقدر على حكاية قصّتي مع الجنس وخدّوجة، وهي قصّة أضحكتها. كلّ ذلك جعلنا منفتحَيْن أمام هشاشتنا. ولكن، الأحداث الأخيرة من حياتنا ومكاشفة العبسي لي بما رآه وما يظنّه الناس بي، واهتمامهم الشديد بحياتي، حتّى إنّني أحيانًا أرى بيتنا من زجاجٍ يمكن للجميع أن يراقب أشدّ لحظاتنا خصوصيّةً، جعلني أعاود ترتيب أفكاري، بل أعاود تقييم حياتي وما فعلته بزينب. هناك مقولات شعبيّةٌ كثيرةٌ على ما يجب أن تكونه العلاقة بين الرجل وزوجته، لكنّ أكثرها رنينًا في عقلي هي تلك التي قالتها لي أمّي ذات مرّةٍ منزعجةً من عملِ زينب وعدم اهتمامها ببيتها، قالت لي: «الفرس علّي راكبها»، وأنا الآن أعاود هذه الجملة في عقلي. أدرك أنّ كلّ ما حدث واقعٌ على عاتقي أنا، لم أتمكّن من ترويض فرسي، أحببتها جريئةً وقويّةً وقادرةً على ركلي، إذا حاولت أن أخطئ في حقّها، كنتُ أحيانًا أضع وجودي المخزي في مجتمعي على عاتق أبي، وأنّه لم يتمكّن من إنجاب أخٍ آخر لي يريني الطريق نحو الإمساك بزمامِ الأمور. في بعضِ الأحيان، كنتُ ألقِي باللوم على أخواتي، وطريقتهنّ في التعامل معي، على تعليمهنّ إيّاي طريقة صنعِ حلوى الشعر، بل ونزع شعر أرجلهنّ أمامي والإمعانِ في تمييعي بتركي أجرّب نزعه عنهنّ. إعجابهنّ بيدي اللطيفة الحانية عليهنّ، ونزعي الشعر بطريقة تكاد تكون خالية من الألم إلّا اللذيذ منه، ثمّ إعجابي أنا نفسي بذلك وتطبيقه على زينب في شقّة عمّها، كنتُ أوجّه أصابع الاتّهام إلى الجميع: المادونّا وتعامله الوحشيّ معي وإرغامه إيّاي على أن أكون رجلًا، وإن كلّف الأمر حياتي، عمّي وعدم اهتمامه بي بعد وفاة أبي، وتركه إيّاي أتربّى بين خمسِ نساء، عمّ زينب الفنّان الداعر الذي تمكّن من تحويلها إلى كائنٍ لا يمكنه العيش وسط حيطانِ البلاد. اتّهمتُ الجميع إلّا نفسي. كان هناك صوتٌ لطالما حاولتُ إسكاته، صوت أُموميّ يخبرني أنّ علاقتي بزينب وزواجي منها لن ينتهيا على ما يرام، منذ أن قالت لي أمي إنّها لا تريد منّي أن أتزوّجها وإنّها

تفضّل أن تكون ابنة خالتي زوجةً لي، لكنّني كنتُ أقاومه دومًا وأنا أنصتُ إلى صوتٍ آخر. تقول المدام إنّ الصوت نفسه ليس إلّا انعكاسًا لرغبتي في العودة إلى أحضانِ المدينة، وإنّ الصوت الأموميّ هو انعكاس لما عايشته في القرية التي فتحت عينيَّ على كيفيّة سير الأمور في البلد.

- تزوّجتني يا ميلاد لأنّك خفت من التخلّي عن فتاة مفتوحة، اعترف بذلك.

في كلّ صباح أعايش تلك الخصومة التي نشبت بيننا في ظهيرة يوم الثلاثاء الثاني من هانيبال (لا أعرف لماذا على شهر هانيبال أن يكون أسوأ شهور السنة وأفضلها عندي)، كنتُ في نهايةِ شهري الأوّل من معسكر الرجولة الذي أنشأه لي العبسي، «لقد تخرّجت الآن يا ميلاد»، قال لي العبسي في الأسبوع الذي سبق الحادثة، بعد أن أخبرت هنادي بألّا ترتدِي الجينز بعد اليوم. وبعد ذلك قرّرتُ في سهرةٍ طويلةٍ معه، كان ينسجُ لي فيها خطّة المرحلة القادمة، أن أراقب زينب بعد توصيلها إلى مكان عملها. كانت تحملُ معها حقيبة يدٍ كبيرة نسبيًّا، عجبت من ضخامتها. ركنتُ البيجو في مكانٍ بعيدٍ على غير العادة، وجلستُ في مقهًى يقابل المؤسّسة. لم تعد الأمور طبيعيّةً بيننا منذ صفعي إيّاها، ولكن الاعتياد جعلنا نتعايش أسبوعَيْن ككائناتٍ رضيت بالأمر الواقع، كالأزواج الذين يعيشون حولنا. كنتُ أضع هدفًا واحدًا نصب عينيَّ، أن أراقب السيّارات الخارجة من المؤسّسة وركّابها. جلستُ ساعتيْن قبل حدوث أيّ شيءٍ مثيرٍ للاهتمام. رأيتُ الرجل السمين مدير المؤسّسة يدخل إلى المكان، فشتمته في سرّي. لم تمضِ سوى نصف ساعة أخرى، عند العاشرة والنصف خرجت السيّارة ذاتها مجدّدًا، لم أتبيّن الراكبين في البدء، إلى أن نهضتُ من الكرسيّ مسرعًا أبحثُ في الوجوه خلف عمود إنارةٍ، رأيتُه، كانت معه امرأةٌ في مقعد السيّارة الخلفيّ، كنتُ متأكّدًا من ذلك. أسرعتُ نحو البيجو لألحقه.

وقفت سيّارته أمام مقهى ماركوس. كان هذا المقهى تجمّعًا للمثقّفين والصحفيّين والكتّاب والفنّانين من الجنسيْن، يقع مقابل قوس ماركوس، في مدخل المدينة القديمة. جلسنا زينب وأنا أكثر من مرّةٍ فيه هاربيْن من نظرات المجتمع، بعد مغامرة جنسيّةٍ في شقّةِ عمّها. مازلتُ أتذكّر ذلك اليوم الذي تسلّلنا فيه إلى الشقّة الواقعة مقابل شارع الكِندِي –شارع العاهرات سابقًا وورش التلفزيونات الآن-، دخلت هي إلى الشقّة أوّلا، مضت نصف ساعة أنتظرُ فيها إشارتها من النافذة الكبيرة الواسعة تلوّح إليّ بالموتنادي -الذي كانت ترتديه- حتّى أدخل بسرعةٍ. كدتُ أخطئ رقم الشقّة، لولا أنّي تذكّرت تفصيلًا واحدًا فيها «الشقّة التي ستجدُ على بابها خرز عين زرقاء»، طرقتُ الباب، فتحته لي. كانت عاريةً تمامًا، «أهلًا بك، كيف يمكنني أن أساعدك؟»، قالت باسمةً وبغنجٍ، دخلتُ المكان بسرعةٍ أقبّلها، وأشمّ شعرها الريحانيّ الرائحة. فعلناها في الغرفة نفسها التي رأت فيها

عمّها، لأوّل مرّةٍ، يضاجع امرأةً. ثمّ دخلتُ المطبخ لأعدّ قهوةً، كنتُ قد وعدتها بذلك في مواعيدنا الغراميّة الأولى، «أنا أفضل من يعدّ قهوةً في طرابلس كلّها». أعددت القهوة، وجلسنا في الغرفة التي لوّحت إليّ منها. «كيف سأعرف أنّها أفضل قهوةٍ في طرابلس»، «لنذهب إلى مكانٍ تثقين بقهوته ونجربّ بأنفسنا». شربنا قهوتنا بسرعةٍ وأمضينا بعض الوقتِ في الشقّة، كانت مليئة بالكُتب واللوحات الفنّيّة، وبأشياء غريبةٍ لم أرها في حياتي. لوحات لنساءٍ عارياتٍ، «هل أنتِ واحدة منهنّ؟»، «كيف تظنّ علاقتي بعمّي؟ لا طبعًا، سيجنّ إذا علم أنّي رأيتُ هذه اللوحات»، «كما سيجنّ لو رآنا هنا معًا الآن».

- الأمر معقّدٌ، من ناحيةٍ مّا نعم، أمّا من ناحيةٍ أخرى فلا. عمّي لا يؤمن بالزِنا في مفهومه المعروف، أعطاني ذات مرّةٍ محاضرةً عندما رأيتُ فتاةً في الشقّة تعدّ له الفطور. أخبرته بأنّ ما يفعله أمرٌ شائنٌ.

- هل أخبرته بتلك المرّة التي رأيته فيها مع امرأة؟

- لا، سيجنّ إذا فعلتُ ذلك.

- ماذا قال لكِ إذَن؟

- «الزنا يا زينب يا بنتي هي مواقعة الرجل المرأة من دون حُبّ». هكذا قال لي.

- ماذا يقصد؟ لم أفهم يومًا علاقتكِ به.

- يقصد أنّ الكثير من الأزواج في بلدنا يزنون بنسائهم.

- حقًّا؟ أمر غريب، من أين يأتي بهذه التعريفات الغريبة؟

- من الله.

- يبدو أنّ ربّه يختلف عن ربّي الذي عشتُ أتعلّم منه في الكُتّاب.

- لم يعلّمك الله، بل علّمك شيخ الجامع الذي لا يريدك أن ترى الدين الحقيقيّ.

- كفانا حديثًا عن الدين، لا أحبّ هذا. أستغفر الله.

- ماركوس.

- ماذا؟

- مقهى ماركوس، لنذهب إلى مقهى ماركوس.

قالت لي فجأة مبتعدةً عن ملاحظتي «هيّا، اخرج وسألحقك في الشارع». وهكذا ذهبنا إلى المقهى. طلبنا قهوةً وجلسنا نراقبُ معشر المثقّفين والصحفيّين، «تلك المرأة، إنّها كاتبة، رأيتها ذات مرّةٍ في شقّة عمّي» تقول لي زينب، «هل يمكنك التعرّف على ذلك الرجل؟ إنّه كاتبٌ ومخرجٌ شهيرٌ، أعتقدُ أنّه من قريتك»، «أعرفه، إنّه ابن خالة العبسي ابن عمّي، لم يعد إلى بئر حسين مطلقًا». «آه ياخ... القهوة سيّئة، إنّ قهوتك أفضل بكثير»، «أخبرتكِ».

ولكن يبدو أنّ قهوتي لم تعد أفضل بمراحل. خرج الرجل من السيّارة أوّلًا ليفتح الباب للمرأة في الخلف. خرجت من الحيوان المعدنيّ بحلّةٍ مختلفةٍ عن التي عهدتها بها. ملابس وشخصيّةٌ جديدةٌ، لكنّني تعرّفتُ عليها، كانت زينب. دخلت معه المقهى وجلسا في الشرفة مقابل القوس، تحوّل وجهي إلى لون الطماطم، لكنّني لم أعرف ما الذي عليّ فعله، «يا ميلاد يا ولد سيدي، يجب أن تقتل القطّ حتّى تخاف منك المرأة، إذا رأيتها معه في الغد، اضرب الزامل، إنّه القطّ، ولأكون دقيقا هو قطٌ سمين يجب أن يعاقب لأمور كثيرة غير ذلك»، خرجتُ من السيّارة ودخلتُ الساحة، وقفتُ في البدء بساحة مدرسة السباحة، أراقبهما، «قهوتي صارت سيّئة»، قلتُ لنفسي وأنا أراها تدخّن سيجارتها وتضحك مع الرجل الذي كان على الأرجح يحكي لها نكتةً، «هل تعرف أنّ لزوجي زبًّا صغيرًا، لم يمتّعني قطّ، وعندما تعرّفتُ على زبّك دهشتُ ممّا فاتني، إنّه لم يفلح حتّى في جعلي أحمل» يضحكُ الرجل من الخيال الذي صنعته وأنا أراها تتحدّثُ إليه، «مديري، رجلٌ سيّئ السمعة، إنّه يحاربني ويريد طردي من المكان»، أعدتُ شكاواها طيلة السنين الماضية حول العمل، بات شبح المكان يقبضُ على روحي بعد أن كان ولزمن طويل مستراحنا ومكاننا الذي نكون فيه عشيقيْن حقيقيّين دون خوفٍ من الأعين المراقبة، كنتُ أشعر بغضبي يتّقد داخل قبضة يدي، أردتُ أن أهشّم وجهه وألقي بجسده من شرفة المقهى، وعندما حاولتُ التحرّك ناحية المقهى شدّني ميلاد القديم يقول لي إنّ علينا أن نغادر المكان وسنحلّ الأمر عند عودتنا إلى المنزل، سنربط الحبل جيّدًا ونتأكّد أنّنا لن نتبوّل على أنفسنا ونودّع هذا العالم الغادر، وبدأت المشي ببطءٍ، تشدّني إلى الخلف رِجلٌ وتجذبني الأخرى إلى الأمام. أفلحتُ في الدخول إلى المقهى. نظرتُ إلى مكان جلوسهما من الباحة التي تتوسّط المكان، وصعدت من الدرج.

- ميلاد، ما الذي تفعله هنا؟ اعذرني يا أستاذ، هذا زوجي ميلاد... ميلاد هذا الأستاذ عبد النبي.

- لنعد إلى البيت.

- لحظة يا أستاذ من فضلك.

كنتُ واقفًا قربهما قاطعًا عليهما الحديث مفاجئًا زينب بوجودي. تغيّرت ملامح وجهها لمّا تأكّدت أنّي أنا واقفٌ أمامها بشحمي ولحمي. بادلتُ الرجل نظرةً حادّةً، بينما أحكمتُ الإغلاق على قبضتي، كنت أريد أن ألكمه، أن أقتل القطّ أمامها حتّى تخاف هي. كانت نظرته ساخرةً، كأنّه يتطلّع إلى الرجل الذي يملكُ هذه «الفرس المتمرّسة» على الكرسيّ المقابل له. تطلّعتُ إلى الطاولة، علبة سجائر أمام كلّ منهما، وأكواب قهوةٍ وماء. خطر لي أن أمسك بزجاجةِ الماء وأهشّمها على رأسه، لكنّ فراسة زينب وإدراكها للتوتّر في الموقف جعلها تتصرّف بحكمةٍ. كانت تقرأ علامات الغضب على وجهي. نهضت وأخذتني بيدها نتحدّث في زاويةٍ بعيدًا عنه، «هيّا نتحرّك، رجاءً يا ميلاد، سأحكي لك كلّ شيءٍ»، قاومتُ جذبها لي لحظةً ولكنّي تحرّكت بعد أن سمعتها تقول لي «ميلُو، صدّقني»، ممسكةً بإصبعي الخنصر.

- ماذا تفعلين مع هذا الرجل هنا؟

- الأمر معقّد يا ميلاد، أرجوك عد إلى البيت وسأخبرك بكلّ شيء.

- أنتِ تكذبين.

- لا أكذب ولم أكذب عليك يومًا يا ميلاد، أرجوك أنصت إليّ. أنا زينوبة. قالت لي توجّه عينيها باتّجاه عينيّ تدعوني إلى تصديقها.

- هيّا لنعد إلى البيت.

- لا.

- أنا... أنا زوجكِ وهذا أمر منّي، هيّا.

شدّت اهتمامَها النظرةُ التي كنتُ ألقيها عليها وعلى الرجل. أحسّت بأنّ أمرًا مختلفًا فيَّ. لم أكن ذلك الميلاد الذي تعرفه، كأنّ جنيًّا تلبّسني مستعدّ للفضيحة والعراك. تركتْ إصبعي وذهبت إلى

الطاولة تعتذر من الرجل، «اعذرني يا أستاذ عبدالنبي، حالة طارئة حدثت في العائلة»، قالت له، وخرجنا من المقهى. صعدنا السيّارة وقدتُ بها عائدًا إلى البيت. لم نتحدّث طيلة الوقت. كان صمتٌ غاضبٌ يعمّ السيّارة. أنا أقودُ بسرعةٍ وهي تمسك قبضتها، وتحكّ أظافرها. وصلنا إلى البيت، دخلنا، ألقت بحقيبتها ومتاعها عند الدخول، ثمّ واجهتني:

- ما الذي يحدث؟

- أخبريني أنتِ عمّا يحدث.

- كيف عرفت أنّنا في المقهى؟

- تبعتكما.

- لماذا فعلت ذلك؟

- حتّى أتأكّد بعيني.

- ممّ تتأكّد؟

- ممّا سمعته عن علاقتكِ بهذا الرجل الحقير.

- هل أخبرك ابن عمّك السكّير ابن السكير بذلك؟ هل تعتقد أنّني أخونك؟ هل هذا ما تعتقده؟ هل تظنّ أنّني عاهرة ألقي بنفسي على الرجال؟ هل أنت أحمق؟

- نعم أنا أحمق، أحمق إن تركت زوجتي تعاملني هكذا.

ونشب الخلاف بيننا. في البدء كان حربًا كلاميّةً، تلقي هي بمشاعرها المشتعلة في وجهي، وأردّ عليها. أعدنا سرد شريط حياتنا بمشاعر مخالفةٍ لما كانت عليه، «لقد تزوّجتني لأنّك فتحتني، اعترف بذلك يا ميلاد، كن رجلًا ولو مرّةً واحدةً في حياتك، وقل لي إنّك خفت الفضيحة مع المرأة العاهرة، التي تراها أمامك، قل الحقيقة بلا منيكة الحُبّ والمشاعر وكلّ ذلك الكلام الفارغ الذي كنت تقوله لي»، «أنا المجرم في هذه العلاقة؟ كلّ ما يهمّكِ هو نفسك وما يراه الناس عنكِ، وكلّ ما يهمّك هو قصصكِ وحياتكِ، أنتِ أنانيّة، هل سألتِني يومًا عمّا أريده أنا؟»، «أنت لست رجلًا، ولم تكن كذلك مطلقًا. كنتُ أشفقُ عليك عندما أراك تغسل الصحون، أو تغسل الملابس، أو

تتصرّفُ كطفلٍ هروبًا من مشاكل حياتك وخوفًا منها، أمّا الآن فأنا أحتقرك»، «وأنتِ، أنتِ لم تحبّيني يومًا، كنتِ فقط تريدين شخصًا مثلي، حتّى تتمكّني من فعل ما يحلو لكِ في هذه الحياة، عرفتِ ذلك من أوّل يومٍ عرفتني فيه، استغللتِني واستغللتِ طيبتي، هل يمكنكِ حقًّا أن تعترفي بذلك؟»، يتلو هذه الحرب الكلاميّة تهشيمُ أوانٍ، بكاءٌ من طرفها، رفعي ليدي عاليًا واشتداد عروقي وحمرة وجهي، يتلوها أن تذهب إلى المطبخ حاملةً الدقيق ملقيةً إيّاه على الأرض، ممسكةً بالحلّة مهشّمةً أواني الطبخ الخاصّة بي، ثمّ تخرج خدّوجة من الثلّاجة، وترميها باتّجاهي «هذا ما أظنّه بك وبهواياتك الصغيرة وطيبتك المقرفة يا ميلاد، أحيانًا أتمنّى أنّك لم تكن أنت، أن تكون شخصًا آخر يملك بعضًا من الكرامة لمواجهتي، خذ خدّوجتك هذه وادخل زبّك فيها لعلّها تحمل منك». يتلوها أن أنزع إحدى لوحاتِ عمّها عن الجدار، وأخرج الرسم لأمزّقه أمامها بعد رؤيتي خدوجتي تتكسّر وتفسد على الأرض، «وهذا ما أظنّه بعمّك، الذي طحنت كبدي من قصصكِ معه. هل ناككِ وأنتِ طفلة ومصصت زبّه كما مصصت زبّ مديركِ من أجل نشر أعماله؟» يتلوها صراخها وجريها نحو اللوحة باكيةً، «أيّها الريفيّ الوقِح، كيف تتجرّأ على ذلك؟». حاولتْ لملمة شتات اللوحة. كانت مقرفصةً على الأرض تبكي، وقفتُ متجمّدًا نحوها، «اضرب القطّ حتّى تخاف المرأة يا ميلاد»، قال لي العبسي البارحة، نهضتْ بقوّةٍ تمسحُ دمعها، تقدّمت نحوي، صفعتني ودخلت غرفة النوم، أغلقت الباب على نفسها.

في حيرتي ممّا حدث، وخوفي من طلب الطلاق المحتّم حدوثه، صعدتُ إلى سطح البيت. مرّ ببالي مشهد انتحار جارتنا من الطابق الثاني من بيتها، سقطت المرأة على رأسها، فارتطمت بالحائط الفاصل بيننا وبين بيتها، ومن ثمّ ارتدّت جثّتها على الأرض فانفتحت جمجمتها، ونزفت وحدها طوال ساعات خروج زوجها للعمل، وعند عودته وجد جثّتها تسبحُ في بركة من الدم. المثير للسخرية أنّني كنتُ، في ذلك الوقت، بالمطبخ أعدّ الكرواسون في الشقّة، بعد شهرٍ من عودتنا من تونس لأوّل مرّةٍ. سمعتُ صوت ارتطام شيءٍ في الخارج بينما كنتُ أجهّز الزُبد وأضعه على العجين، ولأنّ العمليّة كانت معقّدةً، لم أشأ الخروج لتقفّي أثر الصوت. نظرتُ من النافذة نحو بيت جارنا، رأيتُ بقعةً من الدم على الحائط الفاصل بيننا، «هؤلاء الجيران وعاداتهم الغريبة»، كانت زوجة جارنا تذبحُ ديكًا أسود بين فينة وأخرى، خوفًا من سحرٍ مّا يفسد حياتها، وفكّرت أنّها سكبت الدم على الجدار الفاصل بيننا خوفًا من كوننا مصدر السحر. صعدت إلى سطح دار الدرج، أشاهد المسافة التي تفصلني عن الأرض. لم تكن المسافة بعيدةً، فالبيت مكوّنٌ من طابقٍ واحدٍ في العموم، إلّا أنّ هناك دار الأدراج المضافة، حتّى نتمكّن من استغلال السطح في المستقبل إذا تزوّج أطفالنا. أعدتُ مشاهد العراك فيما بيننا، متأكّدًا من أنّني لن أنسى هذا العذاب إلّا بعد ارتطام رأسي بالأرض، «كان عليَّ إخبارها بأنّها لم تعد تحبّني أو تحبّ قهوتي ولا خبزي ولا البيتزا التي

أصنعها»، ظننتُ أنّي نسيتُ هذه المحاججة في العراك، «الوداع يا زينب، سأريحكِ منّي»، وتخيّلتُ مشهد سقوط جارتنا فقَفَزْتُ.

ولأنّني أحمق، فشلت محاولتي الأخيرة في الانتحار. سقطتُ على قدميَّ من مسافة خمسةِ أمتارٍ على تُربة الحديقة. كنتُ قد سلّمتُني للقدر، لمّا قذفت بنفسي في سقوطي الحُرّ، لكنّ القدر أراد لي آلامًا في الركبة، وصرخةً حقيقيّة أسمعت زينب التي حبست نفسها في غرفتها، فتحت النافذة فوجدتني مرميًّا على الأرض، غير قادرٍ على الحركة، أتألّم من قدميَّ المثقلتيْن، قذفتُ ما أكلته في الصباح، «ميلُو»، صرخت زينب مسرعةً لإنقاذي، حملت رأسي على حجرها وناحت حتّى تأتي النجدة. كنتُ كقطعة لحمٍ مقدّدٍ بين يديْها، «ماذا حدث يا ميلاد؟»، قالت لي متناسيةً العراك وهي تمسحُ العرق عن خدّي وجبهتي، انتزعتني ابتسامةٌ من ألمي، وأنا أرى زوجتي تترك خلافنا وراءها. ثمّ غبتُ عن الوعي.

(٦)

ثمّة بعض من الذكريات، في تونس، أريد أن أسردها عليك، قبل أن نتابع القصة، هل يمكنني ذلك؟ لقد تذكّرتها الآن وأنا أنظر إلى الدرّاجة، لن أطيل الأمر عليك، أعدك. زرنا تونس أكثر من مرّةٍ. عشقنا ترابها، وكنّا نريد العودة إليْها بعد تخطّي الحدود التونسيّة إلى الأخرى الليبيّة، رغم مشقّاتِ الطريق وتحرّش الحرس الوطنيّ. بعد تلك الليلة في جِربة، مع السي بنيامين وسارة، غرقنا في حبّها بعد التخوّف منها ومن احتقار أهلها لنا، كما حدّثني العبسي عنهم. في تلك المرّة، زرنا الحمّامات، وبقينا فيها أسبوعًا تحت ضيافة أخت بنيامين –ولكنّنا دفعنا حقّ الضّيافة في هذه المرّة-، كان للمرأة درّاجتان واحدةٌ لها وأخرى لزوجها، سعدت برغبتنا في ركوبهما، فعرضتهما علينا. تجوّلنا في المدينة وشواطئها كلّ صباحٍ، كانت زينب سعيدةً بعودتها إلى ركوب الدرّاجات، الهواية التي غادرتها في العاشرة من العمر كأنّها تغادر حبيبًا لها، ولكن عندما رأت الدرّاجتيْن العجوزتيْن قفزت شوقًا تتفحّصهما. في الحمّامات، أيضًا، دخلنا الحانات، ودخنا تحت الغروب، وناقشنا الباعة والتجّار، وتعشّينا وبحثنا عن الوطن. في تونس العاصمة، زرنا حلق الوادي والمرسى والمدينة القديمة، وتهنا في أزقّتها وأحيائها كما فعلنا في طرابلس. في كلّ مشوارٍ، أو حفلة تسكّع كنّا نقول «الله لو كان بطرابلس حتّى سينما سيّئة مثل هذه». عندما ندخل شارع ابن خلدون، المتفرّع عن شارع الحبيب بورقيبة، ندخل المطاعم الرخيصة، ونأكل شواء الأرواح ونجرّب الملاوي والبريك والفركاسيه من الدكاكين الصغيرة. نتبعُ خيط ضوءٍ ونحن داخل شارع كتّاب الوزير، حتّى نخرج لنستكشف سوقًا شعبيّةً يسمّونها الخربة. نخرجُ من السوق لنبحث في زقاقٍ ثانٍ عن أمرٍ قد يطرفنا،

نزور سيدي محرز وندعوه أن يوفّقنا في حياتنا القادمة. ندخلُ للصلاةِ معًا في جامع الزيتونة، أو نقف على كورنيش المرسى نأكل البوب كورن، ونشاهدُ البحر، كأنّنا شخصيّاتٌ من فيلم «صيف في حلق الوادي». ندخلُ أحدَ مطاعم السمك في حلق الوادي ونطلب بوخة بوخبزة لي ونبيذًا لها مع وجبة سمكٍ مشويّ. نركبُ القطار من حلق الوادي إلى سيدي بوسعيد، ونصعدُ بين الأبنية البيضاء المتراصّة كأنّها عنان السماء، نشرب القهوة السيّئة والشاي باللوز في مقهى سيدي الشبعان، ونحن نشاهد طيور النورس تحوم حول السفن في المرفإ، ندخل في مماحكاتٍ حول السعر مع تاجر يبيع السيّاح الأجانب مطفأة سجائر، أو صينيّةً ثمّ نتركه مخبرين إيّاه أنّنا وجدنا سعرًا أفضل ممّا يعرضه، نجري ضاحكَيْن، في تستور نلتقي بالأسطى اخميّس تستضيفنا عائلته ليومين بحفاوةٍ لا مثيل لها. يصحبنا اخميّس كمرشدٍ سياحيٍ لزيارة الحارة القديمة، ونأكلُ أفضل بيتزا في تستور، ثمّ يحجز لنا يومًا خاصًّا في حمّام العائلة البُخاريّ. ألعب معها في الحمّام وحدنا، ونمارس الجنس وسط البُخار وحرارته، ثمّ أسكبُ عليها الماء البارد، كما فعلت الفتاة في «صيف حلق الوادي». تحاول أن تهرب منّي وسط الحمّام الزلق فتنزلق، لكن تسقطُ بأمانٍ بالقرب من بركةِ ماء فأنزلق ليلتصق ميلاد الصغير بـخدوجتها. أيّام جميلة، كنّا خارج الزمن، خارج حياتنا الخاصّة، ومستقبلنا الذي ينتظرنا عند العودة.

في السفرات اللاحقة كنّا نزور بنيامين وسارة متى استطعنا. نحاول لقاء الأسطى اخميّس، الذي صار جَدًّا. نحضرُ معنا هدايا من ليبيا، نحاول الاستمتاع بالرحلة، لكن لم يكن الأمر شبيهًا بالمرّة الأولى، خصوصًا في الرحلة الأخيرة بتونس. كانت زينب قد أسقطت الطفل، وأردتُ أن أروّح عنها، خطّطتُ لرحلة بأسبوعٍ نزور فيها طبيبًا هناك، ونحاول استعادة بعضٍ من أيّام الزواج الأولى بأن نحضر في تستور حفل زواجٍ تونسيٍّ لإحدى بنات اخميّس. لم يسر الأمر كما خطّطتُ له، بدءًا من توقّف البيجو في منتصف الطريق إلى العاصمة، ومحاولتنا اللحاق بحفلة العُرس، إلى وقوفي ساعةً على طريقٍ ريفيّةٍ أنتظرُ أن يشفق علينا أحدهم بعد فشلي في إعادة الروح إلى السيّارة. كانت السيّارة العجوز مثقلةً بأعطابٍ كثيرةٍ تعهّدتها بالإصلاح مرارًا، وصار محرّكها يريد الراحة من جديدٍ. كنّا متوقّفين على جانب الطريق، كدتُ أخرج عن طوري، إلّا أنّني رأيت زينب على جرف الانهيار، ولم أرغب في أن يؤثّر مزاجي عليها. بعد مرور تلك الساعة الثقيلة من الانتظار والتلويح إلى السيّارات المسرعة توقّف مزارعٌ ريفيٌّ يجرّ حمارًا مثقلًا من التعب عربةَ خضاره. عاين السيّارة معي، وأخذ منّي سجائر، واتّصل برافعةٍ. كنتُ أراقبُ زينب التي كان وجهها أصفر، تكاد تستفرغ ما أكلته على الطريق. مضى بعض الوقت قتلته بالحديث مع الرجل، «وقوف السيّارة في منتصف الطريق يعدُّ فألًا سيّئًا، إنّها علامةٌ على ضرورة العودة، كن حذرًا»، قال لي الريفيّ. تذكّرتُ ما خلّفته في القرية، أُمًّا عجوزًا في نهايات عمرها، أختين لم تتزوّجا بعدُ

وأختًا مطلّقةً وأخرى حديثة الزواج، نسيبًا لا يحبّني، وأحيانا أشعر بأنّه يحتقرني، وأخاه الذي اندفع في ذلك الزمن نحو جنون العزلة المطلق. ودّعني الريفيّ كملاكٍ ينقل إليّ وحي الله، واختفى عندما وصلت الرافعة. ركبتُ السيّارة بينما كانت الرافعة تنقلنا إلى تستور، «انظري، كأنّنا نطيرُ في السماء»، قلتُ لزينب ظنًّا منّي أنّ حالها ستتحسّن. كانت تعيشُ في دوّامةٍ مظلمةٍ، لم تأبه بما قلته. بعد صمتٍ قالت لي:

-الطريق متعبة.

- لكنّها لم تكن كذلك في المرّات السابقة.

- نعم، الشمس أذابت عقلي.

أمضينا تلك الأيّام كيفما اتّفق، كنتُ أظنّ أنّ القدر قدّم لنا هديّةً لنبدأ حياتنا من جديدٍ عندما اتّصل بي الأسطى اخميّس يدعوني إلى عرس ابنته بعد شهرٍ من فقداني ابني وهو لايزال في بطنِ أمّه، أردتُ أن نصل إلى تستور قبل كلّ شيءٍ، وفي طريق العودة سيكون بإمكاننا مبيت ليلةٍ عند بنيامين لنسبح في البحر. لا أتذكّر من أيّام العُرس إلّا القليل، لا أذكر إلّا صمت زينب وسط زغاريد النساء في يوم الحنّة وهي تبتسم بصعوبةٍ. لا أذكر إلّا صوت كلبٍ ينبح في الليالي ونحن نائمَان في إحدى غرف بيتِ اخميّس، فأستيقظ ولا أعود إلى النوم وأظلّ أسترجع ذكرياتي مع اكحيلة وريكس والمادونّا. لا أذكر إلّا جلوسنا حول طاولة واحدةٍ في حفلة العرس وزينب تنظرُ بحسرة إلى الوجوه كأنّها تتمنّى أن يكون عرسنا كذلك، ثمّ تغرق في أكل البقلاوة وتحاول أن تستمتع بوقتها بلا جدوى، يتلطخ الكُحْل حول عينيها، فتذهب إلى الحمّام ثمّ تعاود الجلوس بصحبتي وتظلّ تراقب الحفلة.

في آخر يوم وقبل انطلاقنا نحو العاصمة، زرنا الجامعَ الكبير وصلّينا في محرابه الأندلسيّ، زرنا المقبرةَ التي تقع على الرابية لنرى منزول([10]) اخميّس ومن ثم ذهبنا للجلوس في المقهى. «أنا الآن مستعدٌّ للموت»، قال لي اخميّس في وسط طاولات البطحاء بينما كانت زينب تشربُ الكوكاكولا تفرغ فيها نزقها من الحياة وتتابع عيناها الحَمَام وهو ينزلُ على الساحة ليلتقط ما يرميه له المرتادون من الحبوب. «لقد سامحتُ عمّك الحاج محمّد في ما فعله بي» ابتسم اخميّس مستذكرًا بعض ما مرّ بنا في الكوشة، لم أكن مستعدًّا لمسامحة عمّي بهذه السهولة، خصوصًا أنّني لم أكن قد أنجبت ابني بينما تمكّن اخميّس من تزويج آخر ما ولدت زوجته.

نجلس نحن الثلاثة نشاهد الناس يتحرّكون في المدينة الصغيرة ببطء، أبحث مع اخميّس في ما قد جدّ في حياة الباهي ومسعود، «سمعتُ من الباهي بغرق مسعود وهو يحاول «الحرقة» نحو إيطاليا بعد عودته إلى عنّابة، كان في الخمسين من عمره عندما استبدّت به الرغبة في الهِجرة»، يقول لي اخميّس، «عنّابة رحتي خسارة» قلتُ له، كنتُ حزينًا من أجل رجلٍ شهمٍ قتلته بلاده مرّتيْن، مرّةً عندما مرض بالعودةِ إليها ومرّةً بالهروب منها، «إذَن، ماذا حلّ بالباهي؟»، قلتُ له، بينما كانت زينب تطلب قنّينة كوكاكولا جديدةً، كانت الثالثة على التوالي، تأخذها من النادل وتشعلُ سيجارتها، عيناها غارقتان في السواد، «الباهي حاله باهي، افتتح دكّانة حلاقة»، «المرّة القادمة عندما أذهب إلى عنّابة سأسلّم له رأسي»، أقول له. يرى اخميّس حزن زينب الغارق في الكوكاكولا، فينهض ويعزمنا على زيارة ما تبقى من المدينة قبل المغادرة، نزور إحدى مزارع البرتقال في المدينة، ندخل الأزقّة والأحياء القديمة ونخرج منها مثقلين بالتعب، كنتُ لا أسمح لها بمغادرة يدي، أمسكُ بها كطفلة، خفتُ أن تختفي فجأةً من حياتي في هذه المدينة الغريبة التي لا نحمل معها إلّا ذكرياتٍ قليلةً عن أيّامٍ جميلة.

فقدتُ كلّ الذكريات الأخرى عن أيّامنا في تستور، وعمّا فعلناه بعد عودة الروح إلى البيجو حتّى وصولنا إلى تونس مرّةً أخرى، كان علينا أن نلتقي بالطبيب. صرفنا المال الوفير من أجل فحوصاتٍ لا تريد زينب أن تجريها، «لا أرغب في ذلك» تقول لي، «علينا المحاولة، مازلنا نسبح، هل تذكرين؟»، أقول لها، فتجيب: «إن كنت تخاف الغرق ستغرق»، ثمّ تُضيف: «لا أريد الغرق يا ميلاد»، لكنّها كانت غارقةً في حزنها، لم يفلح الفركاسيه ولا الملاوي ولا حتّى حانات حلق الوادي في علاج حزنها؛ حاولتُ خلقَ جوٍّ رومانسيّ وممارسة الجِنس لأوّل مرّةٍ بعد فقد الجنين فكانت تسلّمني جسدها بلا رغبةٍ أو شهوة. لقد كنتُ «أزني» بها حسب تعريف عمّها.

في اليوم التالي ذهبنا إلى الطبيب، ولكنّ كلامه لم يُشفِ غليلنا: «أنتما على خير ما يرام، عليكما فقط الإيمان بالله... يحدثُ أحيانًا ألّا تتّفق بُويضات المرأة مع حيوانات الرجل، كما يحدث في الحياة»، كان الطبيب يلوك كلماته بنبرةٍ خاليةٍ من المشاعر ساقيًا الشكّ في جدوى «رفقتنا» في الحياة؛ خرجنا منه كما دخلنا، عدنا إلى الشقّة، حزَمنا حقائبَنا وألقينا بها في صندوق البيجو؛ أخافتني البيجو في البداية بالتوقّف عن العمل؛ شتمتُها وضربتُها وارتعش جسدي وأنا على عجلة القيادة غير مُدركٍ وجودَ زينب التي حاولتُ مدّةً أن أخفي عنها مشاعري؛ ضربتُ عجلةَ القيادة مرّةً أخرى؛ أصبتُ يدي، صرختُ من الألم، سأعرفُ عند وصولنا إلى طرابلس أنّها انكسرت؛ تضحك زينب: «أخيرًا»، تقول لي ثمّ تعود إلى صمتها تراقب الطريق والناس والسيّارات والله والسماء والأرض؛ يشتغلُ محرّك السيّارة، أقودها بلا توقّف إلّا للتبوّل في حمّامات محطّات الوقود في

الطريق إلى جِربة؛ نصل جِربة، نذهب مباشرة إلى بيت بنيامين، يرنُّ جرس دار غزالة بينما أنتظر بنيامين ليخرج حاضنًا زينب باعثًا فيها روحًا مّا؛ تخرج سارة وحدها كنَبتةِ صبّارٍ ذابلةٍ هي أيضًا، تتلقّفنا باكيةً؛ نعرفُ سببَ حزنها من الحضن الحارّ الذي لاقتنا به؛ موت بنيامين بسرطان الرئة منذ أشهر، صارت تعيش وحدها في البيت، نعجز أمام سطوةِ الموت، كان الماضي يودّعنا، أمضينا اللّيلة في صمتٍ، سارة، زينب وأنا نجلس متحلّقين حول الطاولة ذاتها، هذه المرّة من دون موسيقى ولا ضحك ولا أفلام ولا بيتزا، «وقوف السيّارة في الطريق يعني الفأل السيّئ، لا بدّ لكما من الرجوع» أتذكّر كلمات الرجل الريفيّ، لو عدنا فحسب لما استمرّت هذه الأخبار السيّئة في الوقوع على رؤوسنا، بتنا تلك الليلة متنافرين، كنتُ أدسّ بكيني اشتريته خلسةً من تونس في حقيبتي لأفاجئها به، ظلّ موجودًا فيها حتّى هذا اليوم، لم أفرغه من تلك الحقيبة قَطُّ؛ مرّت اللّيلة كحلزونة ثقيلة على ظهر حوت.

في الصباح التالي أهدتنا سارة جهاز الفونوغراف مع الإسطوانات وهي تودّعنا عند باب البيت، كانت تحتضننا وكأنّها لا تريد أن تحرّر جسدينا منها، «وصيّة أبي، إذا عاد الليبيّ الغريب الأطوار»، تقول لنا مبتسمةً قبل أن تحتضننا من جديدٍ.

نعود من حيث أتينا؛ نمر بسبخة طائر الفلامنقو؛ تتأهّب زينب للقاءِ أصحابها، كطفلة تضع يديْها على زجاج السيّارة منتظرةً رؤية الطائر الورديّ، أبحث عن سرب الطيور في السبخة الفارغة الكئيبة، كنتُ أعتقد أنّ اختفاء زينب الجسديّ منّي يجعلني أرى الأشياء أكثر قتامةً لا طعم لها ولا رائحة، ولكنّ اختفاءها الروحيّ كان أقسى عليّ. «يبدو أنّه ليس موسم الفلامنقو»، أقول ونحن نترك السبخة وراءنا، «كاذب» أقول لنفسي، «نعم، يبدو كذلك»، تقول لي، «كاذب» تقول في نفسها؛ نعود إلى البلاد، أبحثُ عن الفأل السيّئ الذي ينتظرني: انتحر عمها الفنّان في شقته.

أنا أحتاج إلى فنجان قهوةٍ الآن، هل أُعدّ لك واحدًا معي؟

---

10 المنزول: القبر في تقاليد أبناء مدينة تستور بتونس.

بيت العائلة

«البنات زرّيعة إبليس»، مثل ليبيّ.

(٧)

عندما أنهي فنجان قهوتي، أحبُّ أن أقلّبه دقائق. أدعُ البُنّ العالق في قاعه يرسو على جدران الفنجان، ومن ثمّ أمضي في قراءة طالعي، متبيئًا أيّ إشاراتٍ قد تدلّني على ما يستجدُّ في حياتي. هي عادة تعلّمتها من مجالسة أخواتي، كغيرها من العادات الأخرى. علاقتي بالقهوة معقّدةٌ. في العادة أفضّل الشاي في تمضية يومي، شاي العالة، الشاي الخفيف بالقرفة، أو النعناع، يدعوك إلى السكينة. القهوة تدعوك إلى ترويض قلقك. ومنذ تعرّفي على شاي زينب بالقرفة ابتعدتُ عن القهوة وطعمها اللّاذع. أحيانًا، يمضي أسبوعٌ كاملٌ دون أن أتذوّق فنجانًا واحدًا، وفي أحيانٍ أخرى أمضي يومي كلّه حول البكرج. سأقرأ لك الطالع إن وددت ذلك.

في طفولتي كنتُ ألعب مع أخواتي «الأمبي شلامبي»، و«النقّيزة»، ونغنّي «جنيّن صالح، التفّاح، طاب وفاح». لم تستحِ أخواتي منّي يومًا على عكس أبي. كنّ يجلسن العَشيّ في جنان البيت يتناوبن على تنظيف شعر أرجلهنّ وأياديهنّ، أجلسُ منصتًا إلى آلامهنّ، بينما يُنتَزعُ شعرهنّ ملاحظًا طريقة فعل ذلك، تأخذُ الواحدة منهنّ بعضًا من الحلوى، تمطّها وتجهّزها، تضعها على الساق، محرّكةً إيّاها من الأسفل إلى الأعلى، حتّى ترتاح على مسافةٍ، ثمّ تنتزعها من الأعلى بسرعة. عندما يدخلُ أبي تجري أخواتي ليخبّئن بفساتينهن السيقان نصف الحليقة، واضعاتٍ الحلوى حيث لا يمتدّ لها نظره. تبتسمُ صالحة، تغمزُ صفاء لي. مرّةً يتركنني ألمسُ بشرتهنّ لأستشعر الفرق بين القَبل والبَعد، «ردّ بالك تتزوّج امرأة مشعرة يا ميلّو»، تقول لي صفاء محذّرة إياي من النساءِ اللّائي يمشين بسيقان كأنّها غابات الأمازون. يقولون إنّ الطريق إلى الجنس تبدأ بنظرةٍ فابتسامةٍ فقبلةٍ، كلّ شيءٍ يشبه الجنس، فطريقي نحو تنظيف شعر زينب بدأت بمشاهدتي ما تفعله أخواتي. اعتَدن عليَّ، ثمّ تركنني أعيش محاولتي الأولى تجريبَ الأمر، مررتُ بالحلوى على شعرِ ذراع صالحة ونزعته بطريقةٍ جعلتها تستلذّ الألم الطفيف، «يا إلهي يا ميلّو مرّة أخرى»، أعيد تمطيط الحلوى وتجهيزها للمساحة المتبقّية من الشعر. أضعها بطريقة مخالفةٍ، ثمّ أسحبها بسرعةٍ خارقةٍ.

اعتادت أخواتي على يدي، كما اعتدن على صناعتي للحلوى. في المرّات اللّاحقة أضفت إليها قليلًا من العسل لأنّها وببساطة تشبه شراب العسل الصناعيّ، وبعضًا من ماء الزهر. اعتدن على الحلوى التي أصنعها، شعرن بأنّها أخفّ وأكثر فاعليّةً من طريقتهنّ التقليديّة. في العادة، وبعد أن ننتهي من ذلك، كنّا نجلس في العَشيّ لشرب القهوة حذرين من أعينِ أبي المراقبة. ننهي فناجيننا، فتأخذها صالحة وتقلبها ثمّ تقرأ لنا الطالع، «هناك شمس تشرق على سوركِ العالي يا صباح، يبدو أنّك ستتزوجين»، «آه يا ميلاد، هناك فرصة تلوح لك في الأفق»، «يا إلهي، انظري إلى البومة يا صفاء»، تمسك فنجان صفاء وتقرّبه منها وتشير إلى مكانِ البومة، «أين هي، لا أراها»، «عينان كبيرتان، إنّهما عينا البومة، سترك يا رب»، ثمّ تبصق في صدرها متطيّرةً من الشرّ القادم لأختها.

أنا لم أتعلّم الكثير من أخواتي فقط، بل عنهنّ أيضًا، بل إنّني أعرف عنهنّ أكثر ممّا يعرفن عن أنفسهنّ، مشاكلهنّ وطموحاتهنّ، صالحة ومشكلتها مع شعرها الذي ظلّت تغيرّه طيلة حياتها، حبّها للتصوير بالفساتين والبذلات الجديدة التي تشتريها أمام جهاز الراديو، أو التلفاز، أو أمام مزهريّة، خيبتها في الدراسة، وخوفها من الصراصير، طريقة حديثها، وما الذي يمكنه أن يستفزّها لتضحك، أو لتلقي ردًّا مضحكًا، رغبتها في معرفة كلّ ما يجري حولها، وعادتها في إلقاء أسئلةٍ لن تغنيها الإجابة عنها ولن تسمنها من جوعٍ. تلك المرّة التي كادت تتزوّج فيها قبل أن يتدخّل عمّي محمّد ليطرد العريس، الذي لم يكن مناسبًا لابنة أخيه «المفضّلة»، كرهها له وحقدها عليه، ومرور الزمنِ عليها وخفوت جمالها وخراب شعرها الذي استيقظت صباحًا تبكي بعد أن حلقته كاملًا ظنًّا منها أنّ حلاقته ستجعله ينمو صحّيًّا من جديدٍ، حبّها للخرافات ولتفسير الأحلام. صفاء، روحها الساخرة وقدرتها على الفوز في أيّ نقاشٍ، وتذكيرك بما يناقض ما تقوله في الماضي، حبّها للملابس المليئة بالصور، وجوه نساء وشخصيّاتٍ كارتونيّةٍ وأزهارٍ، إفراطها في الأكل عند الحزن، أو في أيّام الدورة الشهريّة، حبّها لشوكولاتة الورد، وقدرتها المذهلة على الغناء، مشاغلها ومشاكلها في المدرسة وتعبها من بكاءِ الأطفال، اعتزازها بكونها امرأةً مستقلّةً، وبأنّها لم تقبل يومًا أن يحكمها رجلٌ غير والدها، ورفضها للعرسان واعدةً نفسها بألّا تتزوّج قبل أختها الكبرى. هوسها بالتسوّق وشراء ما استجدّ، وبحثها الدائم عن موضةٍ جديدةٍ، حتى لو تخطّت العمر المناسب لها. صباح، كيتي من الصبوحة كيْ، وقصّتها الحزينة التي تدمعني كلّما ذكرتها، وسواسها بالنظافة واشمئزازها من منظر الغُبار على الأثاث والأمتعة ومن الروائح الكريهة، طلاقها من زوجها، بعد أن أنجبت منه طفلين هنادي ومهنّد، روحها الحسّاسة والقلقة جعلتها تهرب من كابوسٍ مليءٍ بالإهانات والضرب والشتائم والإذلال والخيانة الزوجيّة، صمتها المطبق في غالبيّة الوقت وشجاعتها تجاه الصراصير، على عكسِ بقيّة النساء اللّائي عرفتهنّ، قدرتها على التكيّف مع الكآبة والتسامح وحبّها اللّامحدود لأطفالها. أسماء، المدلّلة، ومحبوبة أمّها، علاقتها المضطربة بي منذ

طفولتنا، وتنافسنا على حبِّ أمّي، غضبها السريع الذي يذكّرني بأبي، رغبتها الدائمة في العمل بالكوشة، رغم رفض أبي ذلك، اتّهامها للتقاليد التي تربّت عليها، وتمكّنها من مواجهة الخوف الذي يطلّ على بقيّة أخواتها، مرحها وتسامحها مع من يسيء إليها، ومعرفتها بقدراتها التي جعلتها تصنعُ ألذّ الحلويّات المخبوزة التي ذقتها في حياتي.

مثل علاقتي بالقهوة، كانت علاقتي بهنّ مضطربةً أيضًا، مليئةً باللحظات الحُلوة والمُرّة منذ أن كانت صالحة وصفاء تأخذانني معهما نتسكّعُ في أزقّة الظهرة، أو ننزل إلى شارع أوّل سبتمبر نتفحّصُ دكاكين بيع المكياج والملابس النسائيّة، تشتريان لي الآيس كريم، وتطلبان منّي أن نُبقي الأمر سرًّا بيننا، لا داعي إلى أن يعرف أبي ما تفعله بناته، عندما يغيب في الكوشة، أو في مشوار إلى قريته الأمّ، أو تحملانني حينما أمرض إلى المستوصف لتُغرز الإبر في مؤخّرتي، وتتناوبان على حملي إلى البيت، تخفيان أسرارهما الأنثويّة في جيبي مع بعضِ النقود، وتطلبان منّي أن أشتري لهما تلك الحاجة. نتخاصم لسببٍ تافهٍ، فنغضب ونرضى ويحنّ قلبي إليهنّ. تحاولان التسلّل إلى سينما عمر الخيّام باستخدامي. تجلسان في مقهى مبهورتيْن بالتجمّع الرجاليّ وسط المدينة، تشتريان ثلاث قنانٍ من مشروب كيتي كولا وتعودان بي، أحيانًا تستخدمانني للحصول على شيءٍ من أبي. ينظرُ إليّ الرجل العجوز بنوعٍ من الريبة حول ثمنِ كرّاس الحساب الذي تضيفان إليه ثمن أشياء أخرى، «حسنًا، إنّهما كرّاستا حساب» أقول لأبي الذي اقترب من حلّ اللّغز، «كيف؟»، «واحدة للتحضير وواحدة خارجيّة لي، لأحلّ المسائل الصعبة»، ولأنّ أبي لم يحلّ يومًا المسائل الصعبة، يرضى من أجل العلم والتعلّم، ولكن أيضًا من أجل أن أتركه وخبزه وشأنهما. يدخل في مغامرةٍ رومانسيّةٍ مع العجين، تلبسانني ملابسهما القديمة، وتضحكان ثمّ تمتصّان قبلاتٍ عميقةً من خدّي، تلعبان بي كدميةٍ صغيرةٍ وحيّةٍ بين أياديهما، القليل من البودرة الحمراء على خدّي وأساور للفتيات الصغيرات، ومحاولات لجمعِ شعري المجعّد في خصلةٍ واحدةٍ فوق رأسي تربطان الآستيك حولها، ثمّ القليل من أحمر الشفاه والكحل على عينيَّ، من أجل طرد العيْن، تصوّرانني بآلة التصوير التي سرقتاها من دُرج أبي، تضحكان داخل الغرفة، فتأتي أمّي لتستكشف ما تفعلانه، تغضبُ منهما وتؤنّبهما، لكنّ الضحكات لا تفارقهما رغم ذلك. تمسحُ أمّي آثار الأنوثة من وجهي وتسلّمني لعبةً ذكوريّةً. عندما يغيب عن عينيّ النوم تهدهدانني وتغنّيان لي «ننّي هوها، والغولة ياعنبوها» أو «ميلّو يا ميلّو إن شاء الله تولّي كبير، تمشي للعرّاسة وتروّح نصّ الليل، تلقى ماما تصلّي تدعيلك بالخير، وتلقى الخديمة مولّعتلك بندير»، تصفعان مؤخّرتي العارية عندما أفعلها في سروالي، أو عندما تشتعل صبيانيّتي وأغدو شقيًّا، تدافعان عنّي أمام غيرة صباح الطفوليّة. تضطرب علاقتنا عند ولادة أسماء، فأصير ذكرًا وحيدًا بين مجموعة من البنات، أشعر بوحدتي وبعظمتها داخل الشقّة، وأرجو الله أن يرسل إليّ أخًا ألعبُ معه. تتحوّل علاقتنا من علاقة بناتٍ

بلعبتهنّ إلى علاقتهنّ بأخيهنّ الأصغر، تتسلّل الغيرة إلى قلبي كتسلّلهما إلى السينما، فأصبح فتًى سيّئ الطباع مضايقًا أختي الصغرى، أرفض الأكل معها، أو اللعب، أو حتّى جلوسها بجانبي، أشعر بالمنافسة، فأرفض طلباتهنّ ورغبتهنّ في الخروج بصحبتي، فيزداد التباعد بيننا، أشتري لنفسي الحلوى وأمصّها في ممرّ الشقّة، يطلبن منّي المشاركة لكنّي أرفض ذلك، تأتي أسماء الصغيرة وتطلب ولو قطعةً واحدةً، أرفض وأكسّر الحلوى بسرعةٍ حتّى لا تقول لأمّي إنّني لا أحبّها ولا أريد لها أن تشاركني حلواي، أرمي بالعود تحت حذائها الأحمر الفاقع، تشتعل غضبًا فتأخذ أحد الأعواد وتغرسه في عيني، تحلّ كارثة بالبيت، تبكي أخواتي وتضرب صالحة أسماء، بينما أبكي من منظر الدم ينزلُ من عيني. يأتي عمّي محمّد ليصحبني معه إلى المستشفى، ويتأكّدون أنّ العود لم ينغرس تمامًا في عيني بل جرح الجزء الخارجيّ منها. تعودُ علاقتي الطبيعيّة بأخواتي ليدلّلنني.

ورغم تعلّمي على يدِ الأنثى، وصبغي إصبعي على يدِها، ورغم علاقتي بها، كنتُ أسعى بتشجيعٍ من أبي إلى البحث عن هُويّةٍ مخالفةٍ، هُوّيةٍ تركتني حائرًا من جدوى صناعة حلوى الشعر، ورفضي في أحيانٍ كثيرةٍ صناعتَها لأخواتي، أو حتّى الاقتراب منهنّ. هذه الهُوّية التي ازدادت تشكّلًا في بئر حسين، حيث صار وجود أبي في أفكاري وحركاتي ملحًّا أكثر من ذي قبل. في بيتنا، بيت العيلة العالي المظلّل بالحبّ، أختلي بنفسي لأوقاتٍ طويلةٍ، أو أجري من أخواتي إلى العبسي، نحاولُ لعب الكرة في الشارع الرمليّ، أو ملاحقة الفتيات الريفيّات، أو سرقة البرتقال من سواني القرية. يوجّهني العبسي نحو تلك الهُويّة الناقصة، نبحثُ عن الضفادع حول جابيةٍ مّا ونمسكها بأيدينا، يحكم عبسي قبضته على الضفدع، ويخبره بأنّ مصيره الموت إذا حاول الهرب. أهرب من أخواتي باحثًا عن الموت، لكن أجد نفسي راجعًا إليهنّ بعد عراكٍ طويلٍ مع العبسي. أدخل البيت باكيًا من ضربات الولد الذي يصغرني بسنواتٍ ثلاثٍ. تتلقّفني صالحة وتحتضنني، تستشيط صفاء غضبًا فتذهب إلى بيتِ عمّي لتلقين الفتى درسًا. «لا أحد يضرب أخي سوانا» تقول لزوجة العمّ، «قولي ذلك لابنك»، تعود العلاقة طبيعيّةً فأتعلّم منهنّ شيئًا جديدًا. مع امتداد الأيّام، أشعر بالقلق تجاه هذه العلاقة، يحرّكني تعليقٌ لأبي عن إصبعي المخضّب، أو لمحه إيّاي وأنا أزيل الشعر عن ساقِ صفاء، وشدّه أذني وطرده لأمّي، التي لم تعرف كيف تربّي ابنها، يفرّق بيني وبينهنّ. أقضي أيّامًا ثلاثةً في البيت، أنا وهو فقط. ينزع الحزام عن سرواله، ويجلدني حيثُ ما استطاع، «سأصنع منك رجلًا حتّى لو كان ذلك آخر يوم في حياتي»، «تنزع الشعر عن سيقان أخواتك أيّها المخنث؟»، ينهارُ بعد غضبه باكيًا حظّه، «أبي، هل تريد أن أصنع لك القهوة؟»، أقول له عندما أراه وقد ضاقت به الدنيا، يرمي الفنجان على وجهي، «لا أريد منك أيّ شيءٍ، أنت لست ابني»، «لا أريد أن أراك في المنزل بعد اليوم»، يذكّرني بأنّ البيت ليس للرجال، تعود أمّي

إلى البيت، فتضطرب العلاقة بيننا من جديدٍ. يموتُ أبي، فتتلقّفني أخواتي باكياتٍ، يحتضنّني بحثًا عن رجلٍ يحميهنّ من هذه الفاجعة، أخرّ راكعًا لذلّ الحياة، تعودُ علاقتنا إلى طبيعتها قليلًا قبل أن أقرّر الخوض في مغامرة العسكريّة.

أعودُ باحثًا عن تحقيق الذات. أجد العبسي يريد البدء في بناءِ البرّاكة، «هذا المكان، سيكون يومًا شاهدًا على ذكرياتٍ عظيمةٍ»، يقول لي العبسي وهو يشعل لُفافة سيجارة الحشيش –أو البافرة كما يقول عنها-، المخدّر الذي بدأ يتعاطاه الشباب بشراهةٍ، بينما أبني المكان له من الخشب وألواحِ الصفيح والخردة والقليل من الحجارة كأساسٍ للهيكل. أرصفُ الحجارة وأسوّيها وأرتّبها جيّدًا، بينما يحدّثني هو عن طموحاته وأحلامه وابن خالته المهاجر. يسلّمني السيجارة، أنظر إليها برهبة في البداية، «إنّها مثل سيجارة الصباح، لكن أكثر لذّةً»، أسحبُ منها فأدوخ حبًّا فيها، أمجّ منها ما استطعت لأنسى أيّام المُعسكر المثقلة، «إذَن، ماذا حدث في المعسكر؟»، يسألني، «لا شيء يستحقّ الذكر»، أجيب بينما أنصتُ إلى مغامراته الكوميديّة مع أبيه، وكيف تمكّن من جعله يجري مسافاتٍ طويلةً يحاول الإمساك به بلا جدوى، «كانت الأشهر الماضية صعبةً على العائلة»، يسحبُ من العُشبة ما يملأ به عقله، ويسردُ لي محاولات سيطرة عمّي على بيت العيلة وأخواتي. «هاهاها، الرجل اعتقد أنّ بإمكانه أن يكسر رأس أختك صالحة، أقول لك، إنّها تشبه جدّتي، كانت تمشّي جدّي على الحائط»، أنصتُ إليه بينما أعود إلى العمل على البرّاكة، متخيّلًا مشهد طرد صالحة له، وهي ترمي في وجه عمّها حذاءه تكادُ تصيبه، يتسلّل الحشيش إلى رأسي كتسلّل الغيرة إلى قلبي، أعتادُ عليه فأتتبّعه على ألحانِ موسيقى الرايْ وبوب مارلي وأغاني أحمد فكرون والأفلام المهرّبة ونُكَت العبسي، «هاهاهاها اسمع هذه القصة، إنّها حقيقيّة كما أراك وتراني»، وأفكّر في صدقِ العبسي، ومدى كونها حقيقيّةً، «سمعتها من أبي، قالي لي إنّ أحد الخبّازين الذين يعرفهم، حضر عزاءً وأخذ يتحدّث فيه عن أزمة الدقيق، شاهرًا أصابع الاتّهام في وجه الدولة، شاتمًا المسؤولين ومتحدّثًا بصوت جهوريّ في جمهور من الناس، وكان من ضمنهم مُخبران من مخبري الدولة، في اليوم التالي جاءه المخبران، طرقا باب بيته، أخذاه سحلًا إلى مكتب التحقيق، كان الرجل يرسم خيالاتٍ عن المحقّق الذي سيستخرج منه الاعترافات، كاد يبول على نفسه في الطريق، لكنّه عندما وصل إلى المكتب وجد المحقّق في هيئة كيس دقيقٍ ينتظره، قنطارٌ كاملٌ، أخبره أحدهما قائلًا إنّ الدولة قد سمعت شكواه، وأحبّت إهداءه هذا الكيس. أخذ الآخر رأسه وغطّسه في الكيس المفتوح. قال له كُلِ الدقيقَ، كُلْ، إنّه أجود الأنواع، نرجو أن يعجبك أيّها الكلب الضالّ، وقبل أن يتركاه مع كيسه وحدَه، أمراه بأن ينهيه في أقرب وقتٍ ممكنٍ. طيلة أيّام حبسه لم يكن هناك سوى الدقيق والماء ليسدّ جوعه. حاول أن يصنع عجينًا، لكن دون جدوى فاضطرّ إلى أكله نيئًا. ومع آخر حفنةٍ من الدقيق كان قد ترك نصف عقله في الكيس. عندما عاد إلى بيته، جاء

الناس يتحمّدون لسلامته، سأله أحدهم عمّا حدث، قال وهو يبحث في وجوه الناس عن مخبرٍ مّا: الحمد لله أنّه كان دقيقًا وليس فلفلًا، هاهاهاها، هل فهمتها؟»، أسكتُ قليلًا محاولا استجماع القصّة، متذكّرًا المادونّا وضربه إيّاي وتعذيبه، حامدًا الله أنّه فعل ذلك، وأنّني لم أبحث عن الرجولة في الحبس، حيث يُصنع الرجال الحقيقيّون. أضحك بعد وقتٍ طويلٍ من معرفتي المغزى من النكتة. أعودُ إلى البيت مخفيًا احمرار عينيَّ عن أمّي وأخواتي، ألتقي بصفاء في طريقي إلى غرفتي، تقول لي: «ميلاد، هل يمكن أن تصنع الخبز لنا؟»، «الحمد لله أنّه خبز وليس حلوى»، أقول ضاحكًا مغلقًا عليها الباب.

أنساق وراء رائحة العُشبة وحكايات العبسي عن القرية وأناسها، الكثير من النميمة والكوميديا والتثاقل على الكنبة القديمة تحت سقفِ العتبة، نبخّر أيّامنا، تطاردني خيالاتٌ عن قفزي من الجرف بدلًا من منير، أو شبحه الذي يقول لي إنّني لم أكن رفيقًا حقيقيًّا. الرفاق ينهون معك المشوار، حتّى لو تطلّب منهم أن يقفزوا إلى الموت. أستيقظ على ضحكات العبسي وأصدقائه من تجمّدي، لطالما كان الملعون يتمنّى في مثل هذه المواقف لو كان يملك كاميرا ليصوّرني، أسمع نميمته عنّي، «أخواته هنّ الحاكمات في البيت، لا يمكنه حتّى قول صباح الخير دون إذن منهنّ»، أسمعه يذكر سبب عودتي مبكّرًا إلى البيت، بينما أخرج من أسوار سانية البرّاكة. أعود إلى البيت، أجد صالحة في انتظاري، «ما بال عينيك حمراويْن؟»، تحقّق معي، «إنّ رائحتك غريبة»، تضيف بينما أبحث عن كلماتٍ تعززّ صورتي بوصفي رجلَ البيت أمامها، «ألم أحذّرك من صداقة عبد السلام، ها أنت لا علم ولا عمل، مثله»، «متى تعود إلى الكوشة؟ إنّها رزق أبيك»، أتركها تشرح لي تقدّم الأيّام بينما أجلس منهمكًا في تضييعها، يطلُّ شبح أبي على جسدها، أرى تشكّل الشنب على فمها، وتحوّل ملامحها إلى شيءٍ يشبهه. تتحوّل ملامحها مرّةً أخرى لتشبه المادونا، أضحكُ في وجهها. «عد إلى الواقع يا ميلاد» تقول لي في نهاية المحاضرة، «تمام سيّدي»، أرفعُ يدي وألقي التحيّة العسكريّة ثمّ أخلد للنوم.

في يومٍ من تلك الأيّام، التي تستيقظ فيها لتدرك أنّ كارثةً مّا تدور في الأفق، فعلت كما أمرني القدر، ذهبتُ صباحًا إلى برّاكة العبسي. كان نائمًا، مددتُ يدي إلى المكان الذي يدسُّ فيه حشيشه، راقبته، أصبحتُ شبيهًا به، أتتبّع كلّ الخطوات التي خطاها، لم يتبقَّ لي سوى الاستيقاظ باكرًا محدّقًا في فراغِ يومي. جلستُ على الكنبة تحت العتبة، بعدما نظّفتُ بقايا أمس العبسي الشريد بين سجائر الحشيش والبوخة، دخّنت سيجارةً عند الثامنة صباحًا، كانت تلك الساعة في سنواتي السابقة تعني ذروةَ العمل أو العلم. أنهي السيجارة فأنصرفُ إلى أحلام اليقظة بين حقل عبّاد شمس صغيرٍ زرعته ليبيع العبسي حبّاتها. أحرّك يديَّ بين الأزهار التي خلط الله ألوانها لتكون شيئًا يشبه الأصفر

والبرتقاليّ، تجذبني يقظتي نحو نهاية الحقل، يخرج طفلٌ من بين إحدى الأزهار، يضحكُ، ثمّ يختفي، يناديني أن أبحث عنه، تتسارع خطواتي داخل الأزهار وسط الذباب والبعوض، تزداد ضحكات الطفل فيزداد بحثي وسط غابة الأزهار، التي طالت سيقانها حتّى صرتُ كطفلٍ وسطها، أحدّق في يديَّ، تبدوان كيَدَي طفلٍ، ألمس وجهي فأجده أكثر نعومةً، يختفي شعر وجهي، أنظرُ إلى أعناق الأزهار العالية فوقي، فأرى وجوه رجالٍ يحدّقون فيَّ، «ماذا تفعل في الحقل؟» يقول لي أحد الوجوه، «يبدو أنّه ضائع» تقول إحدى الأزهار للأخرى، «ما رأيك في بعضِ الحبّات تمضي بها وقت الكساد؟» يعود الوجه الأوّل إلى حديثه، أحاول البحث عن مخرجٍ من الوجوه، لكنّها كانت قد التفّت حولي وأغلقت مساري، «ميلاد» يتحوّل وجه الزهرة إلى وجه أبي، «لماذا لم تأتِ إلى الكوشة اليوم؟ هل أمضيت الوقت في صنع الجدائل لأختك؟»، «هل أفسدت خدّوجة؟»، استيقظت خائفًا من الحلم وسط الحقل، «خدّوجة» قلتُ، أسرعتُ متّجهًا نحو الكوشة، دخلتها. مضى زمنٌ على آخر مرّةٍ رأيتها فيها. العمّ أبو سعيد يعجن، بينما يُدخِل أحد أبناء عمومته العجينَ إلى الفرن، «ميلاد، لم أرك منذ أن كان شعر شاربك ينمو ببطءٍ فوق شفتيك» يقول لي العمّ أبو سعيد سعيدًا برؤيتي، «أين هي؟»، «من؟»، «خدّوجة، أين وضعتها»، «لقد احتفظتُ بها من أجلك، رغم أنّنا لم نعد نستخدمها البتّة. كنتُ أريد إرسالها إليك مع سعادة البيه عبد السلام»، افتعلتُ مشهدًا دراميًّا في الكوشة، «الحمد لله أنّك احتفظت بها ولم ترمِها»، قلتُ له غاضبًا، سلّمني إيّاها خائفًا من الليبيّ القابع داخلي، ذلك الوحش الذي كان يراه في أعينِ العبسي المحتقرة له، «ها هي»، سلّمني الجرّة، حدّقتُ فيها، كانت تعِبة وتكاد تموت، أربعون عامًا من التربية والاهتمام بين أجيال مختلفة تكاد تضيع هباءً، «هل تطعمها دقيقًا أم فلفلًا؟»، سألته، «دقيق يا سعادة البيه، لكن الحاج محمّد»، «ما به؟»، «الحاج محمّد أخبرنا ألّا نضيّع الكثير من الدقيق فيها، خصوصًا مع أزمةِ الدقيق الحاليّة». حملتها معي، متجاهلًا قلقه، تقدّمتُ نحو أدراج عجين الخبز الجاهزة، أخذتها ورفعتها عاليًا في وجهه مخاطبًا شبحًا خفيًّا، «هل تسمّي هذه خبزة؟ إنّها عار»، رميتُ العجين على الأرض وحملتُ سفرة أخرى وفعلتُ الأمر ذاته، «ما رأيك في أزمة الدقيق الآن، قل لي ما رأيك؟»، «استهدي بالله يا ابني». يحاول العمّ أبو سعيد تهدئتي بينما يشاهد أقرباؤه توحّشي، «هل هذا ما آلت إليه كوشة الحاج مختار الأسطى؟ أين التوقيع؟»، «ها، أين التوقيع؟»، حاملًا خدّوجة بيدٍ وباليد الأخرى رغيفًا خرج من الفرن للتوّ يحرق أصابعي، أنظرُ إلى إصبعي الخنصر، لم يكن مزوّقًا بالحنّاء كما عهدتُه في طفولتي.

- هذه كوشة السنابل الذهبيّة.

سمعتُ الصوت الحديديّ ذاته، سقط الرغيف من بين يدي وأنا ألتفتُ إليه، كان عمّي بعيدًا عن تأثير الكحول في الصباح الباكر، أعجوبة لا تحدث دائمًا، كان ينظرُ إلى العمّ «أبو سعيد» محتقرًا وجودي كعادته، «يا أبا سعيد هل ستدفع أنت ثمن العجين المرميّ على الأرض؟ ما هذه المهزلة؟»، يقول له، «هل ستدفع ثمنه أنت يا سعيد؟»، «إذَن من سيدفع ثمنه؟»، يدير رأسه ناحيتي متحدّيًا وجودي في المكان.

- كنتُ أعتقد أنّك تركت الخبز لأخواتك يا ابن أخي.

- هذه كوشتي. أردّ عليه مرتجفًا.

- ثلث نصفها فقط يا ميلاد.

أشعر بأنّني محشورٌ في زاوية، أحاول الخروج منها فأتقدّم خارجًا من الكوشة، أمرّ بجانبه، فيمسك ساعدي، «حسابنا لم ينتهِ»، يقول لي بينما أعود إلى البيتِ حاملًا خدّوجة باكيًا، أجدُ أخواتي فأرمي وجهي في حجر إحداهنّ مخدّرًا بخيبتي وفشلي في استعادة ما هو لي.

(٨)

حتّى أكون صريحًا، أنا لا أحمل أيّ ضغينة تجاه حياتي السابقة، حتّى الأحداث السيّئة والمصاعب التي واجهتني أقابلها الآن بِسَعَةٍ من السكينة. فعلى سبيل المثال، كنتُ قد التقيتُ المادونّا في البيتزاريا بعد عشر سنواتٍ من أحداث العسكريّة، دخل ليطلب كغيره الفطائر، لاحظت الهزال وأرق الشيخوخة قد دبّا فيه بسرعةٍ، كان يلفّ عنقه بإزارٍ يدلّ على إصابته بسرطان الحُنجرة، وكانت معه حفيدته تمسك بيده، وقف أمام «الكاصة» وقال لعَرْفي إنّه يحتاج إلى بعض الفطائر لحفيدته الصغيرة، صوته الجهوريّ كان قد انتُزِع منه، راقبته من مكانِ عملي. لم أصدّق في البدء أنّ الرجل الهزيل الذي يواجه عَرْفي هو المادونّا، خرجتُ من مكان عملي أسلّمه الطلبيّة، واجهني، ابتسمتُ لاإراديًّا، كان يبحثُ فيَّ عن فتًى عرفه، إلّا أنّ تغيّر ملامحي ولعب الزمان بعقله جعلاه ينساني. ابتسم بفمٍ تعبٍ من الدنيا والتفكير في الناس الذين عرفهم، ثمّ جلس يطعم حفيدته الفطائر على إحدى الطاولات. راقبته وهو ينظر إليها كأنّه نسي أبناءه في مسارِ حياته ليكتشف أنّه صار جدًّا فأراد أن يعوّض لهذه الطفلة الحنانَ الذي فقده أبوها من جدّها. أخذتُ قنّينةً من كوثر ووضعتها على الطاولة، «على حسابي»، قلتُ مبتسمًا، ثمّ رفعتُ له التحيّة العسكريّة. حتّى عمّي، كلّما تقدّم في العُمر شعرتُ بالإشفاق عليه. كان يعيشُ في ظلّ أخيه منذ طفولته، ربّاه صحبة بناته وجعله ابنًا

له، لكنّه كان دائمًا أخاه الأصغر، لهذا أراد أن يتغلّب على هذا الظلّ، بأن يحمل شمسه عاليةً في السماء، ويكون ما لم يستطع أخوه أن يكونه، أن يقدر على الحياة، كنتُ أرى ذلك كلّما تقدّم بي العُمر، وتقدّم به، لم أنسَ يومًا ما فعله بي، ولكن كنتُ أتسامح بين فينةٍ وأخرى بعيدًا عن انفعالاتي العاطفيّة. أنا الآن أكثر اتّزانًا وسكينةً، هذا ما أحاول إخبارك به، دخلتُ إلى أعمقِ أعماق نفسي حتّى أناله، تعلّمتُ ذلك من صالحة.

هل أخبرتك بأنّ صالحة هي من دعمني في زواجي بزينب؟ كنتُ في أيّام الرفقة أعود إلى البيت أخبرها بموعدي الغراميّ مع زينب، «آه تلك الفتاة النحيفة، ابنة جارنا الأندلسي.. عرفتها»، «إنّها جميلة... يا بختك يا ميلاد»، تقول لي وهي تسمع قصصي عنها، وعن مغامراتنا اليوميّة داخل أزقّة المدينة، «لماذا لم تصحبها إلى جنان النوّار؟ اصطحبها هناك، رائحة المكان لا مثيل لها»، «هل اشتريت لها باقة من الأزهار؟ لا أحد يهدي بيتزا إلى فتاة»، تلقّنني النصائح عن العلاقة، تعيشها معي بحماس عينيها اللتيْن لطالما دهشتا من مشاهد الرومانسيّة في الأفلام، تنسى فنجان قهوتها ليبرد بينما تتابع معي ما حدث ومشاعري تجاه زينب، تتذوّق فنجانها فتشعر بالقرف، «انتظر، عليَّ تسخين القهوة»، تعود لتجرّ أخواتي الثلاث خلفها، يتحلّقن حولي جالساتٍ على الحصير في جنان البيت، يتابعن بذهولٍ قصّةً طريفةً حدثت لي معها. صفاء متّكئة على كتفِ صالحة، وصباح واضعةً رأسها على كفيّها تنصتُ بذهول إلى قصّة الحُبّ، بينما أسماء تنصتُ إلى ما أقوله بحشمةٍ وهي جالسةٌ خلف صباح، «هل قبّلتها؟»، تقول لي صفاء، «قل لي إنّك قبّلتها في الكورنيش»، تدفعها صالحة بعيدًا عن كتفها بأسلوبٍ فكاهيٍّ، أبتسم، «هل قبّلتها؟ هل هذا سؤال؟» تقول لها مقلّدةً صوتها بسخريةٍ، «احذر يا ميلاد، لا تقبّلها، إنه فأل سيّئ، لا تقبّل الفتاة قبل الزواج منها»، تحذّرني صالحة من الفعلة الشنيعة التي قد أُقدم عليها، «عادي، رومانسيّة» تقول لها صفاء ضاحكة، «رومانسيّة عينك»، تردّ عليها، ثمّ تلكُم كتفها، ويتحوّل حديثي عن مشاعري إلى نقاشٍ بينهنّ، «اسكتي، كنتِ تتمنّين أن يقبّلكِ فتحي أيّام المدرسة الإعداديّة» تقول لها صفاء مستفزّةً، أشعر بالحرج بينهنّ فتلتصق أعضائي في جسدي خجلًا.

- أريد الزواج منها.

أقول لصالحة بعد أشهرٍ طويلةٍ من مللي تسميةَ ما نقوم به بالرفقة، ورغبتي في أخذ الخطوة التالية. تدمعُ عيناها، تبحثُ عن الطفل الذي ربّته على يديْها يومًا داخلي، غير مصدّقة أنّني أصبحتُ رجلًا فجأةً، «حقًّا؟ ميلاد، الفتى المُتعب الصغير يريد الزواج؟»، تسألني، «هل ستزفّها بالكرّوسة، قل لي إنّك ستزفّها بالكرّوسة؟»، تضع كفّيْها تحت ذقني وتتخيّل جسدي داخل بدلة

العرس، حفل الزفاف وأيّامه السبعة المتواصلة في الفرح والغناء والرقص، «لا حاجة إلى مأدبة غذاء، يمكنك أن توفّر المال لشهر عسلٍ في تونس، ما رأيك؟ لطالما أحببتُ الذهاب إلى تونس وسأكون سعيدة إذا سافرت وحكيت لي كيف هي»، تبدأ في التخطيط للزواج ولسفري، تنطلق زغرودتها في أرجاء الشارع معلنةً أنّ عريسًا سيحلّ على بيتِ آل الأسطى، تتراكض بقيّة أخواتي لمعرفة الخبر الجديد الذي جعل صالحة تزغرد، «ميلاد، سيتزوّج زينب»، ثمّ تسري الزغاريد في عروقي كسريانِ الخميرة الجائعة في العجين. تتساءل أمّي عن الخبر، فتزفّه إليها صفاء بعد أن تقبّلني على وجنتيّ. تفرح أمّي ولكن تخبّئ أمنيتها في أن أتزوّج الفتاة التي تريد، «من؟»، «زينب بنت الأندلسي» تقول لها صفاء، «هل تعتقد أنّها تصلح بك؟»، تخفتُ الفرحة، «المهمّ أن يتزوّج من يريد يا أمّاه» تقول لها صالحة مدافعةً عنّي.

- إنّها كزهرةِ الحنّاء.

تحكي لي أخواتي عن زوجتي المستقبليّة. يصِفْنها لي كأنّني لم أرها من قبل، «الجسم يا محلاه، تعلق عليه سرب عرس ولا يسقط»([11])، تسردُ لي صفاء تفاصيل جمالها، «أمّا غمّازتاها... أمتأكّد أنّك لم تقبّلها من وجنتيْها من قبل؟» تتساءل عن سبب حلاوتهما، «لم أتوقّع أن تكبر لتصبح بهذا الجمال» تعلّق صالحة ونحنُ عائدون من الظهرة على متن البيجو، «لا بأس بها، لكنّ ابنة خالتك أجمل» تقول لي أمّي، «ابنة خالتي، ملاك، السمينة الفطحاء أجمل من زينب؟ لا شكّ أنّك تمزحين يا أمّاه»، تقول لها صفاء، «أمّها لطيفة، مازالت على ما عهدتها» تعلّق أمّي مبتعدةً عن النقاش، ونحنُ نقطع الطريق وسط سيدي المصري، «الله، كم تغيّرت سيدي المصري» تقول، «العيش في البلدة جعلنا ننسى البلاد» تخبرها صالحة بتحسّرٍ، «من سينزع عنّا شعر سيقاننا بعد الآن يا ميلاد؟» تسألني صفاء مراوغةً، «وهل مازلتِ تسمحين له برؤية ساقكِ؟» تقول لها أمّي مستنكرةً، لم تكن أمّي مدركةً أنّ أخواتي سيأخذن تعجّبها على محملّ الجدّ بعد زواجي، وأنّهنّ سيخفين عنّي سيقانهنّ عندما أدخل البيت.

- عمّك محمّد وافق ليكون وكيلك.

قالت لي صالحة في ذلك اليوم، ثمّ أضافت أنّه كان سعيدًا بسماعه الخبر منها، خلتُ أنّها خدعةٌ من خدعه إلّا أنّه طار من الفرحة، «أخبرني بأنّه سيتكفّل بكامل مصاريف الزفاف»، «من أجل أبي»، تنهي كلماتها، ثمّ تطلق زغرودةً أخرى. كانت هي من أمّنت لي العمل في البيتزاريا، بعد اتّصالها بوالدة عَرْفي وطلبها أن يجعلني أجيرًا عنده، «إنّ ميلاد أخي أفضل خبّاز عرفته البلاد، عليه فقط

أن يعطيه الفرصة وسيرى منه ما يعجبه»، كان لديْها فضل كبير عليَّ، لقد جعلت أمّي تبيع ذهبها بأكمله حتّى أصرف ثمنه في إنهاء ما تبقّى من الشقّة، ثمّ إنّها اشتركت في الجمعيّة من أجلي، وشاركتني في شراء قطع الأثاث لشقّتي، كانت تعطيني أفكارها بالخصوص، وتدلّني على أفضل مكانٍ يمكنني أن أشتري منه الأثاث، «لن يصلح بكم هذا الدولاب، انظر»، تقول لي ضاربةً الخشب بيديها. لولاها، لما كان لزواجي من زينب أن يتمّ.

كانت الأشهر الأولى صعبةً على زينب، لم ترتَح في مكانها الجديد، لم تطل سعادتنا الرقيقة بعد عودتنا من تونس إلّا أيّامًا قليلةً، صارت بعدها تطردني من السرير مخافة أن أغتصبها، كما صارت تخشى منظر جارنا السكّير وهو يراقب مطبخنا طيلة النهار مدخّنًا سجائره. ذلك الخوف جعلها لا تقترب من المطبخ لأيّامٍ. كنتُ فيها أطهو، مراقبًا جاري من خلف البرسيانة المغلقة، وهو يبحثُ في نوافذ الشقّة. كانت زينب تفكّر أكثر ممّا يجب في كلمات أخواتي العفويّة وتدرسها، وتحدّثني قبل أن نخلد للنوم عمّا قالته لها صفاء وتسألني عن قصدها، أو عن تصرّفات أمّي وخوفها من إهانةٍ مبطَّنةٍ لها، «الله يا بنتي، نحنُ لا نقطع اللحم هكذا»، «لا تسرفي في استخدام الزيت». لم تتمكّن زينب من التعايش مع الوضع، لكنّني كنتُ غارقًا في مسألةٍ أخرى، مسألة علاقتي بأخواتي، وتوقّفي عن الجلوس في العَشيّ لشرب القهوة معهنّ، عن تصرفاتهنّ المتغيّرة تجاهي. بعد حادثة شجارها مع صالحة كنتُ مخنوقًا، فمن ناحيةٍ أريد أن أؤسّس لنمطٍ جديدٍ مع زوجتي، ومن ناحيةٍ أخرى لم أكن مستعدًّا لفقدان علاقتي بهنّ. كنّ ينتظرن بتلهّف تحوّلي من أخ مطيع إلى زوجٍ مطيعٍ، أمضيتُ بعضًا من أيّامي كئيبًا، إلى أن حلمتُ بذلك الكابوس، لمّا رأيت صالحة تمسك بكلبٍ أسود ضخمٍ أمام باب شقّتي، تنتظر منّي أن أنزل. سُجِنتُ في البيت، ولم أتمكّن من النزول، لكنّها لم تختفِ ولا كلبها الأسود الشبيه بـ«ريكس» من تحت باب شقّتي، عند ذلك قرّرت النزول حذرًا منه، أطلقت صالحة الكلب نحوي، وعندما قفز على جسدي استيقظتُ أتصبّب عرقًا، فهمت الإشارة، وقرّرت أن أتحدّث معها.

- كلب أسود؟ من المستحيل أن أنوي لك الشرّ أبدًا.

تقول لي بعد أن أستفرد بها في غرفتها طالبًا الصفح والحديث معها، قائلًا لها إنّني أحبّ زوجتي، وإنّها لم تقصد يومًا أن تقلّل من احترامها لها، تمدّ يديْها نحوي وتقول لي اطمئنّ، فهي لا تحمل ضدّها أيّ سوءٍ، «لقد كنتُ أنزع برازك بيديّ هاتيْن من مؤخّرتك»، تقول لي باكيةً، أخرج من المنزل لأشتري لها بعضًا من الزهور هديّة اعتذارٍ. أخبر زينب بما حدث، «لماذا أخبرتها بحلمك؟»، لم تكن تعرف مدى تعلّق صالحة بالأحلام، وخوفها من أن يكون الحلم حقيقيًّا. لم أرغب

في دخول متاهة إيضاح ذلك لها، «أحيانًا لا أفهمك يا ميلاد» تؤنّبني بكلماتها القاسية، فأصمتُ باحثًا عن خلاصٍ في جدران الشقّة.

- لكنّها أختي الكبرى.

- قد تعرف أختك، ولكن لا تعرف المرأة داخلها.

قالت زينب مخبّئةً سرًّا لا أعرفه عن النساء، تنصرفُ إلى الحديث عن عملها ومتاعبها مع مديرها، «أحيانًا، أفكّر برغبتي في فضحه على الجريدة».

ها، فنجان قهوتي قد برد، لنصنع فنجانًا جديدًا، فأنا لا أحبّ تسخين القهوة الباردة.

(٧)

- هناك غيمة، غيمة بيضاء وضخمة تطلّ على أيّامك القادمة، وجه رجلٍ مليء بالدقيق يحوم حولك، الحمد لله.

قالت لي صالحة في عشيّة اليوم الذي هربتُ فيه من مواجهة عمّي، حاملًا خدّوجة. أمضيتُ يومي منكفئًا برأسي على حجرها، والكآبة تطلّ على أفكاري. خلّلت أصابعها في شعري تهدهدني بلحنٍ قديمٍ، كدتُ أنسى وجوده، «يا بيت العيلة يا عالي يا امظلّل بالحبّ، ياللّي فيك اجتمعوا عيالي، بالروح وبالقلب، فيك اْتمّينا وعرفنا معنى الودّ سنين»، أغرق في نومي على صوتها الملائكيّ، وأختبئ من حلمٍ ظلّ يطاردني طيلة الأيّام التي لحقت زمن المعسكر. يتكرّر الحلم كشريطٍ مُملٍّ يجعلني أفكّر في حقيقته، ليلٌ، غاباتٌ، سورٌ عالٍ وكلابٌ تلاحقني وكلبٌ أسود ضخمٌ يشبه المادونّا ينتشلني، أستيقظ على صوتها «ميلاد، اشرب معي القهوة». تناولنا الفنجانين وخبّرتني بأنّ عمّي قد جاء بحثًا عنّي إلّا أنّها طردته، «كيف تستطيعين فعل ذلك معه؟»، «إنّ عمّك لا يكبرني إلا بسنواتٍ خمسٍ، كنتُ أجري خلفه ونحن أطفال، فيختبئ خلف أبي. كان جبانًا ولايزال كذلك»، كانت تحدّثني عن علاقتها به، وكيف استطاعت أن تفرض شخصيّتها القويّة، من النادر وجود مثل هذا النموذج الأنثويّ في البلاد، فمهما فعل الرجل يجب على الأنثى ألّا ترفع صوتها عليه، درسٌ رفضتْ صالحة تعلُّمه من أمّي طيلة حياتها. أذكر موقفًا كوميديًّا حدث بينها وبين أبي، كان يؤنّبها على توقّفها عن الدراسة، وفشلها الذريع في تحصيل العلم، «ها أنت أمامي، لم تدرس البتّة»، قالت له، فتحرّك نحوها ليضربها، ولكن قبل أن يفعل نهضت من مكانها تجري. أذكر أنّني كنتُ طفلًا أشاهد أبي يجري خلف صالحة، في دوراتٍ متواصلةٍ حول الجنان وداخل البيت، ومن ثمّ إلى

الجنان مرّةً أخرى. اقترب من الإمساك بها، ولكنّها راوغته وكاد ينزلقُ. وعندما تمالك نفسه أطلق ضحكةً وهو يبحث عن أنفاسه: «أنت تذكّرينني بأمّي»، يقول لها.

- عمّك، آه منه، شرك وجاء في الحجر.

تركتُ أفكارها تعوم وهي تحدّثني عنه، «لم يكن دائمًا هكذا، كان فتى أبي المدلّل، لم يرد الحاجّ مختار أن يُشعر أخاه بأنّه من غير أبٍ». ارتشفت من قهوتها، وسلّمتني قطعة غُرَيْبَة هشّة، «ذق، لقد صنعتها اليوم، جاء بها عمّك من الكوشة»، ثمّ حلّقت في البيت بنظرها، تبحث عن أمّي، أو أيًّا من أخواتي، وشوشت بسرٍّ في أذني، أغلقت فمِي بقفلٍ خياليٍّ صنعته، وأشارت إليّ بأن أحفظه في قلبي، «كدتُ أنسى إخبارك بحلمي»، رفعت فستانها قليلًا ولملمته وهي جالسةٌ كأطفال الخلوات القرآنيّة، ثمّ بدأت في سردِ حلمها بينما ترتشف من قهوتها، «حلمت بأبي، كان يرتدي لباسًا أبيض، ويحمل في كفٍّ رغيفَ خبزٍ طليانيٍّ، وفي الكفّ الآخر مفتاحًا، كنتُ أظنّه مفتاح الكوشة، قال لي أين ميلاد؟» أخبرته بأنّي نائمٌ، ولكنّ إجابتها لم تكن شافيةً، كرّر سؤاله. في كلّ مرّةٍ كانت تجيبه الإجابة ذاتها، «أين ميلاد؟» «إنّه نائمٌ يا أبي»، سكت قليلًا ثمّ أجابها بأنّي لستُ نائمًا، بل ميّت، «ميّت؟ ميلاد مات؟»، سألته محاولةً استنطاق إجابةٍ منه، لكنّه كان قد غاب عائدًا إلى حفرته، تاركًا الرغيف والمفتاح على قبره. أخذتهما وبحثت في حلمها عن بابٍ تستخدم المفتاح فيه، كان هناك بابٌ يشبه غرفتي تطير حوله الغربان، فتّتت رغيف الخبز وألقته بعيدًا، حتّى تتمكّن من ولوج الباب دون أن تضايقها الطيور. فتحت الباب، لم أكن موجودًا بالغرفة، لكنّ ما رأته هو صورٌ معلّقةٌ على الحائط، مشاهد عديدةٌ لي، أبدو فيها ميّتًا بطرقٍ مختلفةٍ، سمعت صوت أبي مرّةً أخرى يقول لها: «أين ميلاد؟».

كان خيال صالحة واسعًا وفسيحًا. أخبرتني المدام أنّ هذا الحلم ليس سوى انعكاسٍ لما كانت تمرّ به في حياتها، وقلقها الشديد حول وضعي في العائلة. لم يكن لها أن تخفي ذلك القلق سوى في الأحلام، الصور المعلّقة هي السيناريوهات القلقة التي كانت تنسجها مخيّلتها. كانت تتخيّل أشكالًا عديدةً لموتي شبه المؤكّد. لكنّ صالحة كان لها تفسيرٌ آخر، قالت لي بعد أن أنهت سرد حلمها، إنّها تخشى أن يكون الحلم رسالة تحذيرٍ من أبي، من العالم الآخر، حيث اطلّع على الغيب ورأى موتي، وإنّ عليَّ الحذر من تتبّع الطرق التي قد تؤول إلى موتي، منها وبطريقة غير مباشرةٍ أن أتخلّى عن مصاحبة العبسي، أو أقلّل منها، فهو ميّتٌ سريريًّا، «لا أريد أن أفقدك يا ميلاد، أنت ظهري»، قالت لي، «قد تكون البيجو هي الخطر، هل تأكّدت من صلاحيّة السيّارة؟ إنّ عمرها الآن قارب

خمسة عشر عامًا». ارتشفتْ آخر قطرات القهوة في فنجانها، ثمّ قلَبَتْه، «لا تخبر صفاء بأنّنا سنقرأ الفنجان، ستغضب إذا علمت أنّني فعلتُ ذلك من دونها»، قالت لي، ثمّ أخذت فنجاني وقلَبَتْه.

- حسنًا، لم تعد تحكي لي أحلامك؟

- أنا؟ لم أعد أحلم.

- كاذب.

- ....

- يا ميلّو، أنا أعرف جيّدًا متى تكذب.

- حسنًا، كيف ذلك؟

- تحكّ إصبعك المخضّب، آه صحيح، لماذا لم تعد تضع عليه الحنّاء؟

- لا أدري، لم أصبغه منذ وفاة أبي.

- لقد مضى زمن على وفاته، هيّا لقد طحنتُ الأيّام الماضية الحنّاءَ وأفكّر في بيعها، لكن عليَّ أن أجرّبها فيك أوّلًا، سأجهّزها بينما ترسو القهوة، وتحكي لي آخر أحلامك، اتّفقنا؟

- حسنا، اتّفقنا.

كانت مصمّمةً على إخراجي من كآبتي في عشيّةٍ واحدةٍ. لقد حضّرت خليط الزيت والحنّاء والماء وقطرات الليمون منذ الصباح الباكر، كأنّها قرأت المستقبل وجهّزت نفسها له، حتّى تحجزني العشيّة لها وحدها. أتخيّلها الآن وقد استيقظت من حلمها المُرعب، متذكّرةً أنّني لم أعد أخضّب إصبعي، فاستنتجت أنّ أولى الخطوات في طريق عودتي إلى طبيعتي هي أن تصبغه من جديدٍ، حتّى أتذكّر من أنا كلّما نظرت إليه. جاءت تحملُ الصينيّة وبعضًا من الشاش، كنتُ أفكّر في قطعة الحشيش التي تركتها تحت العبسي، أسأل نفسي عمّا إذا كان قد انتهى منها أو لاحظ غياب بعضها عندما استيقظ.

- هيّا احك.

- ماذا؟

- حلمك، هل نسيت اتّفاقنا؟

- حسنًا، ولكن عليكِ ألّا تخبري أحدًا.

- وعد.

لفّت إصبعها الصغير حول إصبعي، وبدأت في صبغه بينما تركتني أسردُ لها الحُلم الأخير، «حسنًا، لم أخبرك يومًا بما حدث في المعسكر»، «ماذا حدث؟»، «أشياء مروّعة.... كان هناك رجل يدعونه المادونّا». واصلت سردي، «كلب أسود ضخم، يا الله، هذا ليس فألًا حسنًا»، «لماذا لم تخبرني به قبل ذلك؟»، تمضي في عتابي بينما تحكم إغلاق الشاش حول إصبعي، ثمّ تجلس لتنصت إلى ما تبقّى من أحداث معاناتي التي لم تشهدها. لم أشأ أن أعرّج على موتِ منير، وماذا فعله بي ذلك، ومحاولتي الانتحار وسط المعسكر، لم أشأ أن أرعبها وأؤكّد مخاوفها حول موتي، كانت مرعوبةً من حلمي واضعةً يدها على فمها مندهشةً من كلّ العذاب الذي يمكن أن يلقاه رجلٌ في معسكرات الجيش، حامدةً الله أنّه ليس على المرأة أن تقاسي ما يقاسيه.

- وهكذا، كان الحلم يتكرّر بشكلٍ شبه يوميٍّ.

- لطفك يا رب، هل التقيت به هذا المادونّا بعد مغادرتك المعسكر؟

- لا.

- احذره، لا تلتقِ به أبدًا وإذا رأيته اهرب منه.

- حسنًا.

- اسمع، يجب أن أذهب إلى الشيخ لأحضر لك حجابًا يحفظك.

- لا داعي إلى ذلك، أنا لا أحبّ الشيوخ وسحرهم وما يفعلون، ثمّ إنّني سمعتُ الإمام في صلاة الجمعة يقول إنّ السحر حرام مهما يكن الهدف منه.

جلسنا منتظرَين جفاف فناجين القهوة، وبدأنا في الطقس الأخير من العلاج. خيّم علينا صمتٌ خافتٌ يتركني أتأمّل كلّ الحنان الذي تمنحني إيّاه، وما إذا كنتُ سأنالُ مثل هذا الاعتناء من زوجتي المستقبليّة، لم أكن قد عدتُ إلى التسكّع في الظهرة ذلك الوقت، ولم ألتقِ بعدُ بزينب. أتخيّل زوجتي برائحةٍ تشبه النعناع مثل صالحة. امرأةٌ قادرةٌ على انتزاع الظلمات من قلبي وإرشادي نحو النور، تحوم حولها إشارةٌ ربّانيّةٌ تعنى بالحنان وأخرى تُعنى بالحماية، كان هذا كلّ ما رغبت فيه. امرأةٌ تنجبُ لي أطفالًا كثرًا، وتعتني بمشاعري، لا شيء أكثر من ذلك. تخيّلتُ صالحة وقد تزوّجت وأنجبت أطفالًا، كنتُ سأحسد أبناءها على هذه الأمّ العظيمة، غبطتُ نفسي على أنّ عمّي قد منع عنها ذلك، كنتُ أنانيًّا في فرحتي، لكن أليس كلّ الأبناء أنانيّين عندما يخصّ الأمر علاقتهم بأمّهم؟

- هناك غيمةٌ، غيمةٌ بيضاء وضخمةٌ تطلّ على أيّامك القادمة، وجه رجلٍ مليءٌ بالدقيق يحوم حولك، الحمد لله.

قالت بعد أن قلبت وجه فنجاني وهي تتمعّن تلك الخطوط المتعرّجة على حافته، «ها، انظر»، أكّدت لي أنّ ما تراه هو عين الحقيقة، قرّبت رأسي إليها لأرى الفأل الحسن، تسلّلت الطمأنينة إلى صدري كتسلّل الحشيش إلى عقلي، هدأت، انبثقت صفاء وصباح من باب البيت حاملتيْن أكياسًا من الأواني الجديدة كنّ قد اشترينها، صاحت صفاء غامزةً بصوتٍ لذيذٍ.

- الله الله، خيانات.

أفلتت منّي ضحكةٌ، بريئةٌ وخاليةٌ من أيّ تأثيرٍ خارجيٍّ، ثمّ غبتُ في هيئة الغيوم التي تسحبني نحو أيّامي البيضاء القادمة.

(٨)

قد يراودك من كلامي ظنٌّ بأنّ أيّام زينب في بيت العائلة كانت كلّها سوادًا محكمًا، وهذا خطئي، إذ أنّني أنسى أين تذهب بي قصّتي. أشعر وأنا أقصّها عليك، وكأنّني قد سمعتها لأوّل مرّةٍ. أكتشف أحداثها، وما سأفعله لاحقًا مثلك، لذا، وجب عليَّ الاعتذار مرّةً أخرى. ولكي أعوّضك، عليَّ أن أريحك من هذا التخمين بأن أقول لك إنّها لم تكن كذلك. فقد جاءت، بعد الأشهر الأولى من الزواج، أيّامٌ جعلتني أعتقد أنّ زينب اكتشفت الجانب الذي أراه في بيت العائلة. أمست تتشهّى جلسات شاي العالة وتتعرّف على تقاليد بئر حسين وجلسات النميمة التي تتخلّل أفواه النساء. عقدت صداقةً مع هنادي وسرّبت لها بعضًا من الكُتب التي قرأتها في عمرها، أحبّت تعبيرات صالحة وتبنّت بعضًا

منها في أحاديثها، تمكّنت من التسلّي بقراءة الفنجان كما أفعل، وسلّمت نفسها لِيَدَي صفاء التي تهوى المكياج، تراقصنَ تحت شجرة الحنّاء يغنّين لضوءِ ينسجه قمرٌ خفيٌّ خلف النخيل المحلّق حول البيت، نفخت معهنّ في شمع كعك عيد الميلاد، الذي كنتُ أشتريه في ذكرى كلّ منهنّ، انجذبت معهنّ إلى ما تبقّى من سواني بئر حسين في أصيافها المثمرة تقطف ثمار التين العسليّ، أدارت أصابعها حول عجينة الكعك تصنعُ حلقاته وهي تنصتُ إلى قصّة عنّي من فمِ صفاء، دخلت في مغامرات التعرّف على أجودِ أنواع المنظّفات وفائدة الخلّ في انتزاع البقع من خبرة صباح، وسمحت لنفسها أحيانًا بأن تنام بين أخواتٍ أربعٍ حتّى فجرِ الجمعة، وهنّ يسردن لها خفايا ما لم تخبره في المدينة طيلة طفولتها وشبابها، عن أزقّةٍ لم تعرف وجودها، وأناسٍ لم تلتقِ بهم كنّ يسرقنَ من دكاكينهم ومقاهيهم البريوش والحلوى، وعن مغامرات الشباب الذين عرفنهم بعيدًا عن أعين الأب المراقبة والأمّ القلقة، كانت تنجذب إلى جلسات العَشِيّ.

في إحدى تلك الجلسات، وقد خطّطن فيها لنَزع شعور أرجلهنّ، كانت زينب قد أخبرتني ورأت أنّ عليها تحضير الحلوى لهنّ، «لكنّي لا أعرف كيف أصنعها»، قالت بينما كانت تحدّثني عن حماسها في فعلِ أمرٍ لم تتقاسمه قطُّ مع أيّ فتاةٍ من قبل حتّى صديقاتها في الجامعة، «الأمر هيّن، كلّ ما عليك فعله هو...»، شرحتُ لها طريقة صنعها، بينما أضيف المكوّنات وأبدأ في تحريكها ثمّ تركها حتّى تتماسك، «لا تنسيْ ماء الزهر»، «هل هو ضروريٌّ؟»، «لا، ولكنّه يترك رائحةً طيّبةً على الساق»، أحدّثها عن السرّ الذي يجعل حلواي تتميّز من البقية، «ألازلت تذكر ذلك اليوم الذي نزعته عنّي في شقّةِ عمّي؟»، استدعت الماضي الأوّل بينما كنت أراقب نضج الحلوى، وتحوّل لونها إلى الذهبيّ، ذلك الماضي الذي يشعرني بالخجل تجاه حماقاتٍ ارتكبتها باندفاعٍ نحو الحبّ، مارسنا حيلةً جديدةً في الحُبّ فوق سريره، نُنهي الحميميّة بصرخةٍ منها، «هل تعتقدين أنّ الجيران سمعوا ذلك؟»، «لا يهمّ، فليذهبوا إلى الجحيم، المنافقون»، ضحكت، ثمّ تحرّكت عارية في الشقّة، «لطالما وددت أن أفعل ذلك»، كنتُ أطلّ برأسي من شبّاك النافذة بعد اختفاء جسدها في الحمّام، وأبحثُ عن متلصّصين، أشمّ رائحة حلوى الصوف اللذيذة تأتي من بائعٍ متجوّلٍ ينادي الناس «صوف... صوف، حلوى صوف، للصغار والكبار». «ها، أنا جاهزة»، أطلّت من الحمّام مرّةً أخرى بعد أن نظّفت نفسها، «ماذا؟»، «الحلوى أيّها الأبله»، قالتها بغنجٍ وهي تمدّد ساقيْها العاريتين حول الباب، «حلوى الصوف؟»، «هل تمازحني؟»، «هاهاها، أنا آتٍ»، ثمّ نجلس بالقرب من شرفة الشقّة الواسعة حيث يقضي الفنّان أغلب يومه في رسم لوحاته، اللوحات موزّعةٌ حول الأرضيّة، وضعت زينب شرشفًا أبيض ملطّخًا بألوانِ عمّها، وجلست على الأرض، كان شعاعُ الشمس يتخلّل البرسيان الأخضر الطويل ثمّ ينعكسُ على جسدها العاري كلوحةٍ زيتيّةٍ، يرسم الشعاع خطوطًا على حلمتيْها وبطنها وعنقها، كنتُ عاريًا مثلها، شعرتُ به وقد تحرّك من جمالٍ ما

رآه، «حسنًا، إنّها لا تشبه حلوى الصوف، عليكِ أكلها بسرعةٍ حتّى لا تلتصق بلسانك»، قلتُ لها وأنا أمسك بحفنةٍ منها مقرّبًا إيّاها إلى فمها. تضحك، أجلسُ على الشرشاف مثلها وأقول لها: «هذه أوّل مرّة؟»، «نعم، هل هي مؤلمة؟»، «ليس كأوّل مرّةٍ في ممارسة الجنس»، أخبرها وأمطّط الحلوى، وأضعها على ساقيْها، تتلألأ المادّة البنّيّة الذهبيّة على جسدها بانعكاس خيوط الشمس، «هذه ستجعل الجيران يسمعوننا»، قلتُ لها جاذبًا الحلوى إلى الخلف نازعًا الشُعيْرات الصغيرة معها، «آحححح، إنّه... إنّه... آححح، إنّه ألم لذيذ»، «حلواي فقط»، «ماذا؟»، «حلواي فقط تحملُ معها ألمًا لذيذًا»، «كيف عرفت ذلك؟»، «لديَّ زبائني».

- لديَّ زبائني، قلتَ لي.

- هل فعلنا ذلك حقًّا؟

- أحيانًا أشعر بأنّ ما حدث كالحلم.

- نحنُ مازلنا نفعل ذلك.

أنهيت طهي الحلوى، تركتها تبرد، ثمّ قبّلتها في المطبخ، ومارسنا ما أمكن لنا ممارسته هناك، تتناهى إلينا طرقات من الباب، «خالي، قل لزينب إنّ خالاتي مستعدّات»، أجدُ هنادي أمام الباب بعد أن ارتديت ما أمكن لي من ملابس لستر عورتي، «لماذا؟» أقول ملاعبًا إيّاها، «هذا سرّ» قالت لي، أخذت زينب الحلوى ونزلت بها إلى البيت.

كنتُ مستلقيًا في الصالون ألاحق أحداث الظهيرة اللذيذة، عندما تسلّل الكلام إلى أذنيَّ كتسلّل الطمأنينة إلى صدري، «إنّها حلوى ميلاد»، تهادت إليَّ نغمةٌ تشبه صوت صفاء. فكّرت أنّ رائحة الزهر الحلوة الممزوجة برائحة الليمون المرّة قد نفذت إلى أنفها، وهي تمسكُ العجين بين يديْها. ابتسمت، لكنّ انفراج شفتيَّ لم يطل لمّا سمعتُ صالحة تقول لها: «حقًا، هل يعقل هذا؟»، «نعم، لقد ساعدني في صنعها» جاءتني كلمات زينب مكسورةً مترقّبةً جعلتني أنهضُ من مكاني وأقترب أكثر من نافذة الصالون أراقبُ ما يحدث، «كيف تفعلين ذلك يا ابنتي؟ ألا تستحين من زوجك؟»، تؤنّبها أمّي الجالسة أمام عالة الشاي، بينما تنقّي حبّات العدس في الصينيّة، «ما المشكلة في ذلك يا أمّي؟ كان ميلاد ينزع عنّا شعورنا وهو صغير»، أتنفّس الصعداء وأنا ألاحظ صفاء تقف في صفّ زينب، «لكنّنا كنّا صغارًا وقتها، مضى زمنٌ منذ رأى ميلاد ساقي»، أسمعُ كلمات صالحة آتيةً من صوتٍ ذكوريٍّ كان يلقّنها الدين عبر شاشة التلفاز في الأشهر الأخيرة، «إنّه حرام، أن يهتمّ الرجل

بما تهتمّ به النساء»، أضافت. «اللعنة»، أقول وأنا أراقبهنّ، تتحوّل عيناي خلف الشبّاك إلى زينب، كانت جالسةً بينهنّ ورأسها إلى أسفل وقبضة يدها مغلقةٌ، توالت كلمات أخواتي وأمّي تباعًا يناقشن أمر الحلوى، «والدكنّ لم يرَ البتّة كيف أصنعُ الحلوى، كان يأتي آخر اليوم ليرى ساقيَّ وذراعيَّ بلا شعرٍ، هذا كلّ ما يراه لا شيء آخر»، «لم أفهم لماذا كلّ هذا العراك، أنا أحبّ حلوى ميلاد»، تعاود صفاء موقفها الذي لم تتخلَّ عنه، لكنّ زينب كانت غير مرتاحةٍ، شعرتُ بتوتّرها، كانت منكّسةً رأسها لمدّةٍ طويلةٍ وهي تسمع الكلمات، نظرت فجأةً إلى أعلى حيثُ النافذة، راودني إحساس بأنّها رأت ظلّي خلف البرسيان أراقب ما يحدث، «ميلاد زوجي وأنا حرّة فيه»، خرجت كلماتها لتدافع عن نفسها أخيرًا. وقفت وتحرّكت مسرعةً إلى باب الشقّة السفليّ، قفزتُ مجدّدًا إلى الصالون مغمضًا عينيَّ، لم أكن مستعدًا للدخول في نقاشٍ أو عراكٍ مّا، فُتِح الباب وأغلق بقوّةٍ ثمّ أغلِق باب غرفة النوم مجدّدًا. كنتُ متأكّدًا من أنّها تبكي، لكن لم أحبّ الدخول في نقاشٍ نسائيٍّ مكرّرًا كلماتِ أمّي في عقلي «لا تتدخّل بين النساء». تناهى إليَّ صوتُ أمّي وهي تصيح في أخواتي:

- البنات زرّيعة إبليس.

عندما شارفنا على الانتهاء من بناء الأساس وتغطيته بالإسمنت حدث ما حدث وجعل زينب تخرج من الشقّة ولا تعود إليّ إلّا بعد أن أنهي البيت. كنتُ قد استلمت النوافذ والأبواب الخشبيّة من الورشة وفي انتظار الانتهاء من العمل على المطبخ، لكنّني لم أكن مهمومًا بالبيت، بل بفكرة إنجاب الأطفال. صارت نظرات الشفقة تواجهني حيثما ذهبت، وبتّ أسمع همسات الرجال والنساء في القرية تكشط ظهري بكوني عقيمًا، أسمعُ ذلك في نصائحهم عن الطريقة الصحيحة للجماع أو خلطة الصباح. كنّا مهمومَيْن كشأن بقيّة أفراد العائلة، لم أحبّ يومًا تدخّل الناس في خصوصيّاتي ولكنّني كنتُ قد وصلتُ إلى مرحلة يمكنني فيها قبول أيّ شيءٍ، وفي تلك الليلة، ليلة السنة الرابعة من الزواج، أحضرتُ معي تورتا بالرّيش في شارع هايتي لنحتفل، كنتُ في العادة أشتري كعكتيْن، واحدة أعطيها للعائلة وأخرى نحتفل بها زينب وأنا وحدَنا، لكن نظرًا إلى استنزاف أغلب مالنا في المنزل اضطررت إلى أن أشتري واحدةً نحتفل بها مع العائلة ونسمّيها كعكة الوداع لبيت العائلة. كان الجوّ في البِداية منغمسًا في الفرحة. زينب التي لم تكن موافقةً على الفكرة أراها تجلس ضاحكةً مع صفاء تتهامسان وتنظران إليّ وأنا ألعب مع مهنّد الصغير، أمّي جالسة على الفِراش تراقبني، صالحة تحكي لنا عن أيّام الصبا وذكرى زواج أمّي وأبي، الذكرى التي لم يحتفلا بها مطلقًا، بالونات تتقافز وسط المنزل وموسيقى لعمرو دياب كانت قد شغّلتها أسماء لترغمني على الرقص معها. صباح تعدّ طاولة الاحتفال واضعةً أقراص البيتزا وعصير فوستر كلاركس والأواني،

تساعدها هنادي. «هابي بيرث داي تو يو»، تغنّي الأخوات الأربع، «لكنّه ليس عيد ميلادي» أقول لهنّ، «عيد ميلادكما». تقول صباح ضاحكةً وقد أشعلت بعض الشموع فوق التورتا.

- لا أصدق أنّه قد مضت أربع سنوات على زواجكما.

قالت صالحة وقد أخذت قطعةً من الكعكة بعد أن نفخنا على الشموع، «للأسف لا أطفال حتّى الآن»، قالت أمّي بعد أن سمعت الرقم «الكبير»، «لقد حَبلْتُ بصالحة في أوّل أشهرٍ من زواجي»، تستفيضُ أمّي في الحديث، «ابنة خالتك ملاك، لديها الآن طفلان»، تذكّرني بالعروس التي فوّتتها على نفسي، بدأت أشعر بالاختناق، خرجتُ لأشعل سيجارةً في الجنان، لم أدخّن يومًا سيجارةً واحدةً أمام أمّي احترامًا لها، ووددت دائمًا ألّا تضع تعليقاتٍ مثل تلك احترامًا لي.

كنتُ أدخّن مسترجعًا ليلة النبيذ مع بنيامين الذي تنبّأ بما سيلاقيه زواجي بزينب من متاعب، كرّرت تعليقه عن الحياة في بئر حسين في رأسي بينما كنت أحاول الانتهاء من سيجارتي سريعًا حتّى لا يحدث ما قد أندم على تفويته.

- ماذا تقولين؟

أرغمتني صيحة زينب على رمي بقيّة السيجارة مسرعًا داخل البيت، كانت واقفةً تواجه أمّي الجالسة، أحاول فهم ما قد حدث في الدقيقتيْن اللتين اختفيتُ فيهما عن المشهد، «تعال يا ميلاد، اسمع الحلّ الذي اقترحته عليَّ أمّك في عيد زواجنا»، تُحوّل حديثها إليّ مرتجفةً، نقّلتُ نظري بين أمّي وأخواتي المتفاجئات وزينب «أمّك تقول لو أمكن لك الزواج من أخرى في عيد زواجنا»، «لكنّها لم تقل ذلك»، قالت صالحة، «ماذا؟»، قالت زينب.

- قالت إنّ أبي كان يفكّر في الزواج من أخرى قبل أن يُولد ميلاد. قالت صالحة تحاول تهدئة زينب.

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني ما يعنيه، لا شيء آخر يا زينوبة. قالت لها صفاء.

- هل تعتقدين أنّني حمقاء حتّى لا أفهم الإشارات؟

- زينب، على مهلك. أقول لها.

- على مهلي؟ لم أعد أحتمل كلّ هذه التعليقات، لا شيء يعجبها، لا عملي ولا ملابسي ولا اهتمامي بك ولا حتّى كوني لم أنجب لك طفلًا، لا شيء، لا شيء، لماذا لم تتزوّج ملاك؟ لماذا؟

- لأنّني أريدكِ أنتِ. قلتُ بعد أن أمسكتُ بها ناظرًا إلى أخواتي.

أسلمت نفسها للبكاء والتشبّث بي. كانت أخواتي ينظرن إليّ وقد اخترتُ زوجتي بدلًا منهنّ، عرفتُ من تحديقهنّ فيّ وأنا أحتضنها أمامهنّ دون أن ألتفت إلى أمّي التي كانت ترتجفُ من الصدمة وأسماء وصباح تحتضنانها، «لا أريد البقاء هنا»، تناهت إليّ كلمات زينب وهي تحتضنني، «لم أعد أحتمل هذا البيت». خرجنا من مكان الحفل، وصعدنا إلى شقّتنا، دخلت الشقّة، فتّشت في غرفة النوم عن ملابسها وأخرجت منها ما أرادت، دسّتها في حقيبة وقالت لي: «لن أعود حتّى تنتهي من البيت».

(٧)

حكت لي صالحة ذات مرّة قصّة جارتنا المُنتحِرة وزوجها. كانت فتاةً صغيرةً عندما تزوّجت أحد أبناء عمومتها، وكان يكبرها بعشرين سنةً، جاءت من أقصى الغرب إلى القرية، حيث يقطن زوجها ويعمل طيلة سنواته العشر التي مضت على زواجهما. استأجر بيته من أحد أفراد العائلة الكبيرة كان قد سافر إلى إنجلترا. الجميع في القرية عامَلُوهم على أنّهم غرباء، لهذا عاشت الفتاة حياةً وحيدةً، لم تستطع معها صبرًا. بدأت تسمع أصواتًا، وترى أشباحًا وتتلبّسها حالاتٌ جنونيّةٌ، أخواتي كنّ يسمعنها. كان بيتها يتوسّط بيت العائلة وبيتي، «قيل إنّ حجابًا مّا يختبئ في بيتها، ولم يستطع الشيخ إخراجه فقادها إلى الجنون»، أنصتُ إلى سردِ صالحة وهي تبصق في صدرها وتستعيذ بالله من الشيطان بينما تتمّ قصّتها، «بالإضافة إلى ذلك، فإنّ زوجها كان داعرًا، ويرغمها على شرب الكحول»، كنتُ أريد أن أقول لصالحة. كنت أريد أن أقول أيضًا إنّ هذه المرأة تنفق كمّيّاتٍ كبيرةً من المال في تبخير بيتها وطرد الجنّ الذي يقطنه. لم تكن تستعمل الوشق والفاسوخ، بل نوعًا مقرفًا من البخور، نوعًا كاد يخنقني، ذات مرّةٍ، من كثافته ورائحته العطِنة. أقام زوجها المتحضّر حلقات قراءة القرآن لطردِ الجِنّ، لكنّه كان قد استولى على زوجته. استذكرت صالحة تلك الحادثة التي جعلت المرأة تجري عاريةً في الشارع، بطريقة فيها تنفيرٌ من هذه الفعلة الشنيعة، على عكس العبسي الذي كان يذكرها بطريقةٍ جنسيّةٍ، جعلته يستمني لأسابيع على ذلك المشهد، بينما كنتُ أعمل في البيتزاريا، «المرأة مكانها بيتها حتّى لو احترقت داخله عاريةً أو لابسةً»،

أضافت لي صالحة تخبرني أنّ الجن كاد يحرقها بجلده الناريّ، لمّا هربت من الحمّام حيث تغتسل، «هل تصدّق أنّ الجنّ يمكنه أن يحرقك، حتّى لو كنت في البحر؟ أعوذ بالله»، أنصتُ إلى كلماتها وهي تستمرّ في ذكر الحوادث الشنيعة.

- إذَن، هل هناك حلٌّ لكلّ هذا؟

- لن يوجد حلٌّ حتّى يجدوا الحِجاب.

- ما الفائدة؟

- الحجاب هو السحر، إن تمّ تفكيكه.

- أليس من الأضمن أن تذهب إلى طبيب نفسانيّ؟ زميلة زينب طبيبة نفسانيّة.

- هذا جنّ وليس كحّة.

تستفيض صالحة في ذكر قصصٍ أخرى، لأناسٍ سكن أجسادَهم الجنّ، «يمكن للسحر أن يفعل أيّ شيءٍ»، «أيّ شيء؟ مثل؟»، «أن يفرّق بين المرء وزوجه، أو أن يجمع بين رجلٍ وامرأةٍ لا يحبّها، فيظنّ أنّه يحبّها»، تحدّثني صالحة. عندما أخبرتُ المدام بهذه الجمل صُدِمتُ من ردّها العجيب، فأنا لم أسمع به من قبل، قالت لي إنّ زوجة جارنا لم يلبسها جنّ، بل كانت مريضةً نفسيًّا، وهي بالتأكيد ضحيّة زوجها وبعدها مئات الكيلومترات عن عائلتها التي أُخذت منها وهي لم تنضج بعدُ. وحدتها هيّأت عقلها لأن يسمع أصواتًا لا يمكنه سماعها، وأن يرى أشياء لم توجد قطّ. وعندما قلتُ لها إنّني أحيانًا أسمعُ تلك الأصوات، عندما أكون وحيدًا في البيت، أشارت عليّ بأن أتجاهلها لأنّها مجرّد ألعابٍ يستخدمها عقلي ليكون مشغولًا.

- هل جرّبتِ السحر من قبل يا صالحة؟

- هاهاهاها هل تمزح؟

- لا، أريد معرفة المزيد عنه فقط.

بعد ذلك حدّثتني عن المرّة الوحيدة التي حاولت فيها استعمال السحر. كانت قد شارفت على بلوغ سنّ اليأس من الزواج، وإلصاق المجتمع على جبهتها ورقة «عانس». بحثت عن شيخٍ يمكنه أن

يساعدها في ذلك، أخبرها بأنّ عليْها أن تأتيه بملابس الرجل الذي تريد أن تتزوّجه، أو شعره. لم تكن صالحة قد وضعت رجلًا مّا نصب عينَيها. وحينما فكّرت في الشخصيّة المناسبة، وكيف يمكن لها أن تقترب منها، لم تجد أيّ رجلٍ غير متزوّجٍ يمكنها الوصول إليْه. كانت حبيسة جدران البيت، وحتّى أصحاب الدكّاكين الذين تشتري منهم أواني الطبخ وما تحتاج إليه في البلدة كانوا إمّا كبارًا، أو شبابًا متزوّجين، أو رجالا لا تعرف عنهم شيئًا، وهكذا توقّفت عن فعل ذلك، واستسلمت مع الوقت، خصوصًا عندما تخطّت الثلاثين.

(٨)

- الحمد لله على السلامة، بسيطة.

استيقظت في المستشفى على منظر قدمي اليمنى مرفوعةً إلى أعلى، بينما كانت تنزلُ قطراتٌ من جهاز التغذية وتتسرّب من كيسٍ إلى يدي. الدوار المطعَّم بحلاوة المخدّر جعلني أذكر رائحة الحشيش. كان الطبيب صحبة أخواتي الأربع والعبسي يتحلّقون حولي، «قلت لكم إنّ ميلاد رجله حديد»، سمعتُ صوت العبسي وهو يفتخر بقدرتي على تحمّل السقوط من سطح البيت. لم يكن أحدٌ قد عرف ما أصابني، وما جعل ساقي تتكسّر، «الإصابة خفيفة، أنت محظوظ، رجل آخر في سنّك قد تتأثّر قدمه إلى الأبد»، ألقى الطبيب بكلماته، وهو يحملُ صورة الكسر البسيط على الضوء ليريني إيّاه. اقتربتْ عائلتي منّي، وشعرتُ بالحُبّ الشديد تجاههم، حُبٍّ لم أشعر به منذ أسابيع طويلة لم أفكّر خلالها إلّا بنفسي، «عليك أخذ قسط من الراحة»، أنهى الطبيب كلماته وغادر. كانت صالحة تدمع من رؤيتي مجبّس القدم. بحثتُ عن زينب لكنّها لم تكن بينهنّ. حاولتُ نطق اسمها «زينب؟»، «هي في العمل، قالت إنّها ستعود بعد انتهاء الدوام»، قالت لي صفاء. استشعرتُ ملامح العبسي غير الراضية عن إجابة صفاء، «دعنا من النساء وأحاديثهنّ، كيف سقطت يا ابن العمّ؟». قال لي وقد جلس بجانبي.

- كنتُ أصلح جهاز البثّ، عندما شعرتُ بدوارٍ اختلّ بعده توازني وسقطت على الأرض. قلتُ باحثًا عن الحقيقة في عينِ صالحة.

- آه، الجوّ حارّ هذه الأيّام، فقدتُ بعضًا من حماماتي بسبب غدرِ الطقس. قال العبسي وهو يمسكُ بقدمي المجبورة.

همست صالحة في أذنِ صفاء. «هل حككتُ إصبعي؟»، قلتُ في نفسي، وأنا أرى تلك الهمسة الخاطفة وتغيُّر وجه صفاء، إلّا أنّني كنتُ مخدّرًا أبحث عن الراحة مرّةً أخرى، وعن زينب التي تسلّلت إلى أفكاري كتسلّل النقاش عن الحلوى في تلك العشيّة إلى أذنيَّ. «لديك عندي دواء سينسيك ألمك»، قال لي العبسي غامزًا بأنّه يمكنني أن أطلب منه حشيشة. تحرّكت صالحة لتصبّ لي العصير، بينما اقتربت صفاء من العبسي تدعوه إلى أن يغادر الغرفة قليلًا، لأنّ الطبيب أمرهنّ بألّا يتركن الزوّار كثيرًا في المكان، «وأنتنّ؟»، «نحن سنبقى معه لنطعمه، هل يمكنك أن تعود مساءً لأخذنا إلى البيت؟»، قالت صالحة للعبسي. فخرج مع صباح وأسماء.

- «إذَن ماذا حدث يا ميلّو؟»، قالت صالحة وهي تسقيني كوب العصير.

كنتُ كمتّهم أجلس بين مُخبرتيْن من مُخبري الدولة. كلّ واحدةٍ منهما في جهةٍ، حتّى لا يمكنني الالتفات بعيدًا. تذكّرتُ النكتة التي أخبرني بها العبسي عن الدقيق والفلفل. حاولتُ إعادة ما قلته لهما بالتفاصيل ذاتها إلّا أنّهما لم تصدّقا قصّتي، «أنا لا أصدّق ذلك»، قالت لي صالحة، وهي تحاول ترتيب سريري، وتغطيتي بالشرشف، «القصّة لم تدخل رأسي»، قالت لي صفاء وهي تمسحُ العرق عن جبهتي. أزداد توتّرًا فيزداد تصبّب عرقي. «من أين أتيت بنقود الحلوى؟» تذكّرتُ تحلّقهما حولي في صغري، وكلّ واحدةٍ منهما تأخذ بإحدى أُذُنيَّ، «تحصّلتُ عليها من عمّي»، «أنا لا أصدّق ذلك»، «القصّة لم تدخل رأسي»، سمعتُ كلماتهما وهما تحاصرانني، «أبي اشتراها لي»، «لقد سرقتَ النقود من الكوشة» قالت لي صالحة، وهي تراقب حكّي إصبعي.

- هل لزينب علاقة بالموضوع؟

سألتني صالحة بينما كنت أرى رأسها يكبر أمامي، حتّى يختفي منظر ساقي المعلّقة في السماء كعنقود عنبٍ، «لقد حلمتُ الحلم ذاته أمس»، حاولت الاستفسار عن أيّ تأويل له، «هذه الأيّام لا أحلم إلّا به»، أضافت بينما كان رأساهما يكبران فيغطّيان مستوى نظري. أزداد قلقًا. تصبّ صفاء كوبًا من الماء وتسقيني، «لقد رأيت صورةً لك وقد سقطت من علّيّة المنزل»، تضيف معلوماتها، «هل تعرف من كان خلفك ليدفعك؟ زينب»، قالت، شعرت بجفافٍ في حلقي رغم كوب الماء الذي شربته. أحسّت صفاء بورطتي فصبّت كوبًا آخر وسقتني، «لقد نبّهتك إلى أن تكون حذرًا، لماذا لا تنصت إليّ؟»، تابعت صالحة كلامها. نهضت صفاء لتراقب الممرّ خارج الغرفة قبل أن تعود لإغلاقها. «هل فعلت زينب ذلك بك؟ هل دفعتك؟» سألتني صفاء. حاولتُ الهروب من الإجابة، تساءلتُ عن قدرتها على أخذ أحلام أختها كما هي. تذكّرتُ كلمات المدام حول الأحلام، وكيف يمكن أن تكون مفتاحًا لمعرفة دواخل أنفسنا، لكنّني تساءلت عمّا إذا كانت لزينب يدٌ في سقوطي من

سطح المنزل، على الأقلّ نفسيًّا. «لماذا تحاول حمايتها يا ميلاد؟» تعيدني كلمات صالحة إلى حقيقة وجودي داخل التحقيق، هاك كُلْ دقيقًا، وهذا ما فعلته.

- تخاصمت مع زينب، كنتُ أخاف أن تطلب الطلاق منّي.

تحرّك لساني يدافع عنها ويخبرهما بالحقيقة. سردتُ القصّة محرّفةً، من دون أن أعرّج على الرجل السمين، الذي كان سببًا في إقدامي على ذلك. مضى زمنٌ على آخر مرّةٍ فتحت فيها صدري لهما وعرّيتُ خوفي وهواني أمامهما. كانتا قد أدركتا ذلك. أمسكتا يديّ وأنصتتا إلى ما قلته، «لستُ على ما يرام هذه الأيّام، أشعر بالضيق داخل المنزل بلا عملٍ، ومثل هذه الأفكار تأتيني كلّ صباحٍ، هذا كلّ ما في الأمر».

- لقد مضت عشر سنوات على زواجكما يا ميلاد. قالت لي صالحة.

- والمعنى؟

- المعنى أنّنا لم نرَ أبناءك بعد، لا أريد الموت قبل أن أحتضن أبناء أخي الصغير.

- لا.

- أعرف أنّك تحبّها يا ميلّو، أنا أيضًا أحبّها، لكن فكّر في نفسك. قالت صفاء.

- اخرجا.

- ميلّو. قالت صالحة.

- اخرجي، لا أريد أن أسمع ذلك مرّة أخرى.

(٧)

لم يمضِ زمنٌ طويلٌ على سكني ببيتي الجديد حتّى طرق الموت باب العائلة. أخذ أمّي منّا، لم أبكِ في حياتي على فقدان شخصٍ مثلما بكيتُ على فقدانها. كانت أمّي امرأةً من زمنٍ آخر. رائحتها الموسميّة، ورداؤها الأخضر الذي تلفّه على جسدها وتخرج من صدريّته الحلوى والحنان والعجائب، ظلّا عالقَين بي طيلة عمري، لم يكن موتها مجرّد مزحةٍ يلعبها القدر، بل كان فاجعةً

وإيذانًا بتفكّك الأسرة وتشقّق جدران بيت العائلة، وتهالك نوافذه الخشبيّة، وذهاب الروائح الموسميّة منه. رائحة العدس على كفّيها وابتسامتها الطفوليّة عندما أُحضر كيسًا مليئًا بالذرة، وأكلها إيّاها بعد شيّها مباشرةً كالأطفال، مناوشاتنا لها عندما تدسّ ثمار الموز الصفراء تحت سريرها، حتّى تخرج مرقّطةً بالسواد، قائلةً إنّها تحبّها كذلك، وإنّ علينا الاقتداء بهذا الأمر، خشيتها من البقاءِ وحيدةً، أو أن تستيقظ صباحًا ولا تجد أبي نائمًا بجانبها. بعض الأكلات التي لا يمكنني أكلها إلّا من يديْها، كان كلّ ما فيها جميلًا، حتّى عقليّتها التي لم تعد تتماشى مع زمننا. ماتت قبل أن تفهم حياتي ودون أن تتفهمّها زوجتي. ذرفتُ الدموع ولكنّ أكثر ما آلمني بعد ذلك هو انقطاع العلاقة بيني وأخواتي، انقطعت أحاديثنا ولم تتبقّ إلّا محاولاتي المتكرّرة في دعمهنّ بالمال ورفضهنّ ذلك.

هل كان سيحدث ما حدث لو بقيت أمّي على قيد الحياة حتّى هذا اليوم؟ سؤال ظَلّ يراودني دائمًا. كانت رغم كبر سنّها الخيطَ الذي يشدّ أعمدة البيت، ويبقيها قادرةً على تحمّل نزلات الزمان. كرهتُ بيتنا بعد وفاتها، وكلّما دخلتُه شعرت بالوحشة فيه. قالت لي المدام معزّيةً، لمّا طرحتُ عليها هذا السؤال، إنّها الآن تعيش بسعادةٍ في الجنّة مع أبي وتصنع له شاي العَشيّ. لم تعزّني زينب على هذا النحو قَطُّ. وددتُ أنّي سمعت ذلك منها.

لكن، رغم جفاف العلاقة في السنوات الأخيرة بيننا، كنتُ أحاول أن أجد حلًّا لمعضلة أخواتي، حتّى جاء ذلك اليوم الذي التقيتُ فيه بنسيبي السابق، زوج صباح وأبي أبنائها. أخذنا الحديث إلى الأطفال، وعن حاجتهم إلى والدهم مهما كلّف الأمر. كنتُ أشعر بالذنب نحو الرجل الذي رأيت ندمه على كلّ ما فعله لأختي، وأردت أن أصلح بينهما، «سأحاول الحديث معها»، عاهدته على إقناع صباح بالعودة إليه. عدتُ إلى بيت العائلة، واجتمعتُ بكلٍّ من صالحة وصفاء وصباح، أخبرتهنّ بما سمعته من الرجل، وبأنّه نادمٌ على ما اقترفه خلال السنوات الماضية، وأنّه تعهّد لي بألّا يمدّ يده على صباح، إذا وافقت على العودة إليه، وحدّثتهنّ عن شوقه إلى كلٍّ من هنادي ومهنّد، وحاجته إلى رؤية ابنه يكبر أمامه، «الفتى في العاشرة من العمر، إنّه يكبر ويحتاج إلى والده»، قلتُ لهنّ منتظرًا إجابةً ترضيني من صباح.

- هل دفع لك لتقول ما قلته؟ قالت لي صباح.

- ماذا؟

- سمعتها يا ميلاد، ماذا دهاك؟ قالت صفاء.

- أردتُ فقط...

- هل تريد أن تستحوذ على البيت؟ هل هذا ما ترغب به زينب؟ مرّة تأتينا بعرسان في عمر والدك، ومرّة تحاول إعادة أختك إلى ذلك الرجل المقرف. تتحدّاني صالحة.

كنتُ، في الفترة ذاتها، أبحث عن عريسين لكلٍّ من صالحة وصفاء، وصادف أن عرض عليَّ عمّي أن يزوّجهما لأخويْن فقدا زوجتيهما منذ سنتيْن. كانا يبحثان عن امرأتين ترافقانهما في ما تبقّى لهما من عمرٍ، لم أكن أفكّر بأنّ العرض سيُعَدّ إهانةً لأختيَّ. كلّ ما سمعته منهما هو أنّهما ستفكّران في الأمر، ولم أفهم آنذاك لماذا أقحمت صالحة اسم زينب في المحادثة، إلّا أنّني استشعرتُ تحوّل مشاعرها نحوها منذ موت أمّي، فهي تعزوه إلى أنّه كان حزنًا على ما آلت إليْه حالتي، وحلمها الذي لم يتحقّق في رؤية أبنائي. كنتُ أرى في أعينهنّ شوقهنّ إلى جلسات العَشِيّ، واحتساء القهوة، وانتزاع شعور أرجلهنّ بالحلوى، وصبغهنّ لإصبعي، لكنّني لم أكن قادرًا على فعل كلّ ذلك. كنتُ مهتمًّا ببيتي الجديد، وبحياتي وهمّي الأكبر في الإنجاب.

- كلّ ما أريده هو سعادتكنّ. أقول لهنّ.

- نحن سعيدات، اتركنا وشأننا يا ميلاد. تقول لي صالحة.

- اخرج يا ميلاد.

تقول صباح، وقد انهمر دمعها بسبب خيانة أخيها الأخيرة لقضيّتها. أخرج من البيت ولا أعود إلّا بعد أيّامٍ طويلة للاطمئنان عليهنّ وعلى حالتهنّ الماديّة، مستذكرًا طعم القهوة والعدس والذرة المشويّة ورائحة الحنّاء كلّما دخلتُ إلى البيت.

(٨)

كنتُ أشاهد فيلم «تايتانك» على التلفزيون. فكّرت في العلاقة بين جاك وروز ومقدار شبهها بعلاقتي مع زينب. كانا مختلفيْن تمامًا، إلّا أنّهما استطاعا أن يغرقا في الحُبّ رغم كلّ شيءٍ. السفينة التي تقلّهما هي ذاتها السفينة التي تقلّنا، إلّا أنّ سفينتنا تمخر عباب الزمن بدلًا من أمواج البحر الجليديّة. أشعر بالشفقة على جاك، والمتاعب التي يدخلها من أجل حبّ روز.

- آسفة على تأخّري، لقد كنتُ مشغولةً في البيت.

دخلت زينب الغرفة، كانت صحبتها المدام، تلميذتي في مجال الطهي وتحضير المخبوزات. كانت ترتدي فستانًا سماويًّا حاملةً حقيبةً بين يديها، وقد تركت شعرها ينسدلُ على كتفيْها. كانت المدام قدوةً لزينب، ورأت فيها المرأة التي أرادت أن تكونها طيلة عمرها. شعرتُ بضيقٍ. وضعت زينب حقيبة الملابس على الأرض، واقتربت تجلس بجانبي، تخيّلت المدام لوهلةٍ مدير زينب، وهو يدخلُ للاطمئنان عليَّ، شكرتُ الله.

- الحمد لله على السلامة يا أستاذ ميلاد.

قالت لي المرأة في فستانها السماويّ وهي تنظرُ إلى التلفاز. تحرّرتُ من خجلي وشكرتها على زيارتها. دعتها زينب للجلوس على الكرسيّ بجانبنا، وتحوّلت للحديث إليّ بينما تحاول روز إنقاذ جاك من السجن، «آه تايتانك، فيلمٌ جميل» قالت المدام، «لكنّه رومانسيّ بطريقة خياليّة ولا تصدّق»، أضافت.

- الطبيب قال إنّه يمكنك الخروج في الغد.

كنتُ أستشعر محاولة زينب السيطرةَ على المحادثة، وهي تطعمني من أكلٍ أعدّته في البيت. نظرتُ إلى عينيها مبتسمًا، فابتسمتْ. سلّمتُها إصبعي الأصغر لتحتضنه، حتّى تغذّيني بالأمان والطمأنينة. كانت المدام قد أُخذت بمحاولات روز الدخول إلى قاع السفينة، التي شارفت على الغرق كلّيًّا. وضعت زينب يدها تحت ذقني لتمنع فُتات الطعام من السقوط، وشرعت تتحدّث عن كلّ ما قاله الطبيب، «سنحتاج إلى شهرٍ ليلتئم الكسر»، «عليك في ذلك الوقت أن ترتاح تمامًا»، ثمّ أضافت: «سأحاول أن أقنع المدير بأخذ عطلةٍ، ولو للأسبوع الأوّل حتّى تعتاد على الجبس»، نظرت إلى المدام كأنّها تأخذ رأيها في الاقتراح.

- العطلة ستكون جيّدة لكِ يا زينب، ثمّ إنّ الأستاذ ميلاد يحتاج إليك أكثر من ذي قبل.

«سأحتاج إليها أكثر من ذي قبل»، قلتُ لنفسي متخيّلًا الدلال الذي ستسكبه على روحي داخل البيت. أن آخذ قسطًا من الراحة من تعب الدنيا، وأستمتع باعتنائها بي. تطعمني كما تفعل الآن. تغسلُ لي جسدي وتنظّفني وتلبسني ملابسي وتقرأ لي إذا شاءت. سيكون أسبوعًا نعيد فيه أمجادنا القديمة في الحُبّ. وسترسم على الجبس أحلامنا، وتكتب قصائد حبّ، وتطبع قبلاتها المغموسة بأحمر الشفاه، وترسم حول اسمي واسمها قلبًا أحمر، ومن ثمّ قد تنهي كلّ يومٍ بمداعبةٍ لميلادي. آه كم اشتقتُ إلى أن يمتزج جسدي بجسدها بحبٍّ ورغبةٍ وشبقٍ. كم مضى على ذلك؟ سنةٌ؟ سنتان؟ كم

مضى على موتِ عمّها؟ كان ذلك آخر عهدنا بمثل تلك الحماقات. لم يمضِ على وجود المدام في المكان سوى دقائق قليلةٍ لمّا نهضت، «عليَّ الذهاب الآن، أردتُ فقط الاطمئنان عليك يا أستاذ ميلاد، أرجو لك الشفاء العاجل، فأنا بحاجة إلى العودة لدروس الخبز والطبخ». خرجت معها زينب لتودّعها شاكرةً لها مساعدتها وتوصيلها إلى المستشفى، «لا عليكِ، كلّ شيء يهون من أجل الأستاذ».

- ميلُو، هناك شيء مهم أريد أن أخبرك به.

أغلقت زينب باب الغرفة وتقدّمت نحو الحقيبة. كانت تحمل ملابس نظيفةً لي، أخرجتها، أمسكت بقميصي المفضّل، ثمّ قلّبته لتُظهر لي شيئًا محكم الخياطة في جانبَيْه. «انظر ماذا وجدتُ في قميصك»، تأمّلتُ الشيء البنّيّ الملفوف جيّدًا، يبدو كجلد حيوانٍ مغلقٍ بإحكامٍ، «إنّه حجاب... سحر»، لم أحتج إلى توضيحاتها فقد كنتُ أعرف شكل الحجاب، «أبعديه عنّي»، قلتُ لها خائفًا منه، عجبتُ من عدم خوفها من الحِجاب. كانت زينب تسخر من المؤمنين بالسحر، لكنّني كنتُ أتساءل دومًا: ماذا لو تعرّضت له، هل كانت ستؤمن به أم لا؟ فتحت الحِجاب وحاولت قراءة ما هو مكتوبٌ بداخله، كانت الكلمات غير مقروءةٍ، تخرج من الورقة رائحةٌ عطنةٌ أفسدت عليَّ متابعتي الفيلم.

لم تكن زينب مهتمّةً بما هو موجود داخل الحِجاب، لكنّها كانت مهتمّةً بمن فعل ذلك ولماذا فعلها؟ كنتُ أخاف من التعرّف على الفاعل، كان هناك احتمالان وكلّ واحدٍ منهما يبدو سيّئًا جدًّا.

- أين كنت آخر مرّةٍ ارتديت فيها القميص؟

سألتني، فقفز إلى ذهني ذلك اليوم في بيت العائلة. كنتُ عازمًا على تأنيب هنادي، وما تفعله لتفضح العائلة وتُجري اسمي على لسان كلّ الناس، سمعتُ الجملة: «عيلة وخالها ميلاد» في أماكن مختلفةٍ. وصلت شهرتي حتّى في أحياءِ المدينة، وأنا أحاول مسحَها. كنتُ أشعر بالغيظ تجاهها، سمعت أحد الشباب في مقهى وسط البلاد يتحدّث عن أخواتٍ امتهنّ الدعارة في حيّهم، ولم يستطع أحدٌ طردهنّ لصلتهنّ برجالٍ في الدولة، وفي البلدة وأنا أشتري الخضروات، أو معدّات التنظيف سمعت رجالًا يتحدّثون عن نساء يتسوّقن وحدهنّ في كلّ مكانٍ، سمعتها حتّى ضقت ذرعًا بها. ذهبتُ بعد تخرّجي من «أكاديميّة» العبسي إلى بيت العائلة، حتّى أُنهي المسألة وأستعيد هيبتي، استدعيت الفتاة وأنّبتها على ما تفعله، أخبرتها بأنّ عليها ارتداء الجبّة من الآن فلاحقًا وإلّا عليها أن تبقى في المنزل. كانت الفتاة مرعوبةً من وجهي الأحمر وارتعاش يديَّ. كانت صالحة تعدّ القهوة،

لمّا سمعت صوتي الذي ملأ أرجاء البيت. صباح تترجّاني أن أهدأ، وتعدني بأن تتحدّث مع ابنتها. الفتاة تبكي. صالحة تضع الفناجين على السفرة وتصبّ القهوة. أنا أندب حظّي، وأخبرهنّ بأنّهنّ لا يحترمنني، وبأنّي لن أقبل بعد اليوم بتعدّيهنّ على سلطتي، وبأنّني لم أعد ميلاد الذي يتصوّرنه فلقد دفنته بالأمس في البرّاكة، وصلّيت عليه الجنازة وحان الآن تاريخٌ جديدٌ، «البنات زرّيعة إبليس» كرّرتُ كلمات أمّي متّخذًا إيّاها حجّتي في إيقاف هذا العبث الذي يمرّ بالبيت، «ماذا تبقّى لنا؟ أن تحضروا الرجال إلى المنزل؟»، صدحتُ بترّهاتٍ، صالحة تتقدّم لتعطيني القهوة، «خذ يا ميلاد، وهدّئ أعصابك يا أخي»، قالت لي، ثمّ تعثّرت في البساط وفقدت توازنها فانسكبت القهوة على قميصي. حينئذٍ وضعت السّفرة على الأرض وهرعت لتنقذني بعد أن وضعت السفرة على الأرض، «بسم الله، لاباس عليك»، أخذت فوطةً ومسحت القهوة، كانت حرارة السائل تُحرق صدري، فنزعت القميص، «دعه، سأغسله لك»، قالت لي.

في اليوم التالي جاءت تعطيني القميص. كان نظيفًا، لكنّني لم أشعر وأنا أرتديه بالحِجاب، هل كان مخيطًا بطريقةٍ لا تشعرني بوجوده؟ أخبرت زينب بما حصل. غضبت، «شككتُ في كونها أختك صالحة»، قالت لي، «تعتقد أنّ هذه الخرقة ستفسد علاقتك بي، الأمر يتطلّب أكثر من ذلك»، رمت بالحِجاب في القمامة، «يمكننا معرفة مَن فعل ذلك إذا أخذناه إلى الشيخ» قلتُ لها. «لا حاجة إلى ذلك يا ميلاد، لا أحد يريد لنا السوء سواها، هل تذكر ذلك الحلم؟»، وبحثتُ عن الحلم الآخر، تذكّرته، كانت صالحة تمسك بكلبٍ أسود أمام شقّتي لتطلقه عليَّ حتّى يعضّني.

بعد خروجي من المستشفى، أذكر آخر يومٍ وقفتُ فيه على عتبة بيت العائلة بالعكّاز تحت إبطي، مهزوزًا ومتشنّجًا أنادي أخواتي للحضور في الجنان، لم أرد الدخول إلى البيت، كنتُ أحمل الحجاب في جيبي، وقد وقفن جميعًا يترقّبن ما سأقوله، صباح تحتضن أسماء وطفلتها، هنادي ومهنّد يختفيان خلف ثوب أمّهما، صفاء تضع يدًا على قلبها وأخرى على فمها تنظرُ إلى الشرر المنبعث من عينيّ، وصالحة غريمتي واقفة بحزمٍ وغضبٍ أمامهنّ، ألقيتُ الحجاب تحت قدمَيها اللتين لطالما أحببتُ أن أنام تحتهما، كنتُ أرى كلبًا خياليًّا تمسك به وهي تنظرُ إلى الحجاب ثمّ تتحدّى وجودي في المكان، صحت فيهنّ، «ليس لديكم أخٌ، من الآن فصاعدًا... أنتنّ وحدكنّ، وأنا وحدي»، «ميلاد، أرجوك اسمعني»، تناديني صالحة التي انهارت فجأةً أمام الحجاب فبدأن كلّهن بالصراخ واللطم، تزحف نحوي جريًا وهي تبكي، ثمّ تمسك بقدمي السليمة راجيةً إيّاي ألّا أرحل، ألقي نظرةً أخيرةً على أخواتي الجالسات على الأرض يحتضنّ بعضهنّ بعضًا، ثمّ أنظر إلى أسفل حيث عيناها، «ميلاد، مستحيل أن أرضى فيك شرًّا... أرجوك يا ابني»، تقول بينما تشدّ قدمي

بقوّتها حتّى لا أذهب، «اللي بينا انتهى»، أجذب قدمي بكلّ قوّةٍ، ألتفت غير ناظر إلى البيت ولا إليهنّ ولا إليها، وأتّكئ على عكّازي عائدًا إلى بيتي متحمّلًا سقوط دمعي.

أحتاجُ إلى بعض الراحة، ما رأيك في زيارة البرّاكة؟

---

11 تعبير ليبي، و«سرب عرس» تعني أضواء الأفراح.

البرّاكة

«اضرب القطّوسة تتربّى العروسة»، مثل ليبيّ.

(٩)

آه، هذا المكان، حياتي بكامل تناقضاتها وارتداداتها ومشاغلها تتجسّد فيه. لقد بنيت الدار بنفسي، بينما كان العبسي يجلسُ تحت شجرة النخيل، يخبرني أن أزيد خشبةً في السقف، أو أن أزيد من الجريد على مظلّة العتبة. وددت لو أخذتُ زمنًا أطول في بنائه، لكنّ مزاج العبسي السيّئ لا يترك لك الخيار في فعل كلّ ما تشاء، أرادها في أقرب وقتٍ ممكنٍ. وأردتُ أن أطليه، وأن أنهي بناء السور بالأحجار، إلّا أنّ ذلك كلّه لم يحدث. لكن ما نقص في البناء حاولت تداركه في السانية. زرعتُ مجموعةً من الزهور حول البناء، وبالأخصّ القرع المتسلّق بورقه الضخم وأزهاره الصفراء، وبذلك تمكّنتُ من إلغاء بعضٍ من القبح في الهيكل. قسمتُ الأرض إلى جداولَ وقطعٍ صغيرةٍ، واهتممتُ بشجرة الياسمين فيه. وفي نهاية الصيف كنتُ أقلّم الأشجارَ، وقد خصّصتُ أماكن أخرى للجلوس عدا العتبة والدار نفسها. لم يكن هناك حمّامٌ في مخطّط العبسي ولا مطبخٌ، لم يرد أن يَأْلَف أصدقاؤه وجودَهم في البرّاكة فيحوّلوها إلى مبيتٍ، لكنّني أقنعته ببناء حمّامٍ صغيرٍ يُلصَق به مغطسٌ ومصطبةٌ حتّى لا يفسد المكان. كنتُ مَن يهتمّ بتنظيفها بشكلٍ شبه يوميٍّ، وعندما أغيب عن البراكّة تصبح مصبًّا للنفايات، فأعود إلى تنظيفها وتشجيرها، وزراعة البذور التي يتحصّل عليها العبسي من أصدقاء والده. جاءتني فكرة وضع طاولة وكَراسٍ، من مخلّفات معدّات أسلاك الكهرباء التي ألقت بها الدولة، تحصّلنا على الطاولة والكراسي من مصبّ بيع خردة ليس ببعيدٍ، كنتُ أريد بناء عريشةٍ فوق هذا المجلس، ولكنّ همومي والوقت لم يسمحا لي بأن أنهي هذا المشروع. الغرفة ذاتها وأثاثها والفرش، تحصّلنا عليها في صفقةٍ جيّدةٍ من أحد دكاكين سوق جامع الصقع، يعود لأحد أبناء الظهرة وشارعنا القديم. حاولتُ أن أجمّلها بأكبر قدرٍ ممكنٍ، وألّا تكون مجرّد مكان للتجمّع. في الزاوية، كان العبسي يجلس، هناك في السرير العالي، قال لي إنّه يريد سريرًا حتّى يظهر كالملك في قصره، ففعلنا ذلك. ولأنّني كنتُ أعرف أنّه لم يفكّر في الكومدينو، بحثت عن واحدٍ بنفسي، أخذنا مكتبةً قديمةً كانت تعود لبيت جدّي، ووضعناها مقابل السرير، حيث يمارس العبسي عادته في مشاهدة التلفاز والأفلام، دون الحاجة إلى الحركة أو إلى تغيير طريقة

نومه. تحت السرير المبنيّ بالحجر صنعتُ له لاحقًا خزانةً متذكّرًا أيّامي في تونس. كلّ ما نراه هنا في هذا المكان لم يكلّف سوى القليل من المال، لكنّه كلّف جهدًا كثيرًا في البحث عن الخردة وتجميعها ثمّ في البناء. لا داعي إلى القلق، فالعبسي قد اختفى من المكان، أو بالأصحّ غادر القرية بعد وفاة والده، ألم أخبرك بذلك؟ أرجو المعذرة.

لم يمت عمّي من الخمر، ولا من طمعه، ولا حتّى من دعوى المظلومين. جاءت شمس يومٍ لم تدركها أنفاسُه. هكذا توقّف نبضه فجأةً، ورحل عن الدنيا. أقمنا العزاء وأنهيناه، ورحل هو إلى ربّه يحاسبه عمّا فعل. عندما وضعناه في قبره قلتُ له إنّني أسامحه على كلّ ما فعله بي، لم أرد أن أغادر الدنيا كما فعل، كنتُ أريد مغادرتها بهدوء. في العزاء، أقمتُ مع العبسي الذي كان منطفئًا قليلًا، لكنّه لم يكن خاليًا من الدعابات والنكت الفاحشة. في اليوم الرابع وبعد انتهاء العزاء، كنّا نجلس في البرّاكة نتحدّث في ما استجدّ من أحداث حياتي، والجبس ما يزال ملتصقًا بقدمي. حدّثته عن توقّف عملي مع المدام في بيتها، وبأنّها كانت تدفع مبلغًا جيّدًا مقابل التعليم، حاول التحرّش بي قائلًا لي إنّ عليَّ أن أمتطيها، «ولكنّني متزوّج يا عبد السلام»، «وإن يكن؟ أنت رجل، هل تعتقد أنّ عمّك محمّد كان وفيًّا لأمّي؟ لقد ظلّ يضاجع القحاب حتّى قرأ الفاتحة على قضيبه المهترئ»، «لقد قتله الجنس». ضحكت من قدرته على السخرية من والده وعظامه لم تجفّ بعد، «رحمه الله»، «إنّه يحتاج إلى كلّ قطرة من قطرات الرحمة، لا أريد أن أكون في مكانه. رجلٌ ظالمٌ»، يقول بحزنٍ، «لكنّه مات رجلًا»، ثمّ يضحك ساخرًا من تناقضه.

- اسمع يا ميلاد، أريدك أن تعود إلى الكوشة.

- أنا؟ لا أعلم، لم أعد أشعر بأنّني أستطيع العمل مرّةً أخرى في مكانٍ مثل الكوشة.

- لا تستطيع؟ هل تعتقد أنّهم اخترعوا أنواعًا جديدةً من الخبز؟ لا أحد يمكنه أن يشتغل فيها مثلك.

- لكن...

- لكن يا صنم، أنت أفضل خبّاز أعرفه، حسنًا ثاني أفضل خبّاز بعد المرحوم والدك، إنّني لم أذق مثل خبز والدك منذ سنوات، لقد خرّبها أبي، أنا موقن أنّه أخطأ في حقّك بإرغامك على بيع حصّتك وحصّة أخواتك، نعم أقول إرغامك لأنّه كان ابن سافلة رحمه الله. أنصت إليّ جيّدًا، أنا إنسان كسول، أنت تعرفني، لا أستطيع حتّى حلب بقرة.

- حلب البقرة ليس أمرًا هيّنًا.

- إنّه تعبير مجازيّ أيّها الصنم، هل تعرف ما هو المجاز؟ دعنا من المجاز الآن، أريدك أن تكون شريكًا لي.

- لا أملك المال لذلك.

- لكن تملك العقل والخبرة، ستكون أنت مدير الكوشة، بدءًا باختيارك للعاملين، إلى تنظيف المكان وتزويده بما يحتاج إليه، هل فهمت؟ ستكون الكلّ في الكلّ، أليس هذا ما رغبت فيه طيلة السنين الماضية؟ اسمع، لك النصف.

- الربع.

- بل الثلث.

- دعني أفكّر.

- خذ راحتك، ولكن ليس كثيرًا.

أنهينا حديثنا، وحلّ صمتٌ خفيفٌ. شعرتُ بلذّة وجودي في المكان، وبأنّني قد أعود مجدّدًا إلى العمل في أكثر مكانٍ وجدت فيه نفسي، يمكنني عندئذٍ أن أستعيد حياتي كما كانت، وأن أبدأ من النقطة الصفر، وقد أذهبُ إلى بيت العائلة، وأسامح أختي صالحة عمّا حاولت فعله بي، وقد أذهبُ إلى المقبرة لأتحدث مع كلٍّ من والدي وعمّي، وأخبرهما بأنّني أسامحهما على كلّ شيءٍ. قد أطلب السماح من أبي لخذلاني إيّاه، وعدم قدرتي على إنجاب أبناء يحملون اسمه، واعدًا إيّاه بعودة الكوشة إلى مجدها القديم، ومن ثمّ قد أشتري باقة أزهارٍ أهديها إلى زينب زافًّا إليها الخبر، وأطلب منها أن تعذرني عمّا فعلت في الأيّام السابقة وعلى معيشة الضنك التي عشناها، وستعود حياتي مزهرةً. كنتُ متحمّسًا للعودة إلى الكوشة، لكن متخوّفًا في الوقت ذاته. فكّرت في أنواع الخبز التي سأدخلها على القرية، ويستطعمها قاطنوها لأوّل مرّةٍ في حياتهم، رغيف الباقيت الفرنسيّ، رغيف مليء بالصبر والانتظار وتحمّل ثقل الوقت، مصحوب بتقنية عجنٍ وتشكيلٍ وإعادة تشكيلٍ مختلفةٍ، بآليّة خبز تختلف تمامًا عن الخبز المحوّر، عجينته الآستيكيّة التي تشبه جسد طفلٍ، مشبع بالهواء وبخار الماء ليخرج مقرمشًا لذيذًا كما يصنعه الفرنسيّون، كلّ ذلك من أربعة مكوّناتٍ رئيسيّةٍ، كلّ ما تحتاج إليه أن تنفخ فيه الهواء، وأن تصقله بيديك، وتسخّنه بحرارة التجربة الحارقة. والشيباتا

الإيطاليّة التي تحتاج إلى يومٍ وأكثر حتّى تجهز، رغيف الريف الإنجليزيّ الضخم، التوست، فوكاشيا إيطاليّة بزيت الزيتون والحبق (أو خبزة الحوش كما كانت تقول أمّي)، أو بالطماطم والزيتون والبصل والفلفل، سأعرّفهم أصنافَ الخبز التي سأستخدم فلانتينا لصنعها، خبز صقلّيّ بالسميد، خبز البرغر والكرواسون (كغواسو) أو ما نسمّيه في طرابلس «بريوش»، قد أغيّر أيضًا ديكور الكوشة متذكّرًا ما كان من ديكورها القديم في الظهرة، خالطًا ذلك بديكورات المخابز، التي رأيتها في كلٍّ من تونس والجزائر، ستشبه من الخارج مخبزًا فرنسيًّا. قد أضعُ بعضًا من الطاولات والكراسي تحت مظلّةٍ، هل سيسمح لي العبسي بفعل ذلك؟.

- لطفي.

صاح العبسي يوقظني من حلمي اللذيذ. رجلٌ أربعينيٌّ يرتدي بذلةً رسميّةً يدخل البرّاكة. رجل أتذكّر أنّي رأيته آخر مرّةٍ في مقهى ماركوس مع زينب، وعلى أشرطة الأفلام المهرّبة. نهض العبسي ليحتضنه، «الحمد لله على سلامتك يا صنم»، قال له وهو يقبّله، «تعازيَّ الحارّة يا ابن السافل»، أسمعه يقول له، «لا حارّة لا حلوة، ما الذي أتى بك هنا، إلى هذه الزريبة؟»، تساءلت عمّا إذا كان يقصد البرّاكة، أو القرية بأكملها، «كنتُ قد عدتُ إلى البلاد أمس، سمعتُ خبر وفاة والدك، فرأيت أنّ من الواجب عليَّ أن أعزّيك شخصيًّا»، «زارتنا البركة» قال له، ثمّ تقدّما نحو جلستنا، نهضتُ لأسلّم عليه.

- هذا ميلاد ابن عمّي.

- ميلاد، لقد سمعتُ الكثير عنك من عبد السلام.

- هذا لطفي ابن خالتي، أنت تعرف، صاحب فيلم «القرية»، هل تذكره؟

- نعم أذكره، تشرّفتُ بمعرفتك. قلتُ وأنا أشعر بالحرج مخلوطًا بحسدٍ تجاه هذا الرجل الذي استحوذ على قلب ابن عمّي.

- تشرّفتُ بمعرفتك يا ميلاد. قال لي الرجل وهو يجلس على الكرسيّ.

- أعدّ لنا قهوة يا ميلاد. قال العبسي.

أمضيتُ بقيّة الوقت صحبتهما، كنتُ أراقب تغيّر شخصيّة العبسي مع ابن خالته. كان كطفلٍ قد وجد، أخيرًا، لعبته المفضّلة، وهو يستمع لقصصه والحياة التي عاشها في هولندا، من حيث جاء بعد غياب خمس عشرة سنةً عن البلاد، وعشرين سنةً عن القرية. يرسم للعبسي ملامح المدينة التي عاش فيها، ويعبّر عن لذّة تعلّم أبجديّةٍ جديدةٍ، ونجاحاته في العالم الغربيّ الذي «يقدّر الإنسان، أيًّا كان»، على حدّ تعبيره، متذكّرًا قصّة هروبه الحزينة من القرية، في ليلةٍ لم يعد بعدها. بحث والده عنه بلا جدوى، وحفظ سرّه لدى الشخص الوحيد الذي يثق به في بئر حسين، العبسي نفسه، الذي كان يزوره في المدينة في شقّةٍ وحيدةٍ بشارع هايتي. كان الرجلَ الذي ينظرُ إليه العبسي باحترامٍ يفوق احترامه لوالده ولكلّ الناس الذين عرفهم، ازداد حسدي له لمّا تابعتُ ملامح عبد السلام، وهو يدخّن السجائر ويشرب القهوة التي أعددتها منصتًا بحبٍّ واهتمامٍ لكلماته ومغامراته، وبحثتُ في ملفّي الشخصيّ عن هذه النظرات في علاقته بي، ولكنّي لم أجدها. لقد تغيّر فجأةً بعد رؤيته إيّاه.

- لقد اشتقت إلى حكاياتك يا ابن السافل، ما جديدك؟ يقول له، فأشعر بالحرج تجاه جثّة عمّي.

- لا شيء، أصنع بوختي التي أسكر بها، وأدخّن الحشيش، وأضاجع العاهرات، وأحرث على ظهر ميلاد. هذا كلّ ما أفعله.

- ستموت كلبًا.

- أفضل من أن أعيش كلبًا مثلك. يقول له العبسي.

- عوْ عوْ عوْ، هل مازالت القرية تراني كلبًا؟

- لم ينسوا ما فعلته البتّة.

- فليتذكّروا ما شاؤوا، مجتمع منافق ومتعفّن، ألا توافقني في ذلك يا ميلاد؟ يوجّه الكاتب حديثه إليّ.

- لا أعلم، إنّهم طيّبون في العموم.

- طيّبون كمؤخّرتي. حسنًا يا ابن خالتي، سأقول لك السبب الحقيقيّ وراء عودتي إلى القرية، أنت تعرف أنّني لا أهتمّ لموت أبيك.

- ولا أنا. يردّ عليه العبسي.

ومضى يحدّثه عن رغبته في صناعة فيلمٍ جديدٍ، بعد انفتاح البلاد على العالم. الفيلم عن رجلٍ في نهاية الثلاثينات، يخرج من القرية ليتعرّف على عالمٍ جديدٍ عليه، مع أخيه العائد مؤخّرًا من الهجرة. سيكون شبيهًا بفيلم القرية، ذاك الذي أثار ضجّةً في البلاد في التسعينات بعد عرضه في تونس، وحصوله على إعجابٍ من مخرِجي أفلامٍ أجانب، وهُرِّب إلى البلاد وبلغ القرية، ووجد الناس أنّه صوّرهم بشخصيّاتهم الحقيقيّة. أثار الفيلم ضجّةً في البلاد كلّها، وفي القرية بالأخصّ، بما يحمله من رسائل ومشاهد فاحشةٍ تصوّر ما يسمّيه هو «النفاق» وراء الجدران. ورغم كلّ ما حدث له، فإنّه تابع إرسال بعضٍ من نصوصه كمسلسلاتٍ كوميديّةٍ رمضانيّةٍ، ينتقد فيها المجتمع وطريقة تفكيره. كان يسمّي نفسه زواوي الشاشة، وكانت فكرة الفيلم الجديدة تتّبع نسقًا مشابهًا، إلّا أنّ هذا القرويّ سيتعرّض لمواجهة عالمٍ غريبٍ عليه. وكلّ ما يحتاج إليه من العبسي أن يكون بطل الفيلم، ضاربًا عرض الحائط بخبرتِه في التمثيل من عدمها.

- تريدني أن أمثّل؟ لا أستطيع فعل ذلك.

- بل يمكنك ذلك، لم أجد في سنين عمري كوميديًّا مثلك، والفيلم يناسب شخصيّتك، لقد رسمتُ الشخصيّة حتّى تناسبك.

- ما اسم الفيلم؟

- الأجرب هاهاهاها، ما رأيك؟

- هاهاهاهاهاهاها، أيّها الأجرب.

كنتُ أنصت إلى تلك المحادثة، متخيّلًا رؤية العبسي على شاشة التلفاز وهو يمثّل شريط حياته. سيكون المشهد غريبًا بما يكفي، ولكن شجّعني على الإيمان بقدرته على ذلك تلك الكوميديا التي تمتلئ بها روحه، كان مشبعًا بها، أقنعه لطفي بأخذ الدور، مؤكّدًا أنّه لن يجد مثيلًا له. تخيّلتُ أنّي سأضطرّ إلى العودة إلى الكوشة شئت أم أبيت إذا قبل العبسي ذلك، وقد فعل. لم تمضِ سوى أيّامٍ قليلةٍ على تلك المحادثة، حتّى غادر القرية، ومازال إلى الآن يتّصل بي لمعرفة رأيي حول إدارة الكوشة، وهو أمرٌ تأخّرت كثيرًا في الموافقة عليه، وذلك نظرًا إلى ما حدث بعد ذلك.

لكن، قبل أن يغادر العبسي بئر حسين، حادثني عن علاقتي بزينب للمرّة الأخيرة، أخبرني أنّه ذهب إلى المؤسّسة يومَ سقوطي من سقف البيت ليراقبها من أجلي، حتّى يتأكّد أنّها لم تعد إلى عادتها القديمة وقد رآها بأمّ عينه تركب سيّارة المدير مرّةً أخرى. قال لي إنّه لم يشأ إخباري بذلك، وأنا أعاني من كَسْرَيْن، كسرٍ في رجلي وكسرٍ في علاقتي بأخواتي، ولكنّه وجد أنّ من الواجب أن أعرف منه لا من غيره، «هي القطّة يا ميلاد» يقول لي، «اضربها حتّى تتربّى، لا أريد أن أعيش وأسمع كلّ الناس يقولون تلك الجملة مجدّدًا»، يقول لي قبل أن يغادر، «لكن يجب أن يكون هناك دليل على ما تقوله».

- هل يحتاج الرجل منّا إلى دليلٍ أو سببٍ ليضرب زوجته؟ قال لي.

- أعتقد ذلك.

- أنت أحمق وغبيّ، لا تحتاج إلى دليل لتضرب زوجتك، أنا أحيانًا أضرب أخواتي فقط للتسلية وإبعاد شبح الكساد عنّي. يقول لي.

- لكن...

- «لا لكن لا ماكن»، اسمع، النساء يرعبهنّ الحزام، الحزام هو سلاح الرجل القاهر، عد إلى البيت، خذ حزامك واجلدها به، بلا مقدّمات، لا تبرّر لنفسك، أو لها بأنّك تضربها لأنّها تخونك، فقط اجلدها وسترى، ستنسى ذلك السمين الوقح، بل ستطيعك في كلّ ما تقوله، حتّى لو قلت لها أن تقتل نفسها. افعلها يا ميلاد، من أجل راحتك، إنّ حالتك تقتلني. إذا أردت أن تعدل في الضرب، اذهب إلى أخواتك واجلدهنّ، اجلد هنادي، اجلد نفسك إذا أردت بعد ذلك، الجلد يطهّر الإنسان.

- لكنّني لا أملك حزامًا. لا أحبّ ارتداءه.

- ماذا عن النطاق العسكري؟ ألم تكن ترتدي واحدًا في العسكرية؟

- رميته مع البدلة منذ أن خرجتُ من أبواب المعسكر.

- إذَن هاك خذ حزامي، اعتبره هديّة التخرج.

- ....

- تذكّر يا ميلاد، اضرب القطّوسة تخاف العروسة، القطّة هي زينب.

كان ذلك آخر حوار جمَعنا هنا في البرّاكة. الوصيّة الأخيرة، أو الدرس الأخير الذي أودعه العبسي قبل أن نفترق، سلّمني مفاتيح البرّاكة، وأمّنني عليها حتّى يوم يعود. إذَن، ما رأيك في البرّاكة؟ إنّها جميلةٌ أليس كذلك؟ أحببتُ فقط أن أريك إيّاها قبل أن نتحدّث عن آخر فصول حكايتي، وما حدث في المطبخ، لكن قبل كلّ ذلك، لقد وعدتُ المدام أن أضيف إلى فيلمك مشهدًا عن طقوس صناعتي للخبز، ما رأيك في أن نصنع باقيت؟

المطبخ

«الراجل ما يعيبه شي»، مقولة شعبيّة.

(١٠)

لصنع باقيت جيّدٍ، أو أيّ خبزٍ آخر أجهّز نفسي جيّدًا للعمليّة. لا أترك أيّ فرصةٍ للنسيان. لذا أقوم في البداية بتمرينٍ نفسيٍّ وجسديٍّ. أعملُ على تمديد ذراعيَّ إلى أعلى كالآستيك، ثمّ أمرّ إلى الضغط على جذعي، والقليل من تمارين القرفصاء. الحسنة الوحيدة التي غنمتُها من العسكريّة هي التمرينات العضليّة التي تترك أثرًا في جسدي، إنّها تدفعني إلى النشاط وأخذ الأمر بجدّيّةٍ، وتتركني في حالةٍ من الرضا على النفس، وهذا ما أحتاج إليه عند البدء في العجن والخبز، أن أكون راضيًا عن نفسي، تاركًا أفكاري في حقيبةٍ خفيّةٍ أرميها خارج المطبخ قبل الدخول، كما أترك عجلة الزمان تدور كما تشاء، فأنا على موعدٍ غراميٍّ مع فتاةٍ جديدةٍ أحتاج في مواعدتها إلى نسيان بقيّة الفتيات. ما أحتاج إليه من الزمن في ضبط مراحل الإنتاج أستخدمُ فيه ساعةً منبّهةً أضبطُها وفق ما يحتاج إليه الرغيف لا ما أحتاج إليه أنا. عند دخولي المطبخ، أبدأ بارتداء مئزر عبّاد الشمس. أحيانًا أرتدي المئزر حول قميصٍ نظيفٍ، كويتُه مع سروالٍ لا أستعمله إلّا للذهاب إلى المدينة، لكن لا أفعل ذلك إلّا إذا هممتُ بصناعة رغيفٍ جديدٍ، أحبّ أن يراني في أفضل حالٍ، أو إذا أردت أن أزور وصفة قديمة مضى زمنٌ طويلٌ على تجربتها، هذا ذوقي وطريقتي في العمل بالمنزل، أتأكّد أنّ المغطس خالٍ من الأواني، وأتأكّد من تنظيف مصطبة العمل، وتجهيزها لتكون خاليةً من أيّ أدوات، أو موادّ لا أحتاج إليها. أخرج ميزاني والمنبّه، ومعدّات الخبز والأواني التي سأستخدمها. أخواتي وزينب يخلطن بين الأدوات الخاصّة بطبخ الوجبات وتلك المستخدمة للأكل والخاصّة بالخبيز، لكنّني لا أحبّ فعلَ ذلك، أعتقد أنّ الأواني تعقد علاقةً مع الأشياء التي تستخدمها من أجلها. أجهّز الأدوات التي أحتاج إليها، وأرصفها وأرتّبها في زاوية مصطبة العمل، وقبل البدء في العمليّة الحقيقيّة، أشغّل المسجّلة على شريطٍ لأحمد فكرون، أحيانًا أشغّل أغنية «عيونك» أو «الشمس»، ولكن عند منتصف العمل تجدني أرقص عند ليل السهرانين. أجهّز العناصر الأربعة، الدقيق، الماء، الخميرة والملح. أعمل على وزنها جيّدًا، ووضعها في أوانيها الخاصّة. أترك بعضًا من الدقيق في إناءٍ إضافيٍّ إذا احتجتُ إليه في أيّ مرحلةٍ من العجن، فمثلًا سنحتاج إلى الكثير منه

لمرحلة تشكيل الباقيت، وأستخدم ماءً صافيًا ونقيًّا أشتريه من محطّات التحلية، أو من السوق، يجب أن تستخدم ماءً معدنيًّا نقيًّا لخبزك، ولا أرضى باستخدام ماء الحنفيّة. أمّا الخميرة، فالأمر متوقّفٌ على نوع الخبز الذي أريد عجنَه، وعن الوقت الذي أملكه بين يديَّ. أنا لا أفضّل استخدام الخميرة السريعة، ولكن من أجلك ومن أجل تصويرك لفيلمك، سأدع فالنتينا ترتاح اليوم، قد يمتدّ الوقت الذي يجهّز فيه العجين المصنوع من الخميرة الطبيعيّة إلى يومٍ أو يومَيْن نظرًا إلى بطء نموّها. عليك معرفة أنّ هناك أكثر من طريقةٍ لصناعة الباقيت الفرنسيّ، وهذه الطريقة واحدةٌ من عشرات الطرق لفعل ذلك. ما أحبّه فيها أنّها تخرج منتجًا منزليًّا يضاهي ما قد نجده صدفةً في أحد مخابز باريس -التي لم أزرها على العموم، لكنّ المدام أخبرتني بذلك-. إنّ مقدار الماء للدقيق فيها هو ٧٠ ٪، ممّا يعني أنّ العجين في شكله الأوليّ يصعب العمل عليه.

أنا أحبّ أن أضع الدقيق في الوعاء أوّلًا، ثمّ أضيف بقيّة المكوّنات. يمكن أن نبدأ العجن من دون وعاءٍ إن أحببنا. نشكّل الدقيق كنافورةٍ نصبّ وسطها الماء ونبدأ بتخليط المكوّنات. أضيف الملح أوّلًا إلى الدقيق وأحرّكه جيّدًا، حتّى يختفي بين حبّاته، ثمّ أضيف الخميرة، فالماء بكمّيّاتٍ قليلةٍ وأبدأ العجن بيدي. أنا أحبّ فعل ذلك. يمكنني التّفاعل مع المكوّنات، وتحسّسها وإرسال حبّي إليها وجعلها تشعر بما أشعر به، بدلًا من المغرف. في العادة يأخذ الخلط منّي ما بين دقيقتين وخمس دقائق، وعندما أنتهي من العجن، وأتأكّد من أنّ العجين في الحالة التي أريد، لا أضيف في هذه المرحلة أيّ دقيقٍ، أغسل يديَّ، وأتركه يكبر وحدَه، أضبط المنبّه لمدّة ٤٥ دقيقةً، في العادة أمضي ذلك الوقت في العمل على شيءٍ آخر كالتنظيف أو الاهتمام بالحديقة أو غسل الملابس، ولكن اليوم، سنشرب الشاي وسأخبرك بقصّتي مع المدام مريم.

(١١)

عرفتُ المدام مريم في السنة الثالثة من بدء زينب العمل في المؤسّسة. في أحد تلك الأيّام الربيعيّة البهيّة، أيّام يتزيّن الشارع الذي تطلّ عليه المؤسّسة، كنتُ أركن سيّارتي تحت شجرة الجهنّميّة. لطالما أحببتُ أن أركنها هناك منتظرًا خروج زينب حالمًا بجمالها الأخّاذ وتردّدها في قطعِ الطريق. إلّا أنّها لم تُطلّ وحدها في ذلك اليوم، كانت صحبة امرأةٍ سافرة، ترتدي نظّارتين شمسيّتين وفستانًا أصفر مزيّنًا بأزهار عبّاد الشمس. كان الفستان منحوتًا على جسدها. طولها يأخذ بلبِّ البوّاب الذي يجلس على باب المؤسّسة، فيقف احترامًا لها. مازلتُ أتذكّر أنّ زينب كانت ترتدي بذلتها الرسميّة السوداء، تنّورةً طويلة تصل إلى منتصف الساق، وجاكيتا يلتفّ حول قميصٍ أبيض، وشعرها الأسود الفاحم يخرج قليلٌ منه من المحرمة البيضاء المزيّنة بأزهار البنفسج.

أثارتني المفارقة بين جسدي المرأتين. زينب الحازمة الجدّيّة حريٌّ بربّ عملها أن يعطيها وسام الموظّف المثاليّ، والمدام مريم العفويّة المزيّنة، تبدو كأنّها كانت في نزهةٍ بحياةٍ أقصر من أن نمضيها في العمل. قطعنا الشارع، واقتربنا من السيّارة. زينب تطلب من المدام أن تركب. تجلس زينب بجانبي وتخبرني بأنّ زميلتها في العمل قد تعطّلت سيّارتها، وسيكون جيّدًا أن نقلّها إلى مكان سكنها. ركبت المدام السيّارة، خطفتُ نظرةً سريعةً من المرآة الوسيطة فصار حضورها في السيّارة أقوى، ذكّرتني بسارة، فخففتُ على نفسي من انتقال الشهوة، كالحاج لمّا اطّلع على جسدِ مريمه في «صيف حلق الوادي». «مدام مريم، هذا ميلاد زوجي». قالت زينب، «لقد سمعتُ عنك قصصًا كثيرة، تشرّفت». مدّت يدها إليَّ كسيّدةٍ تطلب من خادمٍ لها أن يقبّلها احترامًا، ولمّا مددتُ يدي نحوها، رأيتُ صورتي على نظارتيها. فتحرّكتْ بسرعةٍ لنزعهما معتذرةً عن أسلوبها «الفظّ»، كأنّها قرأت تعجّبي من وجودها في الكرسيّ الخلفيّ. كانت عيناها العسليّتان تتحدّيان شيئًا في داخلي. إن كانت زينب زهرة الياسمين، وسارة زهرة الصبّار، فهي زهرة عبّاد شمسٍ فريدةٌ، قادرةٌ على لفتِ الانتباه وسط أزهار عبّاد أخرى، «سررتُ بمعرفتك»، «أعتذر عن التطفّل»، «لا داعي إلى الاعتذار»، أعودُ إلى مكاني وأشغّل محرّك السيّارة، أنظر إلى زينب التي كانت تبحث في حقيبتها عن مكياجها لتعيد ترتيب نفسها، «سيّارة جميلة، ذكّرتني بالمرحوم أبي، كان يملك أختها لكنّها بيضاء»، سمعتُ نغمات موجات صوتها كأنّها العذراء مريم تغنّي للمسيح، «هذه السيّارة أيضًا تعود لأبي رحمه الله»، قلتُ لها ونحن نتحرّك.

- هل يمكن أن أعذّبك أكثر؟ ابني في الحضانة.

- لا مشكلة.

مضى ذلك المشوار ثقيلًا عليَّ، كأيّ رجلٍ تفاجئه زوجته بزائرة. أنصتُّ لمحادثة زينب معها حول مسار العمل، ورأس المدير المدوّر المغلق الذي يأبى انفتاح البلاد حول العالم في تلك الفترة. كانت زينب تتحدّث بنبرةٍ منزعجةٍ عن العراقيل التي يضعها في طريقها، بينما تردّ عليها المدام مريم بأنّ هناك أكثر من طريقة إلى إقناعه وجعل العجلة تدور. تحاول الهروب من المحادثة حول العمل الذي خلّفته في مكتبها، بأن تُشير إلى مبنًى قديمٍ، أو إلى شجرةٍ مضى زمنٌ على رؤيتها إيّاها، بينما أحاول أن أنصت لغناء أحمد فكرون وبتركيزٍ. «هل مازال هناك من ينصتُ لأحمد فكرون؟»، تراقصت كلمات المدام في أذنيَّ، بينما تبتسم زينب، «إنّه ميلاد، أخبرتكِ بأنّه فريد من نوعه»، تبتسم لي فأبادلها ابتسامةً حنونةً، «قالت لي زينب إنّك تعشق صوت هذا الرجل، لماذا؟»، «إنّه يطردُ أفكاري» أجبتها بصعوبةٍ، بينما أحاول ألّا أنظر إلى المرآة حتّى لا يعلق جسدي عائمًا في

بحرِ العسل. تناست إجابتي وتذكّرت سؤالًا آخر قفز إلى رأسها، «آه حقًّا، أنت خبّاز؟»، «كنتُ كذلك، أنا الآن أعمل في بيتزاريا»، «إنّه يكذب، ميلاد مازال خبّازًا، هل تذكرين أرغفة الخبز التي أحضرتها معي في يوم سندويتشات التونة؟ إنّها من صنعه»، «آه مازلتُ أتذكّر رغيف الباقيت اللذيذ، عندما تذوقّته مرّت بلساني أيّامي في باريس، سألتكِ من أين اشتريته لكنّك تهرّبتِ من الإجابة»، «ميلاد لا يحبّ أن يطلب الناس منه أن يخبز لهم، وخاف من المضيّ قدمًا في تجربة بيع الرغيف»، تحمّلتُ الإطراء الذي وقع على رغيفي ووجّهتُ إليها سؤالًا حول أيّامها في باريس، قالت لي بينما اقتربنا من حضانة ابنها إنّها عاشت فيها أشهرًا قليلةً مع زوجها، قبل أن يرحل عن الدنيا، كانت من أجمل ما عاشته. تخرج من شقّتها على شارع الشانزيليزيه عند السابعة صباحًا، ترقص على رائحة المخبوزات والقهوة وإيقاع الموسيقى الشاعريّة حتّى تصل إلى الحديقة، تمضي ساعةً من صباحها في الرياضة والركض، بينما يذهب زوجها إلى الجامعة، تعود بعد ذلك إلى شقّتها، وقد اشترت كرواسون. تمضي وقتها في الكتابة، ينسابُ الوقت وهي تجلس على آلة الطباعة، أمام نافذةٍ واسعةٍ مطلّةٍ على الشارع المزدحم. كانت تحبُّ الزحمة، ولا تكتب إلّا في حضورها. تنهي نهارها في الشقّة، بين الأكل والكتابة والاستماع إلى الحياة الورديّة. بعد ذلك إمّا تخرج للغداء مع زوجها أو وحدها، تشتري من مطاعم الأكل السريع التي بدأت تشتهر في أوروبا بعد أن ظهرت في الولايات المتّحدة، وهو بلد زارته أيضًا من ضمن بلدان أخرى.

- إذَن أنتِ كاتبة؟ أسألها.

- ليس تمامًا، كنتُ كاتبة وطبيبة نفسانيّة، لكنّني لم أتشجّع على العمل في المجاليْن، أنا الآن أعمل في الإدارة الماليّة بالمؤسّسة.

ضحكتْ زينب بعد أن تخلّصت من زرّ الجاكيت، وانغمست في كرسيّها، امتدّت يدها إلى علبة سجائري الموضوعة تحت مسجلّة السيّارة وأشعلت سيجارتها، كانت تفعل ذلك كلّما ركبت السيّارة بعد يوم عملٍ طويلٍ ومؤلمٍ لظهرها، تذوب في الكرسيّ وتنتظر أن ندخل شارعًا شبه مهجور ثمّ تطلب منّي أن تشعل سيجارةً. تعجّبت من قدرتها على فعل ذلك أمام زميلتها في العمل. اختلستُ نظرةً إلى المرآة الوسيطة حتّى أقرأ ملامح المدام، كانت شمس العشيّة تحنّي شعرها البنّي بالبرتقاليّ المخادع، جذبني شكل الشعر للبحثِ أكثر في ملامحها، فتحوّل نظري إلى أسفل. أرى انعكاس زجاج السيّارة وجسد زينب في نظّارتيْها، فأنسى نفسي نازلًا إلى شفتها المصبوغة بأحمرِ الشفاه، يتحوّل الانعكاس في النظّارتين إليّ. انعكاساتٌ متكرّرةٌ للمرآة، وابتسامةٌ خفيفةٌ على شفتيْها،

كأنّها قد أمسكتني بالجرم المشهود. توتّرت، كنتُ مرتاحًا أنّها لم ترَ زينب كما يراها الناس خارج السيّارة، لكنّ سبب توتّري هو اكتشافها أمري.

- زينب تحبّ أن تكون كاتبةً، قلتُ لها.

- صحفيّة. صحّحت لي زينب.

- أعلم ذلك، أخبرتها أنّ لديها شخصيّة الصحفيّة، عليها فقط أن تجد الموضوعات التي تهمّها وتبحث عن حقيقتها. قالت المدام مبتسمة.

- ولكن المشكلة أنّ الصحافة في بلدنا ليست جدّيّة على نحوٍ كافٍ. قالت زينب وهي تنفخ دخان سيجارتها خارج النافذة المتّسخة التي تذكّرني بضرورة تنظيف السيّارة.

- جدّيّة على نحوٍ كافٍ؟ سألتها المدام.

- أعني إلى ذلك الحدّ الذي يخاطر فيه الصحفيّ بحياته من أجل الحقيقة. قالت زينب.

- أذكر عندما كنتُ في باريس أنّ صحفيّةً مّا نجحت في فضح مسؤولٍ كبيرٍ، كان يهدّد الفتيات بعد أن يغريهنّ على مواعدته بتصويرهنّ عارياتٍ، ثمّ يبتزهنّ بنشر صورهنّ. كان من ضمن الفتيات بنات الطبقات المرموقة في المجتمع من فنّانين ومثقّفين ونخبة، هل تعلمين كيف استطاعت أن تفضحه؟

- كيف؟

- بعد أن علمت بقصّة إحدى ضحاياه، جعلتها تعرّفها عليه. انتحلت شخصيّة صديقةٍ لها ولبست ملابسها وأحبّت ما أحبّته، جعلت نفسها تصدّق أنّها فتاةٌ في مقتبل العمر، حتّى يصدّق الرجل ذلك، وعند مواعدته لها، صوّرها، لكنّه لم يكن يعلم أنّها مارست عليه الخدعة ذاتها، كانت الصورة التي وضعتها الجريدة غلافًا للعدد صورتَه وهو يأخذ الصور لها عاريةً.

- الله. قالت زينب.

أخذت المحادثة بينهما بعدًا لم أتمكّن من ملاحقته، أو حتّى تذكّره. تابعت المضيّ قدمًا ناحية الحضانة، وصلنا أخيرًا بعد كلّ هذا التعب النفسيّ. نزلت المدام لتحضر ابنها، ففتحتُ أحد أزرار

قميصي لأتنفّس الصعداء، نظرت زينب إلى انفعالي، «هل أنت على ما يرام يا ميلُو؟»، «لا، هو فقط تعب القيادة».

لمّا رأيتها، مرّةً أخرى، تحمل ابنها ذا السنتيْن، ظننتُ أنّ المرحلة الصعبة من الرحلة قد مرّت وستتغيّر مشاعري المؤرقّة من جاذبيّتها إلى مشاعر لطيفةٍ حول طفلٍ وأمّه. ركبت السيّارة مجدّدًا تحمله على حجرها بينما تتحدّث معه كأيّ أمٍّ وطفلها، تلاعبه وتسرّح له شعره بيدها التي أرادت أن أقبّلها ولم أفعل. أحسست بسعادةٍ وهدوء شُعيرات ساعدي من لطفِ اللحظة، لكنّ سحنة زينب المتغيّرة جعلتني أقلق من وجود الطفل في السيّارة، «هذه خالتك زينب، وهذا خالك ميلاد، سلّم عليهما»، قالت له. مدّت زينب يدها إلى الطفل الصغير بابتسامةٍ حزينةٍ ومترقّبةٍ وكأنّها تبحث عن طفلها فيه. تعجّلت أنا في المقابل بمدّ يدي واسترجاعها إلى صدري دون أن ألمسه، «هل يمكنني حمله؟»، قالت زينب، «نعم بالتأكيد»، نظرتُ إليها وهي تلاعبه بين يديها، وحلمتُ لحظةً بأنّها تلعب مع ابني، قد تلقمه حَلمَتها ونحن في السيّارة نبحث بأحدِ الشوارع المهجورة البعيدة عن أعينِ الناس عن مكانٍ يمكننا أن تخرج له فيه ثديها. حلمتُ، وهي تصدر أصواتها محاولةً إضحاكَه، بأنّه لي وفكّرت بإمكانيّة سرقته من أمّه، وتمنّيتُ أن تنزل من السيّارة وتنساه صحبتنا، نعود به إلى بيتنا ونلقّنه أساسيات الحياة ونعيشُ مراحل عمره معه، نسرّح له شعره بعد دشّ بخاريٍّ مريحٍ، ونُلبسه ملابس المدرسة ونصحبه إليْها. «آه إنّه يبكي»، قالت زينب قاطعةً حلمي عليَّ، بينما تذرع البيجو الطريق ونحن نتحرّك نحو الغرب إلى حيّ الأندلس، ذلك الحيّ المخالف لقريتنا في كلّ تفاصيله وحياة قاطنيه. «هدهديه وغنّي له، كأنّكِ أمّه»، قالت لها المدام مريم، وأسرعت في الغناء له تريد من زينب تقليدها. وضعت زينب جسده بين يديها وبدأت تغنّي له مع أمّه، «حمّد يا حمّودة، إن شاء الله تولّي كبير»، أمّا أنا فقد علقتُ في كلماتها التي استخدمتها لإرشاد زينب «كأنّكِ أمّه».

انتهت تلك الرحلة على ما يرام، ورغم قسوتها على نفسي، فقد انتهت. شعرتُ براحةٍ لا ينافسني فيها أحدٌ عندما وصلنا إلى فيلّا المدام الواقعة أعلى هضبة حيّ الأندلس، تلفّها شجرة الجهنّميّة التي تسلّقت سورَ بيتها. بعدما ودّعناها علمتُ من زينب أنّها تقطن في الفيلّا وحدها صحبة ابنها، وأنّ الزائر اليوميّ الوحيد لها خادمتُها المغربيّة، ولسببٍ مّا سأعرفه منها في المستقبل هي لا تثق في وجود طفلها معها. كانت منذ وفاة زوجها الثريّ تعيش وحدَها، رافضةً عودتها إلى جناحِ عائلتها، أو عائلة زوجها خوفًا من تسلّطهم عليها بعد أن تشرّبت مبادئ الحرّيّة في سفراتهما المتلاحقة بين عواصم الدول الأوروبيّة. تنتمي المدام إلى الواحد بالمائة من الطبقة التي رفضت مشاركة الشعب ثروتَها بعد ثورة القائد، وظلّت تناضل من أجل حقّها في ذلك. أمضت طفولتها في لندن، حتّى عادت منتصف التسعينات إلى ليبيا حالمةً بوطنٍ نشأ ليكون غريبًا عليها ويحشرها في زاوية العزلة

عن المجتمع المحيط بها. تعرّفت على زوجها لانتمائه هو أيضًا إلى تلك الطبقة، ولم يعيشا سوى أيّامٍ معدودةٍ في بيتهما بحيّ الأندلس. تابعت زينب حكاية قصّتها وربطها بمزاج من الغبط والتمنّي، «ماذا لو عشنا نحن في هذا المنزل» تقول لي، «أو حتّى في المنطقة»، وأردت أن أكمل كلامها في نفسي «أو حتّى بعيدًا عن قريتنا».

لم تمضِ سوى أسابيع قصيرةٍ حتّى تطوّرت علاقة عائلتنا الصغيرة بالمدام التي زارت القرية في بهجةٍ لم تخجل من الإفصاح عنها. كان ذلك في موسم البرتقال في شهر الكانون([12]). أخذتها زينب وأخواتي إلى إحدى السواني وهي تحملُ طفلها بين الأشجار، متعجّبةً من لذّة الطعم الطريّ لثمار البرتقال. أحبّت القرية، وشعرت أنّ بإمكانها العيش فيها طيلة حياتها، أو هذا ما أخبرتني به. تعرّفت على النساء القديمات قدم الحياة في هذا الكوكب، وجلست على الأرض تشرب الشاي من يدَي أمّي التي أنّبتها كعادتها على عدم ارتدائها الحجاب. تبتسم المدام واعدةً إيّاها بمحاولة ارتدائه، «كيف لا تتغطّين أمام ميلاد ابني؟»، تسألها أمّي لتحشرها في الزاوية، تشعر زينب بالحرج من حماتها بأفكارها البالية وصراحتها المخيفة. تضع المدام يدها على يدِ زينب مشيرةً إلى أنّ كلمات العجوز لم تحرّك غضبها كأنّها تحدّثها بأنّها تتفهّم شخصيّتها، ثمّ تدخلان الشقّة. أكون قد أعددتُ العشاء، «حرايمي» بطريقة بنيامين مع أرغفة الباقيت الفرنسيّ، وجهّزت الطاولة التي نادرًا ما نستخدمها للأكل إلّا في الفطور، أشعر بالحرج من الجلوس في الطاولة نفسها معها، لكنّها تصرّ على أن نجلس معًا لنتحدّث عن الحياة والأحلام والقرية. تخبرني أنّها عندما كانت تمرّ في «سواني» أبناء العمومة شعرت بأنّها تدخل الجنّة، وتمنّت لو لم تختفِ رائحة البرتقال الطازجة من يدها البتّة، أو لو أنّها تمكّنت من زيارتنا في موسم الرمّان. تحدّثت بحماسٍ عن البلدة، حتّى شعرتُ بأنّني لم أقطنها يومًا، وأنّي، ولأوّل مرّةٍ، أتعرّف على الجمال فيها، على الطرق الترابيّة التي ملأت بها ملابسي وقدميّ، على النساء في أثوابهنّ وأرديتهنّ الزرقاء والخضراء والحمراء بتقاطيع من الأبيض الفضيّ، وبالكنوز والعالم الآخر الذي يخبّئنه خلف عُقد الصدر، بين الحليّ والفساتين الزهريّة الخفيفة، وبأشجار الحنّاء والليمون التي اختفى وجودها من حيّ الأندلس، والآبار وأشجار التوت التي تتّخذها الطيور أعشاشًا لها، وبغناءِ الهدهد الذي لم تسمعه منذ زمنٍ في المدينة، نظرًا إلى انقطاع الحبل بين طرابلس والحياة البرّيّة حولها.

- كيف تعلّمتَ كلّ هذا؟

قالت لي بعد أن أنهت عشاءها، وأخذت تشرب من كأس الشاي وكعكة التفاح التي حضّرتها كتحليةٍ للمناسبة. كنتُ أنظّف صحون العشاء، وهي تجلس مع زينب التي أشعلت سيجارةً. كنّا قد

انتهينا من الحديث حول السانية، ورأيت أن أتركهما تتحدّثان في ما تحبّان، بينما ألهي نفسي بما تبقّى من العمل المنزليّ لذلك اليوم. سمعتُ سؤالها، وأنا أحاول أن أخرج من ورطة وجودي بين أُنثيين، مفكّرًا في مشروع إعادة تسييج البرّاكة، الذي لم يُقَدّر له أن ينتهي. كنتُ بالفطرة منجذبًا نحو تقليم أظافر القبح حولي، قالت لي أخواتي إنّني عندما كنت صغيرًا، كانت غرفتي هي الوحيدة المرتّبة في البيت، قبل أن تبدأ أمّي أعمال المنزل، ربّما هكذا بدأ الأمر، ثمّ إنّني كنتُ أراقب أفراد العائلة، وأخزّن في رأسي الصغير ما يفعلونه. مرّت ببالي أوّل مرّةٍ أراقب فيها أخواتي وهنّ يطلين أظافرهنّ، أدرس العمليّة جيّدًا من باب الفضول، أرى أختي صالحة تمرّر على أظافر قدمِ صفاء الصافية الطلاءَ الأحمر بهدوءٍ ورويّةٍ، ثمّ تنفخ عليه، تضع الريشة في العلبة الصغيرة، ثمّ تخرج الطلاء أحمر لامعًا، يمكنني أن أرى فيه انعكاس جسديْهما، وتمرّر الريشة مرّةً أخرى على ظفرٍ آخر، ثمّ تتأكّد من أنّها ملأت الزوايا والأماكن الصعبة. انتابني الفضول، فسرقتُ مرّةً علبة الطلاء وزوّقت بها أصابع يدي، لكنّني نسيتُ تفصيلًا معيّنًا، كان عليَّ تعلّمه قبل الدخول في المغامرة، وهو كيفيّة مسح الطلاء. شعرت بالتوتّر بعد أن جفّ الطلاء على يدي، حاولت خدشه وتقشيره، لكن بلا فائدة، دسستُ يدي ودخلتُ الحمّام لأغسلها لكن بلا جدوى، هربتُ من أخواتي اللّائي كنّ يحاولن الظفر بي لسببٍ لا أتذكّره، «ميلاد، تعال وارفع لوالدك غداءه»، نادت عليّ أمّي. كنّا نقطن في الظهرة ذلك الوقت، نسيتُ أمر الطلاء ونزلت أحمل الغداء إلى أبي، أعطيته الصينيّة، لاحظ الطلاء الأحمر على أظافري، صفعني على وجهي دون أن ينبس ببنت شفةٍ، ثمّ صعد إلى الشقّة وبدأ يزمجر في وجه أمّي وينعتها بأشنع الصفات. صام عن الأكل أيّامًا ثلاثةً، وهكذا عرفتُ أنّ من الضروريّ تعلُّم تنظيف الأظافر من الطلاء، «وبهذا كنتُ أتعلّم الطبخ ولكن غسل الصحون أيضًا، حلاقة شعري في الحمّام ولكن تنظيف المخلّفات وتشطيف الحمّام، توسيخ ملابسي وغسلها وكيّها وطَيّها وتخزينها وترتيبها». أخبرتهما فانقلبتا تضحكان، لم أعرف ما إذا كانت هذه الإجابة التي تبحث عنها ولكنّني وجدتُني أحكي بارتياحٍ عن تفاصيل خاصّةٍ، ربّما هو تأثير الكاتبات اللّائي يضعن السؤال مخلوطًا بلذّةٍ مشبوهةٍ. وضعتُ بعضًا من الفحم على النار، وسألتُ زينب عمّا إذا شاءتا البقاء بالصالون حتّى ترتاحا في الجلوس. «أنا مرتاحة»، قالت المدام وهي تسحبُ من علبة سجائري بجانب زينب سيجارةً وتشعلها بكلّ أنوثةٍ. كانت طريقة زينب في التدخين تشبه طريقتي، تلك التي تخبرك بأنّ ممسك السيجارة مدخّنٌ حقيقيٌّ ولا يأبه للمظاهر، كلّ ما يحتاج إليه هو أن يسحب منها النيكتون لتخدّر تشنّجاته أو تعب يومه. أمّا الحركة التي سحبت بها المدام السيجارة، ووضعتها بين شفتيْها، فتخبرك بأنّها كانت تفعل ذلك من أجل البرستيج، ومضت تحكي عن ارتباط هذا اليوم في البلدة بأوّل يومٍ تصل فيه إلى ليبيا. قالت وهي تزوّق سيجارتي بأحمر شفاهها، إنّها شعرت بأنّها نجمة سينما من كثرة الأعين المحيطة بها كالكاميرات تلتقط وجودها. عادت المدام بعد

أن تعب والدها من الغربة، وبعد أن اطمأنّ بأنّ القائد لن يزجّ به في السجن كما فعل بالكثير من رفاقه. هو لم يكن معارضًا حقيقيًّا طيلة حياته. كان مهتمًّا بالبزنس والتجارة، ولكنّ اختلاطه برفاق وأصدقاء أصحاب نظريّاتٍ حادّةٍ ومعارضةٍ للجماهيريّة جعله يخاف على نفسه وعائلته. لم يهتمّ والدها بأن يعلّمها القوانين التي يختار بها أبناء بلادها طريقة عيشهم. كان في زمنٍ حالمٍ ترتدي فيه بنات الطبقة الراقية التنانير القصيرة، لم يتابع البلاد وهي تتحوّل خلال خمسةٍ وعشرين عامًا إلى أيّام الأجداد الأولى، ولم يشهد ارتفاع صوت الداعية في مآذن المساجد والفضائيّات التلفزيونيّة يحثّ النساء على العودة إلى ارتداء المحتشم من الملابس والبقاء في منازلهنّ. عند وصولها أحسّت بشعورٍ غريبٍ، بأنّ كلّ الأعين مسلّطةٌ على جسدها ولباسها وشعرها، بدءًا من حاملي الحقائب في المطار، حتّى عمّها الذي استقبلهم. لم تفهم في تلك اللحظة أنّها في حضرة بلادٍ غريبةٍ عليها رغم ارتباط حبل سرّتها بها، ولهذا استمرّت في ارتداء الفساتين القصيرة والجلوس في المقاهي وحدها، تحاول أن تنسج قصيدةً تتراقص على رنين سوق القزدارة، أو تحاول الوصول إلى السماء داخل مقهى الأوروورا. كانت الأعين المراقبة تلاحقها حيثما حلّت. الرجال يحاولون التقرّب منها، والنساء المحتشمات يدعون الله السترة في الدنيا والآخرة. كانوا في البداية يعاملونها معاملةَ أجنبيّةٍ، أو حسناء الغزالة التي جسّدها فنّانٌ إيطاليٌّ في البلاد، وتركها متناسيًا وجودها بين الناس. قالت إنّها عندما أدركت وجود كلّ هذه القوّة التي تحيط بجسدها وحركاتها وصفاتها قرّرت الاستمتاع بالاهتمام، بل إنّها في مواقف عديدةٍ تحدّت الأعينَ التي تنظر إليها من نوافذ الشقق شبه المقفلة بابتسامةٍ شبه ساخرةٍ، رافعةً شعرها إلى أعلى، تستمتع بمرور الضوءِ بين خصلاته. أخبرها والدها بعد عشرين عامًا من اللّامبالاة بأنّ عليها الاحتشام كما تفعل كلّ النساء من حولها، «نحن لسنا في لندن». جعلتها كلماته تركّز أيّامًا، وهي تقود سيّارته في المدينة، في ما ترتديه النساء، وعجبت كيف أنّها لم تلاحظ ذلك من قبل. استمرّت في حكاية تعلّمها مقدارَ الحرّيّة المسموح به للمرأة في البلاد، كدتُ أنسى احتراق الفحم على النار، وأنا أربط قصّتها بقصّتي مع القرية. مضى زمنٌ طويلٌ قبل أن تعتاد قدماي على الطرق الترابيّة وانعدام الحدائق ودكاكيني المفضّلة، ومضى زمنٌ قبل أن أعتاد على الاستيقاظ صباحًا دون أن أفتح النافذة لأتأكّد من أنّ الكاتدرائية ما تزال موجودةً في الحيّ. لكنّني استيقظت من حلمي على انقباض ملامح زينب وهي تستمع إلى قصّتها. علمتُ أنّها لم تكن سعيدةً، ربّما كانت تفعل ما أفعله أنا، ربطت وجودها المتأخّر في القرية بوجود المدام مريم المتأخّر في البلاد. أخذتُ الفحم المحترق، وضعتُه في الكانون ونثرتُ من حبّات الوشق الإيرانيّ لأبخّر المكان، وأغيّر مسار الحديث عن الذكريات وتحوّلات الحياة من بلدٍ إلى آخر، من إنسانٍ إلى آخر، وأحارب التأثير الحزين الذي تضفيه السجائر على المكان.

- هل يمكنك تعليمي الخبز يا ميلاد؟ قالت المدام بينما تحملُ طفلها النائم خارجةً من الشقّة.

لم يسألني أحدٌ عمّا إذا كنتُ مهتمًّا بتعليمهم ما تعلّمته من الحياة. لم يتشجّع العبسي يومًا على أن يطلب منّي تعليمه كيفيّة زراعة بذور الذرة، أو البناء، أو كيفيّة الاعتناء بنفسه وبمن حوله، لم يكن مضطرًّا إلى ذلك، كنتُ دائم الحضور في حياته لفعل كلّ شيءٍ بدلًا منه. لم تفعل أخواتي ذلك أيضًا. كنّ يرين أنفسهنّ معلّماتٍ لي، ولا يمكن للمعلّمات أن ينقلبن تلميذاتٍ بين ليلةٍ وضحاها. حاولتُ تعليم زينب كلّ ما أعرفه، لكنّها كانت كتلميذةٍ سيّئةٍ تتهرّب من القيام بواجباتها، من أجل شيءٍ أكثر أهمّيّةً في رأيها. لم تسألني يومًا كيف أخبز البيتزا أو أصنع الخبز. كانت سعيدةً فقط بأنّني أوفّر كلّ ذلك عن طيب خاطرٍ. أرجو ألّا يُفهم كلامي خطأً، إذ أنّني كنتُ سعيدًا بقدر سعادتها، سعيدًا بأنّه يمكنني أن أوفّر لها هذا الحُبّ بالخبز، أو كيِّ ملابسها، أو حتّى تنظيف ساقها من الشعر، أو رسم حاجبيها. لكن، وبعد عشرين عامًا من العجن والخبز، أجد أخيرًا إنسانًا آخر غيري مهتمًّا جدًّا بما أفعله. غمرتني فرحةٌ ولكنّها مشوبةٌ بقلقٍ، حول جاذبيّة هذا الإنسان، وما يحاول الوصول إليْه. كنتُ أشعر بقوّة حضورها في قلبي، قوّةٍ لم أشعر بها منذ تلك الليلة مع سارة وبنيامين، وخفتُ على حبّي لزينب أن ينفرط، خفتُ أن أجد نفسي مجرمًا بدلًا من أن أكون الضحيّة.

- لا أعرف، أنا معلّم سيّئٌ، وزينب شاهدةٌ على هذا، أليس كذلك يا حبيبتي؟

- أنت لست معلّمًا سيّئًا، أنا التلميذة الكسولة. قالت لي زينب محرجةً غير مدركةٍ مدى ورطتي.

- آه لقد عرفت، أنت محرج. قالت المدام وقد اخترقت ما أمرّ به.

- ماذا؟

- محرج من تعليمي بلا مقابل، لكن لا تقلق، سأدفع لك ما تريد مقابل خدماتك، ما رأيك؟

- آه. أحسستُ بشيءٍ من الراحة بعد نطقها كلمة «محرج» المُحرِجة.

- اقبل العرض يا ميلاد. قالت زينب متحمّسةً للفرصة.

- لا أعلم، دعيني أفكّر.

لقد مضت سبع سنواتٍ، قبل أن أوافق على ذلك العرض. كانت المدام مريم كلّما رأتني تشاكسني حول اللحظة التي سأوافق فيها على تعليمها الخبز. لم ينطفئ قطُّ حماسها إلى الأمر. كنتُ محشورًا

في زاوية الرجل المتهرّب من العمل والحياة، خلال تلك السنوات، خصوصًا بعد انقطاعي عن العمل في البيتزاريا، ورضاي بشغل منصب ربّة المنزل الفارغ كليًّا. كان سؤالها المتكرّر يتحدّى خجلي وكسلي وخوفي وارتباكي، ويشعرني بصغر حجمي كلّما ردّدته في المقاهي مع زينب، أو من دونها، في زياراتها المنزليّة، أو زياراتنا نحن، في السيّارة عندما تتوقّف سيّارتها، أو في سيّارتها عندما تتوقّف سيارتي فجأةً أمام المؤسّسة.

حسنًا، إنّنا جاهزون للمرحلة التالية.

(١٠)

هذه المرحلة ليست طويلةً، ولا تحتاج إلى كثيرٍ من العمل كالمرحلة الأولى، كلّ ما علينا فعله هو أن نغطّس أصابعنا في الماء، نُخرج العجين من الوعاء ونضعه على مصطبة العمل النظيفة، نعاود تغطيس أصابعنا في الماء مرّةً أخرى، ونحمل العجين بسرعةٍ، نحتاج إلى السرعة والدقّة في أداءِ هذه المهمّة، نحمل العجين في الهواء ونقلبه مقدار تسعين درجةً، وعند وضعه على المصطبة نطويه على نفسه، نعاود العمليّة، نغسل الأصابع، نحمل العجين ونقلبه على المصطبة ستّ مرّاتٍ، ثمّ نعيده إلى الوعاء، نضبط المنبّه على التوقيت السابق ذاته، وننتظر مرّةً أخرى، هل وصلت الفكرة؟

(١١)

كنتُ أفكّر في المنحنى الذي اتّخذته علاقتي بزينب، وأنا أقوم بهذه العمليّة بالذات، عندما مرّت كلمات العبسي على أذنيَّ تتكرّر كشريطٍ به أغنيةٌ واحدةٌ، وفكّرت بالمأزق الذي أعيش فيه منذ سنواتٍ، مأزق البطالة، أو ما أحببت تسميته «التقاعد الاختياريّ»، وتعب زينب من العمل، وهو أمرٌ جعلها تتقرّب إلى المدير الذي كانت طيلة السنين الماضية تذمّه وتدعو الله أن ينصرها عليه. عدتُ في أحدِ الأيّام، من البيتزاريا، وأخبرتها بأنّني تعبتُ من العمل فيها. لم يحدث أيّ شجارٍ مع عَرْفي. سلّمتُه معدّات العمل، وأخبرته بألّا يتوقّع حضوري بعد ذلك. كرهتُ المشوار اليوميّ الذي أضطرّ فيه إلى الذهاب بين القرية والمدينة. لم يحاول العَرْفُ إيقافي، فهو نفسه وصل إلى مرحلةٍ من حياته كره فيها ذلك المكان، وأراد أن يغادره بأيّ طريقة، أن يحوّله إلى مقهًى يبيع فيه سندويشات المفروم، أو حتّى دكّان لبيع الحواسيب، كما فعل الجميع في الدائرة المحيطة به. شكرني على الجهد الذي بذلته، وتمنّى لي أن أجد عملًا أفضل. لم أفهم سبب استقالتي حتّى الآن، أرجعت السبب إلى كرهي لمنطقة الظهرة، وما تحمله من رموزٍ داخلها، تذكّرني بطفولتي التي

فقدتها، كرهي للمدينة وأيّامي التي أمضيتها فيها رفقة زينب ولم أجدها بعد ذلك. وأرجعته أيضًا إلى انشغالي بأملي الضائع في أن أكون أبًا، معتقدًا أنّ العمل يضفي عليّ معنى وحيدًا هو ذلك الأمل الذي لن يحدث. وعندما لم تقنعني هذه الإجابة، رجعتُ إلى إجاباتٍ أخرى، أكثر تفاهةً، البيجو وكبر عمرها وأعطابها المتكرّرة، ورغبتها في الراحة أخيرًا بأن أركنها في جنان البيت وأنسى وجودها، لكنّني لم أعرف السبب الحقيقيّ وراء ذلك. لعلّه انهزامي النهائيّ أمام معايير الرجولة التي وضعها المجتمع أمامي، ورضاي بأن تعولني زوجتي.

المهمّ، كنتُ أنهي كلّ مرحلةٍ من مراحل تحضير الباقيت غارقًا، في الوقتِ المسموح لي به، في أفكاري، متناسيًا قاعدتي في عدم فعل ذلك. لكنّ كلمات العبسي، التي لاحظتُ وجودها بعد أن رميتُ العجين بقوّةٍ على المصطبة، نبّهتني إلى ضرورة فعل ذلك. خفتُ على عجيني أن يفسد، لم أحاول يومًا أن أضرّ به قبل ذلك اليوم. انتقلتُ من فكرة الخيانة الزوجيّة التي هربتُ منها، لأجدها أمامي. كنتُ أعتقد، طيلة الوقت، أنّه إذا حدثت خيانةٌ بين جدران البيت، فسأكون أنا من فعلها، وليس زينب النقيّة العاملة بجدٍّ. كنتُ أجلس وحيدًا في غرفة الطعام كما أفعل الآن، أدخّن السجائر وأحتسي القهوة، وأسأل نفسي كلّ تلك الأسئلة التي دسستها في جيبي بلا قراءةٍ. جملةٌ واحدةٌ جعلتني أهتزّ وأستيقظ «عيلة وخالها ميلاد». إلّا أنّ انقلاب مزاجي لم يطُل، حتّى رأيت أبي جالسًا على الكرسيّ المقابل، حضر اليوم أيضًا في الكوشة. حدّق في المطبخ وفي صوره المعلّقة والعجين الذي أعمل عليه، حلمتُ بهذه اللحظة أكثر من مرّةٍ، أن يجلس ولو مرّةً واحدةً في بيتي، يحملُ طفلي بين يديه ويلاعبه. كان يشرب من كوب شايٍ، وامتدّت يده إلى علبة سجائري يدخّن منها، لم يتحدّث لدقائق، ارتفع دخان السيجارة من بين أصابعه، ثمّ نقر على الطاولة، كان متأهّبًا للحديث، أحسستُ بتفاقم هيبته على صدري، ثمّ ظلّ يرقبني، تتحدّى عيناه وجودي وأفكاري وتاريخي.

- العجين جاهز للمرحلة القادمة.

قال لي غاضبًا. تناسيتُ صوت المنبّه الذي لم يتوقّف عن الرنين. نهضتُ خائفًا من صورته. قلبتُ العجين شاعرًا بوجوده على الكرسيّ، غير قادرٍ على أداءِ مهمّتي بسهولةٍ. كنتُ قد نسيتُ غسل أصابعي قبل الإمساك بالعجين فالتصق بي كالمغناطيس، «ولد أحمق، ماذا تفعل؟ اغسل يديك»، سمعتُ صوته الأجشّ، «انسَ أفكارك». تغلغلت كلماته في عظامي إلى أن امتدّ الوجع في رأسي، «اطوِ العجين كما تفعل بملابس زوجتك، أم هل أنستك الملابس فعل ذلك؟»، تتحوّل التعليمات إلى تقريعٍ ومحاسبةٍ، «أم نسيت أنّ السرعة مهمّةٌ في هذا الخمول الذي تعيشه؟»، «دع الخبز للخبّاز»،

يعيدُ كلماته ساخرًا من إيماني العميق بأنّني خبّاز مثله. أنهي قلب العجين بعد عاصفةٍ من التوتّر، وألتفتُ إليه.

- ماذا تريدُ منّي؟ قلت وأنا أضرب النُّضد بكفّي.

- أن تعوم وحدك.

- أن، ماذا؟

- ستغرق إن خفت الغرق، هل نسيت؟ أم أحتاج إلى تكرار الأمر ألف مرّةٍ، حتى يدخل رأس التبن الذي تحمله بين كتفيك؟

- ستغرق إن خفت الغرق.

أعدت الكلمات، اختفى الحاجّ مختار من الكرسيّ. تبخّر كما يفعل كلّ مرّةٍ. وجدتها، عليَّ أن أتعلّم العوم مجدّدًا، أن أنتشل جسدي من الغرق، وأسبح به إلى الشاطئ، «زينب، أريدكِ أن تتوقّفي عن العمل». مرّت الجملة على لساني، متصوّرًا زينب أمامي، «اسمعيني يا حبيبتي، سأشتغل... سأعود إلى العمل، سأقبل عرض المدام في تعليمها»، وتذكّرت المدام وعرضها. مسحتُ يديَّ في المئزر، وأسرعتُ نحو الهاتف. رنين، رنين ثمّ يموت الرنين، أضغط الأزرار مجدّدًا، وأعاود الاتّصال، رنين... رنين... رنين.

- آلو، مرحبًا يا زينب.

- مرحبًا مدام مريم.

- آه ميلاد، إن شاء الله خير؟

- أنا موافق.

- موافق على ماذا؟

- أوافق على تعليمكِ الخبز.

أصفع زينب. نتباعد أيّامًا، أستغلّ هذا التباعد في لقاء المدام مريم. نجلسُ في المقهى تحت عقارب ميدان الساعة، ونتحدّث عن الدروس. أفهم ماذا تريد منها وما الذي تحتاج إليه، «لقد ربّيت ابني على طعام الخادمة، لكنّي أخشى أن يعتاد عليه، ويحاسبني عندما يكبر بأنّني لم أحاول يومًا أن أطهو له»، إذَن، ستحتاجين إلى دروسٍ في الطهي أيضًا، «ولكن لماذا تبدئين بالخبز؟»، «هناك مثل يقول من اعتاد على خبزك»، «يشوفك يجوع»، أتممتُ المثل، مددتُ يدي نحوها، ووضعتُ خطّة الدروس، «لكن أين ستكون الدروس؟»، قلت لها، «في مطبخي، فأنا أكاد لا أستخدمه». «ولكن، ماذا سيقول الجيران؟»، «لا تقلق، لا يتجرّأ أحدٌ منهم على طرقِ بابي... أعرف أناسًا في الدولة»، «سأطلب عطلةً من المؤسّسة لأتفرّغ للدروس»، تقول. نتّفق ونغادر المكان.

في اليوم التالي من الاتّفاق، أستيقظ باكرًا كعادتي. أنقل زينب بالسيّارة إلى المؤسّسة، وأخبرها بأنّني ذاهب إلى المدام لأعطيها الدروس. تخرج من السيّارة غير آبهةٍ بما أقوله، ويختفي جسدها الحازم في المبنى الإسفلتيّ القبيح. أمضي إلى موعدي. أفكّر بأنّ عليَّ شراء شيءٍ مّا لتلميذتي، هديّةَ بداية الدروس. أدخل دكّانا لبيع معدّات المطاعم والمخابز، أبحث في المكان عن شيءٍ ملائمٍ، شيءٍ يمكن أن يكون هديّةً. أمسك بأوعيةٍ وحللٍ وأوانٍ وأتركها. أدخل قسم الأردية، أراه، أقع في الحبّ من اللحظة الأولى، كان معلّقًا مع مآزر أخرى بعضها من الجلد، وعلى بعضها زهورٌ، البعض الآخر بألوانٍ قاتمةٍ تليق بالرجال العاملين في المقاهي. أبحث في الصفّ الخاصّ بالزهور، زهور بنفسج، ياسمين، و... وأشتري مئزريْن مليئين بزهور عبّاد الشمس. أصل إلى المكان فأركن البيجو العجوز تحت شجرة بونسيان بعيدًا عن البيت، حتّى لا يتبع أحد الجيران خطواتي. كان من حظّي أنّ الشارع شبه ميّتٍ. كنتُ أمشي تحت أشجار البونسيان حاملًا الهديّة، أراقب «الفلل» والسيّارات الفاخرة شاعرًا بالبهجة والحرّيّة، أصل إلى البيت، أرى الرقم على باب البيت، وأتعجّب من احتقار الدولة للقرية، وتركها بلا ماءٍ ولا أرقام يعرف الناس منها بيوتهم. أضغط على الجرس، يأتي صوتها مشحونًا برذاذٍ كهربائيٍّ يصعقُ روحي، «آه ميلاد... لقد وصلت». أتساءل كيف علمت بوجودي. أرفع رأسي باحثًا عن العين السحريّة فأجد تكوّر جسدي الهزيل على الكاميرا، «ادخل»، تمتدُّ رعشةٌ كهربائيّةٌ في الباب ليُفتَح أمامي، أراقب الشارع قبل الدخول، أبحث في نوافذ البيوت المغلقة، وفي الهدوء الذي يربكني، ثمّ أدخل البيت.

هل أخبرك بسرٍّ؟ منذ أن دخلتُ البيت، عرفتُ لماذا كنتُ أتهرّب طيلة السنوات الماضية من هذه اللحظة. نعم لقد دخلتُ البيت، أكثر من مرّةٍ مع زينب، لكنّي لم ألحظ هيمنته على قلبي قبل ذلك. ولكن هذه المرّة وأنا أدخله وحيدًا، بدا البيت بأكمله يحيط بي كسجنٍ ضخمٍ، سجنٍ من نوعٍ مختلفٍ، الجدار لا يشبه جدار المعسكر، كان أصغر بكثيرٍ، لكنّني شعرت بوجوده أعلى وأعلى. الحديقة

الخارجيّة بأشجارها وزرعها غير المشذّب، الذي يعاني من قلّة الاهتمام. الجهنّميّة كامرأةٍ نسيت تمشيط شعرها الطويل لسنواتٍ، شجرة رمّانٍ تكاد تموت، ذكّرتني بشجرة التفّاح المهملة في مزرعة عمّي، وذلك اليوم الذي حكمت عليَّ زينب فيه بالزواج منها دون أن تدري هي ولا أنا. أشجار نخيلٍ صغيرةٌ موزّعةٌ حول المكان، وممرٌّ بأرضيّة حجر العاشق والمعشوق المغبّر. وددت لو كان بيديَّ معولٌ لأبدأ في تنظيف ما أراه. كان واضحًا أنّ امرأةً وحيدةً تعيش فيه. تمرّ في عقلي ذكراي الأولى مع النباتات. أتذكّر أنّني ذات صيفٍ زرعتُ حديقةً صغيرةً من الذرة أعلى سطح العمارة في الظهرة، بعدما تعلّمت في المدرسة كيفيّةَ نموّها. أصعد كلّ يومٍ صباحًا لأسقي نباتاتي الصغيرة، ولأشاهد نموّها البطيء. كنت مأخوذًا بقدرتها على النموّ داخل الرمل الذي لا يزيد طوله على قدمٍ ونصفٍ. الرملُ الذي نقلته بدلوٍ من الشوارع الترابيّة في الظهرة إلى سطحِ العمارة في قيلولات أسبوعٍ كاملٍ. كانت السيقان الخضراء تنمو، وينمو الحبور داخل قلبي الأخضر الصغير الملفوف بعنايةٍ بيد الله، وكنت أجلس بجانبها الساعات، أكتفي بملاحظتها وهي تنمو والحديث مع أوراقها التي تزداد طولًا، تلك النشوة الطفوليّة التي تنشأ داخلك.. كنتُ أملكها في عينيَّ وثغري كلّ يومٍ أرى فيه نباتاتي تكبر، وذات عَشيٍّ صعدت إلى العلّيّة فوجدت نباتاتي الصغيرة قد اجتُثّت. كنت أرى أكواز الذرة التي بدأت في الخروج إلى عالمنا القاسي ملقاةً على الأرضيّة الخرسانيّة الحارقة، السيقان التي بلغت طولي كانت مقطوعة الأشلاء ومبعثرةً تحتي، كنتُ أبكي؛ أبكي بحرقةٍ حتّى إنّ دمعي كان يتبخّر على الأرضيّة الساخنة، التي ازدادت سخونةً. كرهتُ أن أرى النباتات تعاني ما عانته أكواز الذرة في طفولتي بعد ذلك وتألّم صدري للكائنات اللطيفة التي يتركها صحبها مهملةً بلا عناية.

يرتفع البيت بضعة أدراجٍ عن الحديقة، أجد الباب الخشبيّ الضخم قد فُتِح أمامي، تطلّ منه الراهبة الوحشيّة بفستانها المصريّ الزاهي بألوان مزارع القاهرة المطلّة على النيل، «أهلًا بالأستاذ»، قالت لي بينما كانت تدعوني إلى دخول البيت، تحرّكَ ميلادي قليلًا، متعطّشًا إلى شيءٍ يستجدّ عليه. نظرت إلى الباب المقفَل خلفي، فأدركت أن لا فرار من المكان، ماذا يقولون؟ البحر وراءكم والعدوّ أمامكم. حسنًا، في تلك اللحظة، كان السور من ورائي والمدام من أمامي. بلعتُ ريقي، سلّمتُ عليها، وقلتُ محاولًا تخفيف حدّة المكان على نفسي:

- يبدو أنّ حديقتكِ تحتاج إلى تشذيبٍ، العُشب الضارّ ينتشر وتكادُ النباتات تموت من العطش.

- آه، أحيانًا أنسى حتّى أن أروي نفسي.

- ماذا حلّ بها؟

- لا شيء في الحقيقة، كلّ ما في الأمر أنّ عمّي امحمّد، الجنايني العجوز الذي كان يهتمّ بالزرع مرّةً كلّ أسبوعٍ قد مات منذ أشهر.

- للأسف الشديد، لديكِ نباتاتٌ جيّدةٌ، كلّ ما تحتاج إليه هو العناية.

- ما رأيك في أن نضيف ذلك إلى دروس الخبز؟

- لا أعرف.

- ستكون فرصةً لأخبر الجيران الفضوليّين بأنّك الجنايني الذي ينظّف حديقتي.

تدفّق الدم أكثر في عروقِ ميلادي وانتابني الخجل من ذلك، أبعدتُ عينيَّ عن التحديق فيها مطوّلًا، كان الفستان قد أخذ من جسدها «حتّة» كما يقول المصريّون. تذكّرتُ أنّها كانت كثيرة السفر في السنوات السابقة، وأنّها قد سافرت إلى مصر لحضور أحد معارض الكتب هناك، عادت محمَّلةً بالكتب هديّةً إلى زينب، خمّنت أنّها اشترت الفستان من خان الخليلي، الذي يتّكئ عليه الحسين، من بائعٍ ذكيٍّ، أشعرها بأنّها قد اشترت أفضل فستانٍ في مصر أجمعها، وبأرخص الأثمان. ثمرتا الرمّان المعلّقتان على صدرها تجعلانني أريد الخروج من جلدي، فكّرتُ في مدى إدراكها ما أمرّ به، لعلّها تفكّر مثل بقيّة الناس في القرية، «إنّه ميلاد... لا خجل منه»، لكنّها قد تستخدم الجملة في سياقٍ مختلفٍ. في القرية يعني ذلك أنّني لستُ رجلًا تامّ الرجولة حتّى تخجل منّي، ولكن هل تعتقد هي ذلك؟ أم أنّها تقولها في نفسها واثقةً بي، وبأنّني لن أجرؤ على التعدّي على امرأةٍ أيًّا كانت. تساءلت عن كلّ شيءٍ قالته لها زينب. هل ذكرت في ما ذكرته أنّها لم تَخَف يومًا من كوني قادرًا على إغواءِ امرأةٍ أخرى. عدم اعتراضها على تدريسي للمدام يعدّ إشارةً إلى ذلك على أيّةِ حال. اصطحبتني كزائرٍ إلى متحف بيتها الضخم، يبدأ بصالةٍ كبيرةٍ وواسعةٍ وسقفٍ عالٍ يبوح بالثراء، كلّ شيءٍ في البيت يبوح بذلك، اللوحات الضخمة بالأطر الخشبيّة المذهّبة، الثريّات، الأرضيّة، التحف والصالونات وطاولة العشاءِ الكبيرة، ألحق جسدها المتحرّك بحرّيّةٍ في البيت، «لا تخجل، لقد طردت الخادمة... ومحمّد في المدرسة»، قالت وهي تتحرّك باتّجاه المطبخ، دخلتُ المطبخ الواسع، تتوسّطه طاولةٌ خشبيّةٌ ثقيلةٌ، وقد ألحقت به غرفة للتخزين. أحببتُ أن يكون مطبخي الذي أعيش فيه إلى الأبد. كنتُ طفلًا يحاول اكتشاف أفضل لعبةٍ رآها في حياته، أطرق خشب الطاولة والخزائن وأتعجّب من صلابتها، كان يمكنك أن تضع خروفًا كاملًا على الطاولة، دون أن تتحرّك ولو لحظةً، أحببتها. وقفتْ في المكان وقالت لي:

- هيّا لنبدأ.

- قبل كلّ شيءٍ، تفضّلي.

أخرجتُ المئزر من الكيس وسلّمتها إيّاه، أَخَذَتْهُ مُنشدّةً إلى ألوانه الزاهية، أبيض مُخدّر باللون الأصفر الجريء. أطلقت صوتًا يشبه البكاء فرحًا، ثمّ قفزت لتحضنني، تجمّد جسدي كما فعل قبل ذلك في حَضنه لزينب أيّام البيتزاريا، «شكرًا لك»، قالت. ثمّ ارتدت المئزر، ودارت على نفسها ثلاث مرّاتٍ، كأنّها ترقص. راقبتُ جمالها الأخّاذ الذي تحملني اللحظة على تقديره. ثمّ بدأنا الدرس.

آه، الفترة الثانية انتهت.

كلّ ما سنفعله الآن هو تكرار العمليّة السابقة. الاختلاف الوحيد أنّني سأجد العجين أكثر خفّةً وأسهل في التعامل، ممّا يعني أنّنا اقتربنا من هيئته الشبيهة بالكريم كراميل، نتركه كالعادة ليرتاح خمسًا وأربعين دقيقةً، ننظّف مصطبة العمل التي سنعود إلى رشّها بالدقيق، سنحتاج إلى الكثير منه. الحمد لله أنّنا لم نعد في أيّام القحط، وإلّا سيكون مصيرنا كصاحبِ المخبريْن.

أثناء هذه المرحلة من الدرس الأوّل للمدام، وفيها بدأت أنفتح نحوها على حياتي، كنّا قد انطلقنا بمحاضرةٍ نظريّةٍ «مملّةٍ»، كما قالت هي، عن تاريخ الخبز في ليبيا، وعن أهمّيّته وتطوّره وممّا يتكوّن. تفاجأت من المعلومات التي تملكها عن هذا المكوّن التاريخيّ في حياة الإنسانيّة. كنتُ أشعر بأنّني التلميذ وأنّها أستاذة تاريخٍ تشرح فيها علاقتنا بالخبز. قالت لي إنّ تطوّرنا نحن البشر كان منوطًا بالقمح، ولولا هذه النبتة الطويلة الساق ذات الحبوب المدغدغة، لما بلغت الإنسانيّة ما بلغته. لم أفهم الكثير ممّا قالته، لكنّني عرفتُ أنّ علاقتنا مع القمح تشبه تلك التي تربط السيّد بالعبد. هو السيّد في هذه العلاقة ونحن عبيده، وعرفتُ أنّ هذه العلاقة ذاتها جعلتها مهووسة بالخبز. إنّه يعمل على مستوياتٍ كثيرةٍ في العقل البشريّ، لم يشبع الإنسان قبل اكتشافه الخبز. كان يبحث دومًا عن قوت يومه بين الأشجار وفي لحوم الحيوانات، ولكنّه عثر على هذه الحبوب صدفةً، واكتشف بالصدفة كيفيّة جعلها دقيقًا، لأنّها لم تكن صالحةً للأكل، وبالصدفة أيضًا خلطها بالماء واكتشف الخميرة الطبيعيّة وانتبه إلى أنّها نفخت عجين الماء والدقيق، وبدافع الفضول حاول طهيها على النار فاكتشف مدى لذّة المنتوج الأخير. سمعتُ كلماتها واضعًا مرفقي على طاولة المطبخ، وهي تقاطع شرحي وكلماتي، «للخبز خميرتان، سريعة وطبيعيّة»، «آه عرفتُ الطبيعيّة، هل تعلم أنّ اكتشافها كان بمحض الصدفة؟»، ثمّ تتركني ذاهلًا أمامها، وتبدأ عمليّةَ الشّرح، «أنواع الخبز كثيرةٌ، بل إنّ لكل شعبٍ خبزًا خاصًّا به، في ليبيا لدينا المحوّرة وخبز التنّور»، أقول مستعيدًا

الشرح، «في نيويورك يوجد نوعٌ رائعٌ من سندويشات الخبز يسمّونه البيقلز، يجب أن تتعلّمه»، ثمّ تمضي في قصّ حكايتها مع أنواع الخبز التي تذوّقتها في حياتها، «خبز الشيباتا الإيطاليّ، الله ما ألذّه»، «الشيباتا؟ هل تقصدين المداس؟ كان أبي يصنع لنا منه، ولكنّه لم يعلّمني خبزه. لديّ كتابٌ بالإيطاليّة فيه بعض أنواع الخبز التي لطالما أردت تجربتها»، «بالإيطاليّة؟ حسنًا يمكنني مساعدتك، أعرف القليل منها». في المرّات اللاحقة سأكتشف أنّها تتكلّمها بطلاقةٍ. «حسنًا سنتعلّم اليوم الخبز المحوّر»، أقول لها، «ولكنّي أريد أن أصنع الباقيت الفرنسيّ»، «إنّه أصعب قليلًا»، «لا تستخفّ بعقلي، هيّا لنبدأ»، تقول لي. ثمّ نبدأ الدرس العمليّ. أرتّب الجوّ، وأخبرها بأنّ عليها ترك كلّ أفكارها، ونسيان الوقت قبل الدخول في موعدها الغراميّ مع الباقيت، وأبدأ في شرح نسبة المكوّنات وكلّ ما أخبرتك به. في الاستراحة الأولى حدّثتني عن زوجها، وكيف ارتبطت به، «هل تعلم، إنّك تذكّرني بزوجي؟»، كان ابن عائلةٍ ثريّةٍ ومهندسًا، يعمل في الحقول النفطيّة، وكان على وشكِ السفر للدراسة في فرنسا، عندما أخذها معه إلى أوروبا. كان يكبرها بعشر سنواتٍ أو أقلّ قليلًا، لم تتزوّجه عن حبٍّ، لكنّها اكتشفت حبّها له أثناء سفرهما. لم أفهم ربطها بيننا، إلى أن بلغت عيشها بحرّيّةٍ في فرنسا، تلتقي بأصدقائها القدامى من لندن، وتغيب معهم طيلة اليوم دون أن يتسلّط عليها. كان سعيدًا بعودتها نهاية اليوم، وحديثها عن يومها والأزقّة والمقاهي الجديدة التي تعرّفت عليها في تلك البلاد، عن الصور التي التقطتها للناس والقطط والكلاب والشرفات والطيور والمخابز. تخرج معه في عشاءٍ رومانسيٍّ، ويعودان منتصف الليل، وفي أيديهما أكياسٌ من ماركات الملابس والعطور التي يختارها لها. كان ذا عين ترى الجمال بدقّةٍ وتفرّق بينه وبين البشاعة. أحسست بأنّه النسخة الثريّة منّي، خال ميلاد آخر يذرع شوارع البلاد، «إذَن كيف مات؟»، «في حادث سيّارةٍ»، تقول لي حزينة، ثمّ تأخذ منّي علبة سجائري وتشعل سيجارة، «أحيانًا أتخيّل العدّاء في سجائر الرياضي كرجلٍ ميّتٍ مُلقًى على تاجه، والدم ينزف منه»، قالت لي. لم أفكّر يومًا في الرجل بهذه الطريقة، «ما الذي يجعلك تتخيّلينه هكذا؟»، «لا أعلم، ولكن يبدو الأمر أكثر منطقيّةً»، «نعم التدخين يضرّ بالصحّة»، أقول لها، «كذلك القراءة والكتابة والطبخ والماء والحياة والزواج في أحيانٍ كثيرةٍ»، قالت. ثمّ تذكّرت أنّها صنعت كعكةً لهذه المناسبة.

- كدتُ أنسى، هل تحبّ كعكة البرتقال والليمون؟

- لم أجرّبها من قبل.

- حسنًا، هي الشيء الوحيد الذي أعرف كيف أدخله إلى الفرن، لا تسألني عن أنواع الكعك الأخرى. تعلّمتُ هذه الكعكة بعد جهدٍ طويلٍ من صديقةٍ إنجليزيّةٍ، وقد أخطأت مرّاتٍ عديدةً قبل أن

أُخرج واحدةً بيرفيتّو.

- كلّ الكعك يشبه بعضه بعضًا.

- كلّ الطيور على أشكالها تقعُ.

- ماذا؟

- هاهاهاهاها أنت لا تعرفها؟

- لم أنهِ دراستي الثانويّة.

قلتُ ذلك معتقدًا أنّ للأمر علاقةً بإنهاء المدرسة الثانويّة. صُدمتْ من ذكري هذه المعلومةَ، لكنّي صُدمت من معرفتها المتأخّرة بذلك. كنتُ أعتقد أنّ زينب قد حكت لها كلّ شيءٍ عنّي، حتّى مستواي التعليميّ، ومدى ثقافتي. «احكِ لي عنك يا ميلاد»، قالت لي، لكنّي لم أكن مستعدًّا لترك مجلّدي مفتوحًا لها، «لا أستطيع»، «إذَن ما رأيك في أن تحكي لي لا بوصفي صديقةً، بل طبيبةً نفسانيّةً أو كاتبةً؟»، «أنا لستُ مريضًا، ثمّ إنّك أخبرتني بأنّك لم تزاولي المهنة»، قلتُ لها. ضحكت. كنتُ قد قلتُ نكتةً بالتأكيد، «المرض النفسيّ ليس عيبًا يا ميلاد، ولا يُشترَط أن تكون مريضًا حتّى تخبر الطبيب النفسانيّ بما يراودك، فكّر في الأمر على أنّه استشارة»، «آه كأولئك المستشارين العاطفيّين في شاشات التلفاز»، «ليس بالضبط، ولكنّه شيءٌ مشابهٌ، ستجد أنّك تعرف أشياء عن نفسك لم تدركها قبل ذلك، وأعدك بالسرّيّة التامّة»، «سرّي في بئر؟»، «بل في أعقاب سجائر رياضي منطفئةٍ ومرميّةٍ في القمامة مع ملايين غيرها»، قالت.

«ترررررن....ترررررررن» صاحت ساعة المنبّه ونهضتُ لنكمل الدرس.

في الاستراحة الثانية أخبرتها بكلّ ما أعرفه عن نفسي. طبعًا، لم أنفتح بالكامل أمامها، تركتُ بعض التفاصيل الخاصّة التي لم أرَ الوقت مناسبا لها، كمغامراتي مع زينب في البيتزاريا، ومزرعة عمّي وشقّة عمّها، وشكّي في خيانتها لي مع مديرها. كان حديثًا عاديًّا. تركتُ النقاشات الحادّة والعراك، ومحاولاتي الانتحارَ، وركّزت أكثر على قصّتي في المعسكر والكوشة. لم أكن قد وثقتُ بها بعدُ، لذا كنتُ كاذبًا في روايتي لما حدث في البدء. بعد ذلك بأيّامٍ ستعرف المزيد عنّي على أيّةِ حالٍ، اهتمامها المتلألئ في عينيها جعلني أتشجّع وأرتاح في الحديث، كأنّني أحدّث أختي صالحة، أيّامَ كانت تنصتُ إليّ وتهتمّ لأمري. ارتخت عضلاتي المشدودة أكثر، لمّا كانت تعلّق

على حدثٍ مّا برجاحة، «أنا حزينةٌ من أجلك، يتّضح تأثير المعسكر على حياتك وقراراتك، لكنّي أتفهّم أنّه لم يكن لك مفرٌّ منه»، تعليقات، مثل هذا التعليق، كانت تريحني وتجعلني أشعر بالشفقة على نفسي، في أيّام كنتُ خلالها أكره ما أنا عليه. خلعت الدروع التي حصّنت نفسي بها جانبًا، وانبثقتُ أحكي لها عن الحياة ومتاعبها وقرار تركي العملَ في البيتزاريا منذ سنواتٍ مضت. كانت تتلقّف كلماتي بصدرٍ رحبٍ، وتخفّف عنّي. لم أجد إنسانًا أمكنني الانفتاح نحوه مثلها قبل ذلك. كانت أحاديثي مع زينب في معظمها عنها، هي محور اهتمامي تاركًا همومي وحياتي في جيب سروالي الخلفيّ، إلى أن نسيتُ تفاصيل وجهي وما يجعلني أنا. لم أشعر بهذه الراحة في الحديث منذ زمنٍ بعيدٍ.

آه نحن جاهزون للمرحلة القادمة.

(١٠)

هذه المرحلة هي المفضّلة عندي. إنّني أشعر بسعادةٍ غامرةٍ، عندما ألمس العجين وقد تغيّر ملمسه كليًّا، أقطعه حسب طول الرغيف الذي أحتاج إليه، إلى أربعة أجزاء أو ستّةٍ، ثمّ أبدأ في العمل على كلّ عجينٍ وحدَه. في البدء نملأ مكان العمل بالدقيق. سنحتاج إلى الكثير منه ولا حاجة إلى البخل، أنثر ذرّات الدقيق على المصطبة، ثمّ أرتّب قطعي بعضها بجانب بعضٍ. أمسك إحداها، أفردها مستطيلةً باستخدام أصابع يدي (رؤوس الأصابع لا الأظافر) على المصطبة المشبعة بالدقيق، ثمّ أنثر دقيقًا فوقها. أفرغ المستطيل من الغازات داخله، ثمّ ألويه حتّى يخرج شكلًا شبه أسطوانيٍّ كخبز بانينا مفلطحٍ. ألصق الطرف المتبقّي من المستطيل بالإسطوانة كإغلاقك ظرفًا بريديًّا تريد أن ترسله إلى عشيقتك في مدينةٍ أخرى، أحمله كطفلٍ إلى المساحة التي سيرتاح فيها ربع ساعةٍ، وأكرّر الأمر نفسه مع بقيّة قطع العجين، أغطّيها حتّى لا يتخلّلها الهواء وتجفّ. أنتظر ربع ساعةٍ. في العادة أعمل فيها على تجهيز المرحلة القادمة. آخذُ فوطةً قطنيّةً مخصّصة للباقيت، وأفردها في مساحةٍ قريبةٍ من مصطبة العمل. أملأ الفوطة بالدقيق حتّى يتغلّب لونه الأبيض على لونها، في الكوشة كنّا نستعمل فوطةً خاصّةً. عمومًا، على الخبّاز أن يبحث دومًا عن البدائل، وما يتماشى معه. لا يحتاج المرء إلى أن يكون ملمًّا بكلّ شيءٍ حتّى يخبز، ولا يحتاج إلى الكثير. عندما أنتهي من تجهيز ما أخبرتك به، أغسل الأواني وأبخّر المطبخ مرّةً أخرى.

بعد مرور ربع ساعةٍ، أبدأ اللعب بالأشكال المبدئيّة. أضعها على مصطبة العمل، ثمّ أضغط على كلّ شكلٍ على حدةٍ. ما يفعله الضغط هو تفريغ الغاز، بالإضافة إلى المساعدة في استطالة العجين. عند ذلك، أبدأ في لفّها بشكلها النهائيّ الطويل، سيزداد طول الخبز على حساب مساحته الأوّليّة، ثمّ

أنقله بسرعةٍ إلى الفوطة المشبعة بالدقيق، أثني الفوطة حتّى تحاصر الرغيف النيء، وكي لا يلتصق بإخوته اللّاحقين، أكرّر العمليّة ذاتها مع إخوته. أضعه على المصطبة، أفرده حتّى يتمدّد، ألفّه كسندويشة سوريّةٍ بالزعتر، ثمّ أنقله إلى الفوطة، وهكذا. عند الانتهاء من ذلك، أغطّي الأرغفة النيئة بالفوطة، وأتركها لترتاح نصفَ ساعةٍ. أجهّز فيها الفرن والماء الساخن، وأنظّف مكان العمل من بقايا الدقيق، وأُخرج لوح النقل من الفوطة إلى طاجين الخبز الذي أضع عليه القليل من زيت الزيتون، أدخّن سيجارةً وأنتظر.

(١١)

أظهرت المدام مريم روحًا متشوّقةً إلى التعلّم. كنتُ أخشى ألّا تصل إليها معلوماتي تمامًا، لكنّها كانت تتفرّسها وتفطن إليها بسهولةٍ ممّا جعل الدرس سلسًا. انتهينا من الدرس الأوّل بعد مرور أربع ساعاتٍ وخروج الأرغفة من الفرن. صرخت من سعادتها لرؤية أرغفتها الشهيّة تخرج بلونها البنّيّ المذهّب. سَرَت في عروقي رعشة فخرٍ بنفسي وبتلميذتي المجتهدة، وتنفّستُ الصعداء، كانت عيناها لامعتين من فرط السعادة، تذكّرانني بمرّتي الأولى التي أخرجتُ فيها رغيفي الأوّل. شيءٌ يشبه رؤية طفلك، ومحاولةُ ترجمة ما قد تمرّ به لن يعطي الموقف حقّه.

- شكرًا لك يا ميلاد، تفضّل.

- ما هذا؟

- حقّك.

- مائة دينار؟ لكنّنا لم نتّفق على السعر.

- أتعتقد أنّه قليل؟

- بل كثير.

- كثير؟ أنت لا تعلم قيمة درسك عندي.

سلّمتني المدام مقابل أتعابي، ورافقتني وأنا أغادر المنزل. مررتُ بالحديقة الكئيبة مرّةً أخرى، ستحتاج إلى الكثير من العمل، «ها، ماذا قلت؟ هل نضيف إلى الدروس العنايةَ بالحديقة؟»،

«حسنًا، ولكن بشرطٍ، أن تتعلّمي كيفيّة العناية بها وحدكِ»، قلت. ثمّ خرجت إلى الشارع. كنتُ متأخّرًا على زينب، رميتُ بمئزري في صندوق السيّارة الخلفيّ، وركبتُها تاركًا الطريق تقتادني نحو المؤسّسة. كنتُ سعيدًا أفكّر في الدروس اللّاحقة، قد نبدأ درس الغد بإعداد خبز الريف الإنجليزيّ. شيءٌ بسيط حتّى لا تشعر بالخوف تجاه العمليّة. تمنّيتُ لو أنّ الدرس لم ينتهِ. أعادت إليّ المدام حماسي الذي كدتُ أفقده نحو الخَبْز.

وصلتُ إلى المؤسّسة، ركنتُ السيّارة تحت شجرة الجهنّميّة كما أفعل في العادة. لم تمضِ إلّا دقائق قليلة قبل أن تركب زينب السيّارة، في الطريق حاولتُ أن أحدّثها عن يومي الشيّق وأنا أسلّمها المال، «انظري، أتعابي لهذا اليوم»، قلت متحدّثًا عن الدرس، وعن قدرة المدام المذهلة في التعلّم. كانت تنصتُ إليّ صامتةً، حاولت أن أجرّها إلى الحديث معي. شعرتُ بأنّ على التوتّر بيننا أن يذوب كالثلج تحت شمس الصحراء الحارقة، وأن نعود إلى تبادل الحديث. لم أتعلّم بعدُ ماذا يعني التوتّر. أخبرتها أنّني أعجبت بالعمل مدرّسًا. مهنة خفتُ من مزاولتها لسبع سنواتٍ. كانت زينب تحمل على شفتيها ابتسامةً صفراء ساخرةً غير مكترثةٍ، وتغيب روحها في زجاج النافذة، «يجب أن ترتاحي»، قلتُ لها محاولًا أن أخفّف عنها الحمل الذي أثقلها، «الراحة في القبر»، قالت بعد صمتٍ مدقعٍ أقلقني. كنتُ أخاف ممّا حسبتُ له في السنوات السبع الأخيرة، أن تبتعد عنّي زينب بقدر قرب المدام مريم.

وقد حدث ذلك بالفعل. في كلّ درسٍ أنسى زينب لساعاتٍ، وأعود إلى تذكّر وجودها في حياتي بعد أن أصل إلى السيّارة خارجًا من بيت المدام. في كلّ درسٍ أقترب من المدام أكثر، ويلاحقني جسدها الفاتن في البيت، في وجهي على المرآة، في البرّاكة أحاول طرده بحضور زينب ومشكلتنا التي كانت تربض كجملٍ بيننا. أمضي أيّام أسبوعي بين الاهتمام بحديقة المدام وتعليمها الطهي والخبز، والتدرّب على يدِ العبسي، ومراقبة أفعال زينب وكلماتها، أمضيها في جزّ العُشب وتشذيب الأشجار وسقاية حديقة المدام، ومحاولة فعل الأمور ذاتها لحديقتنا. أمضيها في تحوير الخبز، وتعليمها طهي الحرايمي والكسكس، والاعتناء بالمنزل، وأحاول عند العودة أن أعتني بالمنزل بلا جدوى. كانت هناك أيّامٌ أترك فيها بيتي مهمَلًا بجبالٍ من الملابس المرميّة في كلّ مكانٍ. تضع زينب توقيعها على المكان ليصبح بيتها، بينما أعلّم المدام كيفيّة شراء أدوات التنظيف المناسبة. أنسى خبز ومأكل بيتي، متعجلًا للخبز مع تلك الكائنة الخرافيّة التي تنتظرني كلّ يومٍ بلباسٍ جديدٍ أمام الباب الخشبيّ، سعيدةً بأنّني تمكّنتُ من الوصول سالمًا. ثلاثة أيّامٍ في الأسبوع تمرّ كلحظةٍ وتبقى الأيّام الأربعة الأخرى بينها جامدةً، خانقةً وقاتلةً.

في أحدِ الأيّام توقّف محرّك البيجو عن العمل. كنتُ أشعر بسوء الطالع منذ بداية اليوم. عاندتني في الصباح، فمرّت بذاكرتي رحلة تونس. تجلس زينب في السيّارة تنتظر الأعجوبة التي ستنقذ يومها بعيدًا عن قريتنا، حتّى تندسّ في مكتبها بالمؤسّسة، وتراقب انفعالي الزائد. أنظر إليها بقلقٍ وأشتم السيّارة العجوز. كنتُ قلقًا من تفويت درس ذلك اليوم، بعد مرور عطلة نهاية الأسبوع، بلا عملٍ وأنا محبوسٌ بين جدران المنزل. فتحت صندوق المحرّك لأعاينها، ومع بعض المحاولات نجحتُ في تشغيلها. انفرجت أساريري وركبت السيّارة. كنتُ ألاحظ تغيّر ملامح زينب مع تغيّر انفعالاتي ومشاعري نحو السيّارة. حاولت أن أخفي عنها سعادتي باشتغال السيّارة، لكنّي فشلتُ في ذلك. تمتمت بكلماتٍ خفيّةٍ، جعلتني مرتبكًا طيلة الطريق، وعندما وصلتُ إلى المدام كنت قد تعبتُ من القيادة. لم تمضِ إلّا ساعاتٌ قليلةٌ، حتّى انتهينا من الدرس والحديث. ولمّا أردت قيادةَ السيّارة وجدتها قد تعطّلتْ كليًّا. حاولت لدقائق إعادة تشغيلها لكنّي لم أنجح. عدتُ إلى بيت المدام لأخبرها بما حلّ بي والسيّارة، لم تتوقّع عودتي إليها، وبهذا، عندما دخلتُ البيت مرّةً أخرى، رأيتُ شيئًا زاد من توتّري. كانت ترتدي ملابس خفيفةً تفضح جيب صدرها، ومدى تقوّس فخذيْها. ألهبت مشاعري وفاض الدم من جزئي العلويّ لينتقل إلى السفليّ. اعتذرت على المقاطعة وعلى العودة وأخبرتها بأنّ البيجو خذلتني.

- يمكنك أن تستخدم سيّارتي الاحتياطيّة.

- أعدك بإعادتها إليكِ غدًا بعد أن أصلح البيجو.

- لا بأس، تحتاج إلى سيّارةٍ جديدةٍ على كلّ حال.

- لا أملك مالًا كافيًا لسيّارةٍ جديدةٍ.

- يمكنك أن تركب سيّارتي في الوقتِ الذي تشاء.

توتّرت. لا أدرِي كيف ربطت كلماتها بالجنس. يقول لي العبسي إنّ كلّ شيءٍ تقوله المرأة هو دعوة إلى الجنس. عجبتُ مرارًا لقدرته على جعل كلّ شيءٍ جنسيًّا، «إن قالت لك هل أقطّع لك الخِيار، هذه دعوة إلى الجنس»، «عندما تأكل موزًا أمامك فهي دعوةٌ لمصّك». نظريّاته الجنسيّة كانت غريبةً، لكنّ أغربها تشبيه المرأة بالسيّارة، تشتريها جديدةً سعيدًا بالصفقة التي عقدتها، شاعرًا بالنصر والظفر، ستكون الكيلوات الأولى رائعةً. في كلّ مرّةٍ تركبها، ستشعر بأنّ كلّ السائقين في الطريق هم مجرّد حمقى، عالقين في سيّاراتٍ قديمةٍ أو سيّئة. قد تشعر بالغيرة من

أصحاب السيّارات الفارهة، لكنّ حبّك لسيّارتك واهتمامك بها يجعلك تتناسى هذا الأمر. تنفق عليها دنانير لشراء البنزين، وتغيير الزيوت، وتنظيفها وتجميلها بطيب خاطرٍ، ومع مرور الأيّام والأسابيع تشعر بالقلق كلّما ركبتها، تهملها أو يلحق بها حادثٌ طفيفٌ يغيّر نظرتك إليها، كالمرأة المريضة، أو التي صارت تزعجك بطلباتٍ جديدةٍ، قطع غيار وملابس ومكياج. تستيقظ أحد الصباحات تريد أن تركب سيّارةً جديدةً، امرأةً جديدةً تشعر برجولتك تتجدّد فيها، «عندما تجد امرأةً متوقّفةً في الطريق، قلقةً بسبب توقّف سيّارتها، عليك الظفر بها. احتمالٌ كبيرٌ أنّك ستركبها وسيّارتها معًا خلال أيّامٍ». يمدّد نظريّته ويطيل الشرح حولها، «هل سمعت أغنية الشيخ بوعبعاب عن المرسيدس؟ أقطع قضيبي وأطعمه للكلاب السائبة إذا لم يكن قصده امرأة»، «إنّ النساء أنفسهنّ يتصرّفن كالسيّارات. مرّةً رأيت إحداهنّ تمشي في شارع الرشيد، كانت لمؤخّرتها شخصيّةٌ خاصّةٌ بها. عندما ينعطف جسدها، تلفت المؤخّرة وحدَها، ذكّرتني بسيّارة بي إم موديل وطواط»، ثمّ يشرح للجمع في البرّاكة أنّهم إذا أرادوا أن يمارسوا الجنس مع إحداهنّ، فإنّ على أحدهم أن يقنعها بركوب سيّارته، وإن لتوصيلها إلى بيتها، عند ذلك سيحصل على مبتغاه عاجلًا أو آجلًا. «السيّارة هي علامة الرجل وما يملك، العاهرات يعرفن ذلك»، يسأله أحدهم، «كلّ النساء»، «كلهنّ، إلّا أمّي وأخواتي، عليك التأكّد من أمّك وأخواتك»، يقول له، فيضحك الجمع. هذه الأفكار التي تغذّيت عليها من العبسي جعلتني أفكّر في كلمات المدام، «يمكنك أن تركب سيّارتي» وفي تقوّس صدرها المكشوف أمامي وفي ما إذا كانت تدعوني إلى ركوبها أم لا. أخذت مفتاح السيّارة، شغّلتها شاكرًا لها صنيعها، وانطلقت أحاول الوصول إلى زينب في الوقت المناسب. وصلت إلى المؤسّسة متأخّرًا، كانت تنتظرني أمام البوّابة الحديديّة، ضغطتُ على منبّه السيّارة ملوّحًا، لم تتعرّف عليَّ في البداية لكنّها تعرّفت على سيّارة المدام. قطعت الشارع وعلامات الغضب مكشوفةٌ على وجهها، «لماذا تأخّرت؟ أين السيّارة؟»، قالت لي وقد ركبت، «لقد تعطّلت البيجو، لم تعد ذات فائدةٍ»، «سيّارة من هذه؟»، «سيّارة المدام»، «رائع»، قالت، ثمّ انصرفت غائبةً في أفكارها.

(١٠)

حسنًا، نحن الآن جاهزون لوضع خبزنا في الفرن. نمرّر لوح النقل تحت الرغيف النيء، ثمّ ننقله بسرعةٍ وهدوءٍ إلى الطاجين. نملأ الطاجين تاركين مساحات بين الخبز الذي سيكبر في الدقائق التالية. عندما نملأ الطاجين بالأرغفة، نأخذ سكّينًا حادّةً. في العادة أستخدم موسى الحلاقة لخفّته وسهولة التعامل معه، لكن يمكن استخدام أيّ سكينٍ جيّدةٍ، أمرّر الموسى بزاوية ٨٠ درجة، ضابطًا الحدود بأصابعي. أكرّر العمليّة جاعلًا الخطوط متوازيةً على سطحِ الخبز. يضيف التوقيع شكلًا مميّزًا للخبز، ثمّ إنّه يساعد على ارتفاعه بانسيابٍ، يمكن أن تفعل ذلك بأيّ زاويةٍ تجدها مناسبةً،

وبالعدد الذي تريده، حسب طول الرغيف، لكنّني أفضّل تعليمَ خبزي بأربعة خطوطٍ متوازيةٍ فقط. أكرّر العمليّة على بقيّة الأرغفة. أضع الماء المغلَّى في طاجين أسفل الفرن، ثمّ أضع طاجين الخبز. أستعمل بخّاخة الماء لأنثرها على الخبز، سيساعد صعود بخار الماء والبلل في الرغيف على نضجه وخروجه قابلًا للقرمشة من الخارج، ثمّ يمكنني أن أرتاح منتظرًا المنتوج النهائيّ بعد ثلث ساعةٍ، أو حتّى ينقلب لونه إلى البنّيّ المذهّب. أنا أحبّ أن أجلس على كرسيٍّ مقابل الفرن، لأشاهد مراحل نضجه وصعوده إلى أعلى وتغيّر لونه.

هناك نقطةٌ أريد مشاركتك إيّاها. إنّ مزاجي مرتبط بالخبز على الدوام. لم أرتبط بأيّ شيءٍ آخر في حياتي بأكملها كما فعلت معه. في أيّام المعسكر كنتُ أتعذّب لابتعادي عن أرغفتي في الكوشة. كنتُ سيّئ المزاج بعد ذلك، لفقداني الرغبة في التواصل معه مجددًا. حتّى الأيّام التي تلحق محاولاتي الفاشلة في صنع رغيفٍ جديدٍ، كانت سيّئةً وسخيفةً وغير محتملةٍ. إذا دخلت المطبخ لأبدأ العجن، أصبغ مخاوفي، سعادتي، طموحاتي، مطامعي، رغباتي، حزني، كآبتي، شهوتي، دموعي، شكوكي، لهفتي، اطمئناني، سكينتي، روعي، قلقي وجفافي في رغيفي الذي يتأثّر شكله بتلك المشاعر. الرغيف السعيد مرحٌ، الرغيف الكئيب كجثّة قنفذٍ، الرغيف الخارج من سكينة يديَّ يخرجُ هادئًا، يمتصّ الخبزُ مشاعري ويجسّدها أمامي. كنتُ آكل رغيف الكآبة ناسيًا إضافة الملح إليه، ورغيف الشهوة بملحٍ زائدٍ، ورغيف الشكّ قاسيًا وجلفًا. تأثّر اختياري الرغيفَ الذي أعمل عليه بمزاجي العامّ، كما تأثّر عملي على الخبز بفصول السنة، ولهذا أعتبر أيّام تركي إيّاه لصالح البيتزا هي أيّام الشباب، إذ هربت من القرية إلى الظهرة، ولذلك أعتبر تذوّقي الخبزَ التونسيّ بدايةَ نكراني للخبز الليبيّ أجمع، ومحاولة بدئي في إنتاج أرغفةٍ من العالم الآخر حتّى أعيش، ولو عبر لساني، ما يعيشه الناس في تلك البلاد. أذرع أزقّة باريس عند انكسار الباقيت في فمي، وأغطس في شطآن صقليّة، بينما ألوك الخبز الصقليّ المليء بالسمسم. أشعر ببرد لندن القارص بعد أن أتذوّق خبز الريف الإنجليزيّ الذي مرّرت عليه الزُبد ومربّى الفراولة، أحسّ بعبقِ القاهرة عندما يمرّ الخبز المصريّ في جوفي. تمرّ بي مشاعر الأبوّة، وتشتدّ على صدري، في كلّ مرّةٍ يخرج فيها رغيفي ناضجًا وجميلًا يدعوني إلى قضمه، فأخاف من هذه الفكرة، وأهرب من الخبز أيّامًا حتّى يخفت الطلب الملحّ على عقلي. أستمرّ في فعل ذلك حتّى هذه اللحظة، وأنا أشاهد معك هذه الأرغفة، وهي تكبر وتنضج يلفّها بخار الماء داخل الفرن. كانت الأبوّة حلمًا مرتبطًا بالخبز. لطالما أردتُ أن أطعم أطفالي ممّا أنتجه، أن أرى الحماس واللهفة في أعينهم، بينما يقفزون حولي ينتظرون أن ينضج خبزهم. أملأ لهم سندويتش المدرسة بالتونة والبيض والجُبن والطماطم والزيتون، فيذهبون إليها تاركين بصماتهم فيها. يفلحون في واجباتهم المدرسيّة لإدراكهم أنّ لهم أبًا يُوفِّر لهم خُبزَهم. تجدهم ينتظرون الاستراحة بفارغ الصبر، يتفحصّون بين فينة وأخرى حقائبهم

ليتأكّدوا من أنّ السندويتش الذي صنعتُه بالكامل ينتظرهم، وعند رنين جرس الاستراحة يسارعون إلى خطفه وأكله. قد يشاركون أصدقاءهم سندويتشاتهم وقد لا يفعلون ذلك، ولكن إن فعلوا وأعجب الأصدقاء بالخبز اللذيذ المعَدّ بعنايةٍ وحبٍّ خالصَين، سيسألونهم عن المكان الذي اشتروا منه هذا الرغيف المذهل، فيخبرونهم بأنّ لهم أبًا ماهرًا سيعلّمهم يومًا مّا هذه الحرفة الرهيبة.

(١١)

استمتعت في البدء بالبي إم دبليو «الاحتياطيّة» للمدام، وعشتُ أيّامًا رائعةً معها، أتجوّل بها في الطرقات بسببٍ أو بلا سببٍ. لقد فعّلت شغفًا جديدًا أكتشفه لأوّل مرّةٍ، شغفًا بالسرعة والقيادة، وبمقارنة السيّارات بعضها ببعضٍ. مقارنتي إيّاها بالبيجو المهترئة. البي أم دبليو هي فخر الصناعة الألمانيّة، صوت محرّكها وحده جعلني كلّ صباحٍ أتحمّس إلى السفر والترحال. البيجو القديمة تكحّ عند تشغيل محرّكها، تجعلني أنفر منها، مقاعد البي أم تدعوني إلى البقاء أكثر معها، مقاعد البيجو تريد ركلي خارج السيّارة. الموسيقى، وصوت أحمد فكرون، يخرجان نقيَّين من مسجّلة البي إم ممّا يجعلني أريد أن أنقل سريري إلى مقعدها الخلفيّ وأنام فيها. كانت سيّارةً عظيمةً، وأحببت قيادتي لها حتّى تحوّلت المقارنة بين السيّارات إلى مقارنةٍ خبيثةٍ بين زينب والمدام، زينب لا تكترث لقصصي المملّة، المدام تنصتُ باهتمامٍ، وتتحمّس في إضفاءِ حبّها للتفاصيل التي أزرعها في القصّة. زينب لم تهتمّ يومًا بأيّ مساحيق الغسيل أفضل، المدام تبدو مهتمّةً جدًّا بمعرفة ذلك، رغم السنين التي قضّتها كملكةٍ في بيتها. زينب أهملت جسدها حتّى صارت تذبل كلّ يومٍ بأسرع ممّا كان في اليوم الذي قبله، المدام ورغم أنّها تكبر زينب قليلًا كانت تعتني بجسدها الذي يتّقد جاذبيّة مع تقدّمها في السنّ، الوقت صار يمرّ ببطءٍ قاتلٍ مع زينب، لكنّني أنسى وجودي مع المدام.

كنتُ كالعادة في مطبخها، وفي مثل هذه اللحظات التي ننتظر فيها خبزنا لينضج، كنّا نعمل منذ يومين على تجهيز عجين الكرواسون، وأرادت أن تصنع كرواسون بالشيكولاتة. كنتُ أرتدي قميصي الأصفر، وقد نسيتُ المئزر في صندوق البيجو الخلفيّ. أقف على المصطبة، وهي ملتصقةٌ بي تحدّثني عن شوقها إلى العودة إلى العمل بعد شهرٍ من العطلة الاختياريّة. كنّا قد وصلنا إلى مرحلة تدوير الكرواسون على قطع الشيكولاتة، عندما سقطت إحدى القطع التي ذابت على قميصي فلطّخته. وبعد أن ازداد التصاقها بي ولحسها قطعةَ الشيكولاتة شعرتُ بالإحراج والقلق. أسرعتْ إلى أخذ فوطةٍ مبلّلةٍ، تريد أن تمسح قميصي، إلّا أنّ ما فعلته زاد من سوء الموقف. عفويّتها المفرطة جعلتني أتردّد في أخذ الفوطة منها. حاولت أخذها ولكنّ الموقف كاد يخرج عن السيطرة، لمّا وضعت يدها على صدري بخفّةٍ تمسح القميص، زفرت تفرغ شحنةً داخلها جعلتني أعرق.

انتقلت رائحة عطرها إلى أنفي لتستفزّني، «اخلعه سأغسله لك» قالت لي، بعدما رأت أنّ البقعة السوداء لن تُمسح بالفوطة المبلّلة. «لا بأس، سأغسله في البيت، لنعُد إلى العمل»، قلتُ، وقد تأزّمت حالتي. استشعرت قلقي، «مازلت أحتفظ بملابس زوجي القديمة، يمكنك أن تأخذ منها ما شئت»، قالت مذكّرة إيّاي بوجود شبحه في المنزل. كان الناس يحرقون ملابس الموتى، أو يلقون بها في القمامة خوفًا من أن تظلّ أرواحهم على البيوت حتّى بعد رحيلهم، ولكنّها لم تفعل ذلك. خفتُ أن يكون زوجها قد لبس جسدي، ويحاول أن يرتبط بزوجته مجدّدًا. «لا تتعبي نفسك»، «هيّا انزعها... لا تخف، لن آكلك». تحرّكت الكلمة الأخيرة في صدري كتحرّك أمواج البحر يوم محاولة هروبي من المعسكر. «إذا قالت لك المرأة أطعمني، فهذا يعني قضيبك»، تمرّ كلمات العبسي على دماغي، الجوّ المشحون يزيد من الإحكام على خناقي، «لنعد إلى العمل أوّلًا، لن ينتظر الكرواسون». أتممنا العمل على القطع، وتركناها ترتاح لتجهز. جلستُ في المطبخ، بينما اختفت هي دقائق حتّى تعود بمجموعةٍ من قمصان زوجها القديمة. عجبت من بقائها جديدةً ونظيفةً لأكثر من تسع سنوات. «هيّا انزعه»، وتحت إلحاحها، نزعت القميص. مرّت لحظات عري جسدي من الأعلى كأنّها عامٌ كاملٌ، ألاحظ بريقًا خفيًّا في عينيها. أسارع إلى أخذ أحد القمصان وارتدائه بسرعةٍ. «شكرًا لكِ، سأرجعه غدًا»، «لا داعي، يمكنك أخذه إذا أعجبك، إنّك تشبه زوجي تمامًا داخله». أصرّت على أخذ قميصي لغسله، فرضخت لها. عدتُ ذلك اليوم إلى البيت منزعجًا، «الآن بدأت تأخذ قمصان زوجها»، قالت زينب، «حادثة وحصلت، سأرجعه إليها غدًا، إنّها امرأةٌ لطيفة»، قلتُ لزينب. «نعم إنّها لطيفة، ولكن يبدو أنّك لا تعرف النساء»، تعاود جملتها المفضّلة في انتقاد النساء الأخريات. أفكّر في الجملة، فأخاف من المدام، قد يكون كلّ ما تفعله هو محاولة الإيقاع بي في شراكها. كنتُ أظنّ أنّني الطرف السيّئ في المعادلة ولكنّ جملة زينب جعلتني أفكّر في كلّ اللحظات التي مرّت بيننا. فساتينها التي ترتديها، نسيانها فتحةَ قميصها التي تُظهر تقوّس صدرها، عرضها لسيّارتها، التصاقها غير المفهوم بي في يوم الكرواسون، التوتّر الذي تخلقه شخصيّتها في أفكاري، وحتّى طلبها تعلّم دروس الخبز والطبخ والعناية بالمنزل. قد يكون كلّ ذلك مجرّد خطّة لها للإيقاع بي. أقرّر أن أهرب منها، أن يكون اليوم التالي هو آخر أيّامي معها. أسلّمها قميص زوجها وتسلّمني قميصي، وأسلّمها مفتاح سيّارة زوجها وأهرب من هذا الجحيم. أفكّر في ما إذا كانت زينب تمرّ بالجحيم ذاته مع مديرها. هل تفكّر فيَّ وهي تجلس في المقهى معه؟ هل تفكّر في بشاعة ما تفعله بي وبنفسها وبتاريخنا المشترك؟ إنّها تفعل ذلك بلا شكّ، ولا شكّ في أنّني صرتُ مهووسًا بكلّ هذا.

لذلك، سرعان ما أعدت إلى المدام سيّارتها، بعد أن عادت الحياة لتدبّ في سيّارتي البيجو التي لم أرد التخلّي عنها. كان لتفكيري في ما قاله العبسي عن علاقة المرأة بالسيّارة أثرٌ في أخذ قرار

إعادة الحياة إلى البيجو. لم أرد بعدُ التخلّي عن زينب، كما لم أرد التخلّي عن البيجو. السيّارة التي حملت كلّ ذكرياتي معها بصبرٍ وحُبٍّ، ولم أكن مستعدًّا للتخلّي عن ذلك من أجل سيّارةٍ أو امرأةٍ جديدةٍ. يمكنك القول إنّني توقّفتُ أسبوعًا كاملًا عن الذهاب إلى المدام. حاولتْ التواصل معي عبر الهاتف إلّا أنّني أغلقت أمامها الطريق. كان جسدها يلاحقني في أحلامي، وفي يقظتي، وأينما ذهبت، في جلساتي مع العبسي ومغامراته مع النساء الخياليّات اللّائي كان يصنعهنّ بين فينةٍ وأخرى. في مرقدي وفي جسدِ زينب النائمة بجانبي ترتدي الساتان، في هروبي من إعداد الخبز، وفي أشكال النساء الأخريات اللّائي أراهنّ في الطريق، في شكل البيجو كلّ مرّةٍ أركبها فتلاحقني سيّارتها وجسدها، في مرآتها الوسطيّة، حيث يلمعُ انعكاس المرآة في نظّارتَيها، في المبنى الإسمنتيّ الكئيب الذي أُقلّ إليه زينب كلّ يومٍ، أو أنتظرها أمامه تحت شجرة الجهنّميّة، في جسدِ زينب وهي تخرج من المبنى الإسمنتيّ لتقطع الطريق، يلاحقني جسد المدام وهي ترتدي فستانها المغزول بعبّاد الشمس، في مئزر «الدروس» الذي تملك نسخةً منه في بيتها، مدسوسًا في صندوق البيجو الخلفيّ. كنتُ أريد الهرب من ذاك العذاب، حبستُ نفسي في أيّام الدروس المعهودة، وسحبتُ سمّاعة الهاتف، وغرقت في شاشة التلفاز، أو في العمل المجهد في تنظيف البيت، وغسلي العنيف للأواني، أو هوسي بمطاردة كلّ الغبار الذي تجمّع بالبيت، أيّامَ نسيتُ أن أهتمّ به.

مضى الحال هكذا حتّى يوم زيارتها لي في المستشفى لأستعيد ما مررت به معها. كانت الزيارة اعتياديّةً في الظاهر، ولكنّ الأيّام التي لحقتها لم تكن كذلك. أمضيتُ الأسبوع الأوّل في عناية زينب، وفي سعادتي لعودة الروح إلى علاقتنا. كانت تعدّ لي الطعام، تقصّ عليَّ ذكرياتنا مع السفر وأزقّة المدينة، وتتمنّى لو نعود إلى المشي في تلك الشوارع، كما كنّا نفعل أيّام الرفقة، وتتساءل عن السبب الذي حال بيننا وبين فعل ذلك. ثمّ تصنع لي شاي القرفة اللذيذ الذي أحببته من يديها أكثر من نسخٍ متكرّرةٍ حاولت إعدادها لسنواتٍ، ومن ضمنها ما نشربه الآن، تغنّي لي، ثمّ تحدّثني عن العمل والحياة التي بدأت تبتسم لها. أتشكّك في معنى «ابتسام الحياة» لها، لكنّي أنسى الجمل في الغرفة، عندما تكتب تاريخ اليوم. تساعدني في النهوض والمشي في الجنان، والجلوس أمام الحديقة، أراقبها وهي تسقي الزرع، تأخذ الإسفنجة وتغسل لي جسدي حذرةً من أن يدخل الماء إلى الجبس فيفسده، تستيقظ هلعةً منتصفَ الليل على صوتي بعد أن أكون قد استيقظت خطأً وضربتُ قدمي بالأخرى، تعاين ما حدث، تقبّل ساقي، ثمّ تنتظر حتّى أنام. كان أسبوعًا رومانسيًّا بجدارةٍ، كما تخيّلته، لكنّ مثل تلك الأسابيع يمضي بسرعةٍ. كان عليها العودة إلى العمل مرّةً أخرى.

تبدأ صباحاتي الوحيدة المشبعةُ بصعوبة الحركة بالطفو على قلبي، أحاول أن ألهو بخبز كعك البرتقال والليمون، الذي أخذت طريقة إعداده من المدام منذ مدّةٍ، أو أن أجلس في الحديقة، أقتل

الوقت، أو أجالس العبسي. أبحث في كتب زينب عن كتابٍ قد يشدّني إلى نهايته فأفشل في كلّ مرّةٍ، أو أغوص في شاشة التلفاز فأنسى مرور الوقت. أطبخ وجبة الغداء، وأنتظر عودة زينب من العمل. مضى الأسبوع الأوّل والثاني على هذا النمط، ولم يتبقَّ سوى أسبوعٍ واحدٍ لقتله، ورمي جثّته في الماضي بخلعِ الجبس. وفي يومِ الأحد من ذلك الأسبوع بالضبط، كانت زينب قد غادرت البيت منذ ساعةٍ، ولن تعود إلّا بعد خمس ساعاتٍ. طرق الباب، كنتُ أعتقد أنّ الطارق إحدى أخواتي اللّائي حذّرتهن في خصومتنا من الاقتراب منّي أو من منزلي. وضعتُ العكّاز وخرجتُ أنظر الطارق، كانت المدام مريم مرتديةً فستان عبّاد الشمس القديم حاملةً معها باقة وردٍ.

- أين زينب؟

قالت، وردّدت في نفسي السؤال ذاته: أين زينب لتحميني من إغرائها؟ أين هي وبي الآن حاجةٌ إليها؟ وجدتُني مرغمًا -أو مغرمًا سرّيًّا- على استقبالها في المنزل. دخلت تتبعني إلى المطبخ. وضعت باقة الورد، ثمّ جلست. «يبدو أنّ قدمك قد تحسّنت»، قالت لي. «نعم، زينب تهتمّ بها جيّدًا.» «وأنتَ؟»، «وأنا كذلك، لم أعد باستطاعتي العيش مع قدمٍ واحدةٍ»، «هل مازال الجبس ثقيلًا عليك؟»، «لقد اعتدت على ثقله، ما لم أعتد عليه هو الحركة به». نهضت لتلمسه، وتقرأ المكتوب حول الجبس، «يبدو أنّ زينب ستكتب كتابًا عنك»، تعلّق بينما تقرأ المكتوب. «بالسلامة يا ميلاد، حتّى نأكل الخبز من طاولتك»، كتبت زينب في اليوم الثالث هذه العبارة بعد أن زارني العبسي، مصطحبًا معه خبزًا من الكوشة. ذكّرها -وذكّرني بطريقة مّا- بسوء الحياة في القرية، «هل يمكنني الكتابة على الجبس؟»، قالت لي المدام، «نعم». جلست على ركبتيها تقترب منّي، وجدت على الفخذ فراغًا يمكنها الكتابة فيه، «ماذا أكتب؟»، «ما يحلو لك، إلّا العبارات الفاحشة»، قلتُ ممازحًا شاعرًا بالسوء. أخذت قلمًا من حقيبتها، الكتّاب يحتفظون دومًا بأقلامٍ للضرورة. «متى موعد الدرس؟»، كتبتْ، ثمّ نظرت نحوي كأنّها تدعوني إلى تقبيلها. وأخذنا الكلام من الجبس إلى الدروس التي مازالت تأمل في أن ننهيها. «حديقتي أصابها الجفاف»، قالت تدعوني إلى العودة مجدّدًا لإنقاذ زرعها من النباتات الشائكة التي بدأت في الظهور. ساد صمتٌ خفيفٌ بيننا لكنّه لم يطل.

- ميلاد، لقد جئت خصّيصًا من أجلك اليوم.

- ماذا؟ قلت متوقّعًا أن تأتي لتقبيلي.

- أنا خائفة على زينب. قالت.

- ما المخيف في الأمر؟ هل حدث لها مكروه؟

- لا، ولكن...

- ولكن ماذا؟

- الجميع في المؤسّسة صاروا يشكّون في علاقتها مع المدير، لم أرد إخبارك بأنّها تخرج معه إلى المقهى.

- أعرف ذلك.

- هل أخبرتك هي؟

- لا، القضيّة شائكة قليلًا، ولكنّي علمت بطريقة مّا.

- حسنًا، سيسهل عليَّ إذَن قول ما أريد قوله.

ثمّ مضت تحكي عن تغيّر علاقة زينب بالمدير، ومحاولتها التقرّب منه منذ زمنٍ. أخبرتها ذات يومٍ أنّها استطاعت أن تتواصل مع هيئة الرقابة الإداريّة، وأخبروها بأنّها إذا قدّمت دليلًا واضحًا على فساد أخلاقه وتحرّشه بالموظّفات داخل المؤسّسة، فإنّهم سيتمكّنون من تقديم تقريرٍ وقضيّةٍ تتيح لهم نزعه عن المكان. ولمّا كانت زينب إحدى أكبر المتضرّرات من المدير فقد قرّرت أن تفعل ذلك، أخبرت المدام بخطّتها، «أتذكر القصّة التي حكيتها لكم عن المسؤول الفرنسيّ الفاسد؟ كانت تريد تنفيذ الخطّة ذاتها لفضح مديرها»، أخبرتها المدام بمدى خطورة الأمر، وبأنّه سيؤثّر على سمعتها قبل كلّ شيءٍ، وحتّى إذا خرج تقريرها إلى الضوء، وعُزِل الرجل من منصبه، فستكون هي محطّ الشكّ والتشهير، سينصّب الرجل في المجتمع كأحد العظماء الذين عرفوا كيف يستغلّون مناصبهم ويكشفون أكبر عددٍ من العاهرات في المجتمع، ولن تتشجّع أيّ موظّفةٍ أخرى تعرّضت للتحرّش أو حتّى للابتزاز الجنسيّ على الوقوف إلى جانبها، بل ستنكر زميلاتها في العمل حدوث ذلك. كنتُ أسمع في رأسي تشويشًا وصفيرًا، بينما تحكي هي ما حدث. «لكن زينب، أنت تعرفها، إذا حسمت أمرها سيصعب على المرء أن يقنعها بغير ذلك»، قالت وصوت الصفير يزداد في أذنيَّ.

- لكنّ الوقت طال على الخطّة، ومع غرقها في مقابلات المقاهي معه صارت تغيّر بعض آرائها عنه، وآخر مرّةٍ حدّثتني فيها عن الرجل، قالت إنّه رجلٌ جيّدٌ، وإنّ الفتيات اللّائي قلن لها إنّه تحرّش بهنّ يكذبن. هل تصدّق ذلك؟ لقد تغيّرت.

- تغيّرت... قلتُ متألّمًا.

- نعم، لم تعد كما كانت، أخاف يا ميلاد.

- ممّ؟

- أن تقع في ما لا يحمد عقباه.

- لا يمكن أن يحدث ذلك، أنتِ تكذبين.

- ماذا؟

- سمعتِني، أنتِ تكذبين، تريدين أن تخرّبي علاقتي بزينب، كلّكم تريدون فعل ذلك، أنتِ وأخواتي والعبسي.

- صدّقني يا ميلاد.

- لا.

أنت لا تعرف النساء يا ميلاد، تذكّرتُ كلمات زينب وحلّلتُ المؤامرة. نهضت المدام من كرسيّها تبكي، لكن لم تنطلِ عليَّ حيلتها، خرجت من البيت بينما كنت أحاول انتظار أن يخفّ الطنين في أذنيَّ. تذكّرتُ ذلك اليوم الذي أصيب فيه قميصي الأصفر ببقع الشوكولاتة، وعاودت تخيّل المشهد من جديدٍ، كانت تتعمّد أن أسقط الشيكولاتة عليه، حتّى تحتجّ بالقميص، وتنسج فيه الحِجاب الذي سيفرّق بيني وبين زوجتي، رغم علمها وشخصيّتها المنفتحة، فقد كانت تخاف السحر، لهذا لم تبقِ ابنها وحيدًا مع الخادمة المغربيّة خوفًا عليه منها. سمعت صوت محرّك البي إم يشتغل في الخارج، ثمّ يختفي شيئًا فشيئًا.

كان ما قالته دفعةً واحدةً أصعب من أن أصدّقه. أخذتُ باقة الورد ورميتها على الأرض. شعرت بكراهية ما تمثّله. هذه المرأة تحاول فعلًا أن تفرّق بيني وبين زوجتي العزيزة، زينب الرقيقة

الدافئة الحنون، التي لن يخطر لها التفكير في طعني من الظهر. زينب التي نامت بين ذراعيَّ قد يأخذها النسيان، في محاولة الهروب منّي إلى المقاهي، كما فعلتُ أنا مع المدام، لكنّها لن تبدّلني بذلك الرجل السمين، كان فيه شيءٌ قبيحٌ يصعب معه تصديق أن تسقط زينب في فخاخه.

عادت زينب إلى البيت، ودخلت من الباب المفتوح مرتعبةً. رأت باقة الورد الملقاة على الأرض. أحسّت بأنّ سوءًا مّا حدث في غيابها، كنتُ لا أزال جالسًا في المطبخ غارقًا في أفكاري، «ميلاد، إن شاء الله خير؟»، قالت لي. لم أعلم كيف تجرّأتُ وأخبرتها بما حدث بيني وبين المدام. كلّ تفصيلٍ قالته، وضعته على الطاولة، وبان منظر الجمل وسنمه مرتفعًا وضخمًا في الغرفة.

- هي صادقة في بعض ما قالته، لكنّها كذبت في بقيّته.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أنّني في البدء فكّرت في تنفيذ كلّ ما قالته لك، وبدأت تطبيقَ الخطّة، بل أردت أن أنتقم منك بعد صفعك إيّاي، لكنّ كلّ ذلك تغير.

- ما الذي تغيّر؟

انتظرتُ الإجابة، كانت هناك إجابةٌ وحيدةٌ انتظرتها وأردت أن أسمعها من شفتيْها، أن تمرّ بأذنيَّ وتفرحني معها، أن تقول لي مثلًا: «أنا حامل»، أو... أو، «ستصبح أبًا»، أو «سنرزق بطفلٍ قريبًا»، أو شيئًا من هذا القبيل، حاولت التفتيش في ذاكرتي عن آخر مرّةٍ تبادلنا فيها اللعب بجسدَينا، لم أحبّ سماع كلماتٍ من قبيل: «عند سقوطك من البناية عرفتُ قدر محبّتي لك وأنّني لو فقدتك سأجنّ»، ولا أيّ شيءٍ شبيهٍ بذلك. لم أحبّ هذه الرومانسيّة، كلّ ما احتجت إليه هو سماع الكلمات الخفيفة، التي ستعيد دبيب الحياة في قدمي المكسورة، لتجعلني أرقص في المطبخ متناسيًا وجعي. لكنّها لم تأتِ. «وافق الأستاذ على نشر أعمال عمّي في كتابٍ»، قالت سعيدة، «وما لقاءاتي به في المقهى سوى نقاشٍ لفكرة الكتاب»، أضافت، ثمّ سكنت مع خيبة ظنّي. لم أستفق من سكوني إلّا على صراخٍ يأتي من بيت عمّي يعلنُ وفاته.

ومضت تلك الأيّام كما حدّثتك سابقًا، مضت بعدها أيّامٌ أُخر. يوم ودّعتُ العبسي، عدتُ إلى البيت حاملًا معي الحزام الذي أهدانيه. وضعته في خزانة الملابس وتركته هناك حتّى قرّرت ارتداءه، خصوصًا بعدما فقدت بعض وزني بعد الكسر. جاءت أيّامٌ كرهتُ فيها العمل المنزليّ، وكلّ ما

يمثّله من عبوديّة لشخصيّتي. كرهتُ غسل الأواني وتوقّفتُ عن فعل بذلك. وكرهتُ غسل الملابس وكيَّها وطيَّها. كرهتُ منظر موتانديات زينب. وكرهتُ رائحة البخور. لكن جاءت أيّام أخرى شعرتُ فيها بالحنين إلى هذا كلّه. أستيقظ فجرًا لأكوي ملابس زينب، أصنع الخبز، أعدّ الفطور وأستمع من جهاز الراديو العتيق إلى موسيقى فيروز، أوقظ زينب لتتناول فطورها، نفطر سويًّا ونضحك ونتبسم، أخفي قلقي من كلام العبسي والمدام حول مغامراتها، وأُرغمني على نسيانها، فهذا الأمر يحدث بين المرء وزوجه. أنقلها بسيّارتي إلى المؤسّسة، ثمّ أعود إلى البيت راقصًا، أعمل على تشطيف الأرضيّة وأمسح النوافذ وأغسل الأواني والملابس وأرتّب ما جفّ منها، وأحلق ذقني وأتأمّل سعادتي التي كادت تحلّق من نافذة الحمّام بلا عودةٍ. أسمح لنفسي بأن أغطّ في النوم، أو أتناول كتابًا أحاول قراءته بلا جدوى. أعدّ وجبة الغداء، أو أخرج للعمل في البرّاكة وتنظيفها وسَقي زرعها والاهتمام بها. أعود إلى البيت. أخرج منه مجدّدًا لأرجع بزينب من المؤسّسة، أراها وقد نزلت من سيّارة المدير السمين، أُحكم قبضتي وأريد لَكْمَ وجهه، وأفكّر في حكمة العبسي ووصيّته الأخيرة، لكنّي أتعسّف على قلبي وأتحمّل، يتكرّر الأمر ذاته في كلّ يومٍ، مرّةً أراها تنزل من سيّارته، مرّةً أجدها تحمل رسومات عمّها معها إلى المؤسّسة «لتصويرها».

يخفتُ اهتمامي بالبيت مجدّدًا، وأترك الملابس ملقاةً على الأرض، والغبار ينسج خيوطه على الأثاث، تلاحقني صورة الرجل السمين في كلّ شيءٍ أفعله، يتّصل بي العبسي عبر الهاتف ليطمئن عليَّ ويسألني عمّا إذا كنتُ قد نسيتُ ما تعلّمته أم لا، «ها يا ميلاد؟ هل ضربت القطّ؟»، يسألني وأسأل نفسي عمّا إذا فعلتُ ذلك أم لا. أغلق السمّاعة بعد انتهاء حديثنا، أهرب من البيت إلى البرّاكة، أقضي النهار كاملًا فيها، جالسًا في سرير العبسي مستذكرًا أيّام كان هناك من يدلّني على أزمتي. أدخّن علبةً من سجائر الرياضي، عندما أنهي العلبة أرى العدّاء لا يزال يركض بين الإكليل، أسأل نفسي: «ماذا لو كانت صورته ملقاةً على الأرض؟»، أفكّر في زينب، وفي الرجل السمين، وفي المشروع الثقافيّ الضخم. أسمع كلمات العبسي من جديد «لقد صرت نكتة»، أخرجُ من البرّاكة هاربًا من أفكاري، فأرى هنادي وقد عادت من الجامعة ترتدي بنطالها الجينز من جديدٍ، تقرّر ألّا تلتقي عيناها بعينَي خالها، وتتحرّك نحو بيت العائلة، البيت الذي لم أدخله منذ الخصومة، أحيانًا أجدُ سيّارةً لا أعرف صاحبها أو صاحبتها مركونةً أمامه، فتمرّ بعقلي خيالاتٌ مريبةٌ أحاول هشّها كالذباب. أقرّر في أحدِ تلك الأيّام أن أتبعها مجدّدًا، لكن هذه المرّة لن أخرج من السيّارة، سأركنها وأتتبّع مسار سيّارتهما. تركتها في المؤسّسة وحرّكت سيّارتي مغادرًا، حتّى لا تكتشف أنّني مازلت أنتظر خروجها معه. اشتريتُ قهوة لي، ثمّ عدت مجدّدًا أركن البيجو أبعد من مكاني المعتاد وأنتظر. لم تمضِ سوى نصف ساعة حتّى دخلت سيّارته كالعادة من أبواب المؤسّسة، ولم تمضِ سوى ساعةٍ أخرى حتّى عادت إلى الخروج مع امرأةٍ في مؤخّرتها. تتبّعتُ

مسارهما وسط زحام السيّارات. كان يُفتَرض أن يصل إلى جزيرة قصر الشعب وينعطف يمينًا نحو الظهرة، ومن ثمّ يقطع الكوبري نازلًا إلى طريق الشطّ ثمّ إلى المقهى، لكن تغيّر مسار السيّارة داخلةً إلى شارع النصر، «حسنًا، هذه الطريق تصل إلى المقهى من الخلف»، قلتُ لنفسي وأنا أتبعهما. تركت مسافةً جيّدةً بيننا متذكّرًا أيّامي الأولى في تتبّع زينب. من العجيب أنّ الإنسان مهما كبر يظلّ يتصرّف بالطريقة ذاتها. خرجت السيّارة من الزحمة لتصعد باتّجاه شارع الصريم، تقف قليلًا على محلٍ، ينزل المدير السمين لشراء سندويتشات السكالوب من مطعم الضيافة ويعاود ركوبه ومساره، يدخل الأزقّة ويشقّ طريقه إلى أحد أزقّة شارع عمر المختار. تقف السيّارة بعيدًا في عمارةٍ تقابل شارع الكندي، عمارة لي تاريخ معها. ينزل الرجل من السيّارة مجدّدًا، حاملًا أكياس المؤونة، ثمّ يفتح الباب لزينب، يقطعان الطريق ليدخلا باب العمارة. مرّت ذكرى دخولها قبلي إلى العمارة ذاتها ثمّ تلويحها بالمونتادي على النافذة ودخولي الشقّةَ عبر ذاك الباب بخرز العين الزرقاء المعلّقة عليه، أدخل العمارة، أصعد الدرج داعيًا الله أن يكون ما رأيته مجرّد أضغاث أحلام تبعثُ سرابها. أجهد من صعودي ولكن أخيرًا أقف أمام الباب، الشقّة التي لم يدخلها أحدٌ من بعد ما حدث، أسمع أصوات رجلٍ وامرأةٍ داخلها، أدمع.

سأكون صريحًا معك، لم أعرف إلى أين أذهب. في البداية كنتُ أقود سيّارتي باتّجاه الغرب باكيًا كطفلٍ، وددتُ لو أمكنني أن أقطع الحدود التونسيّة، أقبّل اخميّس، وأحفر منزولي صحبته، ووددت لو أمكنني أن أقطع الطريق حتّى الجزائر، وأغيب في فنادقها وأغانيها وأفرانها، ولكنّ هذا لم يحدث. وجدتُني أمام باب بيت المدام أقرع الجرس، باكيًا، «آلو من على الباب؟»، «ميلاد». تفتح لي المدام الباب مرتشعةً، تبكي لبكائي وتحتضنني. تقبّل رأسي وتدخلني إلى مطبخها، تستمرّ في حضني، أذوب في جسدها، أفكّر في ما تفعله زينب الآن، تعتلي جسد الرجل المستلقي على سرير عمّها عاريةً، لأنّه لن يكون بمقدورها أن تتحمّل ثقله، تصرخ دون أن تخاف من الجيران الذين يراقبونها كما خافت معي، تصعد وتتسلّق وتركب، ويلهث هو مستمتعًا بجسدِ زوجتي، أجد نفسي وقد اقتربت شفتاي من شفتي المدام أقبّلها. أراقب خوفها من اللحظة في المرّة الأولى، إلّا أنّ دموعي تشجّعها. أختفي في شفتيْها، يزداد حضور المشاهد الجنسيّة في عقلي بينما ألتحم بها وهي جالسةٌ فوق فخذيّ على الكرسيّ، الذي لطالما حدّثتها عن متاعب حياتي وأنا جالسٌ عليه أشرب القهوة وآكل ممّا صنعناه. أنزع قميصي الأصفر، تنزع فستانها، أنزع الحزام من سروالي، تنزع صدريّتها، يراقبنا مئزر عبّاد الشمس، بينما أضعها على الطاولة، التي أكلنا منها كعك البرتقال والليمون، أدخله فيها، ونتحرّك كراقصيْن، كزوجين، كحبيبين، كخائنيْن، كخبّازٍ وعجينته، ككاتبةٍ وروايتها التي لن تكتمل أبدًا، كحبٍّ عجز عن الاستمرار في بلادنا، كزينب الخائنة الكاذبة المخادعة الشيطانة المفتوحة، تتأوّه وألهث، تلهث وأتأوّه، أبكي لتبتسم، أمسك جيدها وأغرسه

انتقامًا. حلمتاها البرتقاليّتان تزيدان من هيجاني، من رغبتي، من شهوتي، من حزني، من إدراكي. تتسارع مشاهد خيانة زينب لي على سرير عمّها الذي غزاه القمل والغبار، فأخونها على الطاولة التي غزاها الدقيق، سأشذّب حديقة المدام وأبلّلها بسائلي، ولتذهب حديقتي إلى الجحيم محترقةً. سأركب سيّارتها بسرعةٍ نحو الموت وليكبر الصدأ على جسدِ سيّارتي الخائنة، أرى زينب تصرخ من اللذّة فوق الرجل السمين القبيح المبتزّ، فترجعني صرخات المدام إلى فعلي، أزبد، أفرغ سائلي، ننام على الأرض.

آه الخبز جاهز.

(١٢)

حسنًا، لن أطيل عليك، كلّ ما نحتاج إليه الآن هو أن نخرج الخبز من الفرن ونتركه ليبرد، ليس جيّدًا لك ولا للخبز أن تقسمه ساخنًا، لهذا السبب أفضّل دومًا أن أترك أرغفتي على مكان العمل عشر دقائق قبل تذوّقه. آه رائع، رائع، رائع، كم اشتقتُ إلى هذه الرائحة اللذيذة التي تختزن ذكرياتي الطفوليّة بأكملها، للرائحة تأثيّر خطيرٌ على نفسيّة الإنسان، الرائحة والموسيقى يمكنهما أن تشعلا كلّ المشاعر المتناقضة التي تخالجك، يمكنهما أن تقوداك إلى الجنون، أو الانتحار، آه ما أجملها. إنّي أرى نفسي الآن في الكوشة، أضحك مع الأسطى اخميّس والباهي على مسعود الذي تأذّى من حرارة الفرن. أرى أبي وهو يعود إلى المنزل حاملًا معه الأرغفة الطريّة، يجلس كملكٍ في قصره، أرى وجه العبسي يبتسم من سرقة ربع دينارٍ من خزينة الكوشة، وجه عمّي الغاضب وهو يمسك الرغيف مهدّدًا بالطرد، أرى بنيامين وسارة، وهما يضعان العشاء مع خبز الطليان، أرى أمّي وهي تعدّ لنا خبز «الحوش» بحبٍّ وحنانٍ، أخواتي وهنّ يحملن الكعك من الكوشة إلى شقّتنا في الظهرة، أرى وجه المدام مريم سعيدةً بمنتوجها الأوّل، أرى وجه زينب وهي تأكل البيتزا في البيتزاريا، أرى ميلاد الصغير يحاول أن يتغلّب على الخبز.

مرّت تلك القيلولة غريبةً عليَّ. نمنا على أرضيّة المطبخ عاريَيْن. كانت تضع رأسها على صدري، بينما تلعبُ بشعره بيديها اللتين تشبهان يدَي الأميرة، أمسكُ يدها اليمنى وأقبّلها، تبتسمُ لي بحنانٍ، ثمّ تخبرني بأنّ آخر مرّةٍ فعلتها مع زوجها كانت على أرضيّة المطبخ، حيث حملت بذرةَ ابنها محمّد الذي لم يرَ أباه يومًا. أبتسم، «هل تتزوّجني؟»، قالت لي غير منتظرةٍ إجابةً منّي لأوّل مرّةٍ في حياتها، «من الممكن فعل ذلك»، أجيب بينما آخذ سيجارة من الرياضي وأدخّنها، يسقطُ الهباء على الأرضيّة، تضحكُ منّي «لم تفعل ذلك يومًا»، تقول لي، «أعتقد أن لا شيء مهمّ بعد الآن»، تتفهّم ما أقوله، تتأسّف لي عن كلّ ما مررتُ به، «رأيتُ زينب في شقّة عمّها مع المدير،

حيثُ كنّا نمارس الجنس». أنفتح أخيرًا لها كانفتاح الزهر في بدء الربيع، تمسحُ عنّي دمع عينيّ المتخيّل، كأنّها تخشى أن تراه، «لا تبكِ، الرجال لا يبكون»، تسرد عليَّ وصيّةً من وصايا أبي القديمة، عندما تنتهي اللحظات الهادئة بيننا، أستذكر الحياة مرّةً أخرى، أنهضُ، أعيد ارتداء سروالي، أشبك حزام العبسي حولي، وأرتدي قميصي، تحتضنني مودّعةً، «هل يمكننا العودة إلى دروس الطبخ؟»، تسألني باسمةً. قدماها الحافيتان تحكّ إحداهما الأخرى، بينما أغلق آخر الأزرار، «يمكننا إضافة دروسٍ أخرى إن شئت»، قالت باسمةً وهي ترتدي فستانها المنزليّ. يدخل جسدها اللذيذ في القماش، «يجبُ أن أنهي مسألةً مّا قبل كلّ شيءٍ»، أجيبها. عندما أخرجُ من باب البيت الخشبيّ العظيم تلحقُ بي، تسرقُ قبلةً من فمي، تحمرّ وجنتاي، تخبرني بمدى اهتمامك بقصّتي، بعد أن قصّتها عليك، وتسألني عمّا إذا كنتُ موافقًا على فعل ذلك، «دعيني أفكّر»، أجيبها، ثمّ تسرق قبلةً أخرى فرحةً كطفلةٍ. أقطعُ الحديقة، «سيكون عليّ العودة إلى العمل عليكِ»، أخبرُ الحديقة وشجرة الجهنّميّة.

عدتُ إلى البيت متأخّرًا، كانت الشمس تشارف على الخفوت، تشدّ خيوطها التي ألقتها على أرضنا كصيّادٍ يشدّ شباكه ليصطاد بها أسماكًا أخرى. كنت منطفئًا. تركتُ لدى المدام شخصيّتي القديمة وعدت، لأوّل مرّةٍ منذ زمنٍ، خاليًا من الأفكار. دخلتُ باب البيت، وجدتها هناك على كرسيّ المطبخ الذي كذبت عليَّ فيه، وصدّقتها كطفلٍ يصدّق أمّه إذ تقول له إنّها ستذهب إلى «قطع الرقبة»، متخيّلًا محلًّا يقطع الرقاب ويعيد ترتيبها. كان الفونوغراف مشغّلًا وهي تستمع للهادي الجويني، مرّةً أخرى يغنّي لمحبوبته التي غار الناس منها وكرهوا علاقته بها. كانت تبكي تحت شعاع الشمس الأحمر الذي يخترق نافذة المطبخ. تلمّستُ مكان ميلادي لأتأكّد أنّني جلبته معي، ولم أتركه مع المدام. أحسستُ بوجود الحزام يخنقُ خصري كحبلٍ من مسدٍ. نزعته، لففته على يدي، على إصبعي الذي خفتت صبغته الأخيرة، ووقفتُ أنظر إليها، بكامل جمالها الخادع، برائحتها المغشوشة التي خدّرتني سنواتٍ، بكلّ طيور الفلامينجو التي حاولت ملاحقتها هربًا منّي، بتوتّرها الذي صنعت ألف حيلةٍ لدفعه عنها، رمقتني والدمع يغرقُ عينيها وهي تمسك بجانبها سمّاعة الهاتف ملقاةً على الطاولة، نظرت إلى الحزام، إلى القدر، والأيّام، وقفتْ، رفعتُ الحزام إلى أعلى، لم تتحرّك، كانت كجنديٍّ يقف بشجاعةٍ أمام تنفيذ أمر إعدامه، لكنّني لم أكن مستعدًّا لفعل ذلك.

- هيّا اضربني، دعني أتحسّس رجولتك، أليس هذا ما تودّ الوصول إليه؟ أن تقمعني وتجعلني فرسًا مطيعةً، هيّا اضرب، الرجل لا يعيبه شيءٌ في هذه البلاد، فلماذا لا تُقدِم على فعلتك التي لطالما حلمتَ بها؟ هيّا اضرب.

بكت، نزعت فستانها والتفتت لتظهر لي ظهرها العاري، الظهر الذي كان يقفز متعةً قبل ساعاتٍ، «اشتحححح»، فعلتها، جلدةٌ، فصرخةٌ، جلدةٌ، آه، جلدةٌ، تقضمُ شفتيها لتتحمّل الألم وتتحكّم فيه، أيادٍ أخرى تساعدني على فعلها، يد أبي، يد المادونّا، يد العبسي، نجلدها معًا، تترنّح لكنّها تتمالك نفسها، «الزنا محرّمٌ فقط مع من لا تحبّ»، كانت تقول، وهذا هو عقابها. أمرّر كلّ ما حدث بيننا في عقلي فأزداد غضبًا، أبكي، أستمرّ في الجلد... اشتححح، اشتحححح، اشتحححح، سقطت على ركبتيها في أرضيّة المطبخ، أصابها الإعياء لكنّي لم أُصَب به، كانت تلهثُ، دمع عينيها ينزل على الأرضيّة، كما فعل منيّي على أرضيّة مطبخ المدام، يجذبني الدم النازف من آثار الجَلد بالحزام، صورة الحزام، انفعلت، يمكنك القول إنّي خرجتُ عن السيطرة، ألقيتُ بالحزام وأسرعتُ إلى المئزر الأبيض القديم.

- هل تريدُ أن تقتلني الآن؟ هل هذا ما تريده أيّها المخنث؟ هيّا افعلها.

ارتديتُ المئزر، مئزر أبي الهديّة التي لم أنسها. أخذتُ الموسى التي أستخدمها للتوقيع على الخبز. كانت ترتجف غير قادرةٍ على النهوض من الإعياء والتعب، تبكي وتتأوّه وتصيحُ في وجهي: «هيّا افعلها، كرهتُ الحياة معك»، «هيّا، فلتفعلها أيّها الخائن، أخبرتني القحبة التي نكتها قبل ساعات ما الذي فعلته»، جريتُ نحوها ممسكًا بالموسى، احتضنتها، مرّرتُ الموسى في رقبتها، انبثقت روحها خارجةً، وضعت رأسها على جسدي وهمست في أذنيّ كلمتيْن، تجمّدت، تلطّخ المئزر والسكّين، هدأت. أُصبتُ بالدوار. ونمنا جنبًا إلى جنب على أرضيّة المطبخ.

عندما استيقظتُ، كانت روحُها قد غادرت المكان، وكنتُ أنا مبلّلًا بدمها، كانت تبتسمُ لي، كزينب التي عرفتها في أيّام رفقتنا الأولى. مسحتُ شعرها باكيًا، «الرجال لا يبكون»، رنّت كلماتُ المدام في أذنيّ، مسحتُ دمعي، حملتُها بين يديّ إلى الحمّام، جلسنا في الحوض المليء بالماء الساخن كما كنّا نفعل في بدايات زواجنا، وقصصتُ عليها إحدى قصص طفولتي وأنا أغسلُها، كنتُ أمرّر الشامبو على شعرها الأسود الفاحم وأُحدّثها عن يومي الذي بدأ بخيانتها وخيانتي، وانتهى بأن نسبح سويًّا كشأن كلّ خصوماتنا السابقة، «ينتصر الحُبّ في النهاية»، قلتُ لها وأنا أمرّر يدي على الشعر لأنزع الشامبو بالماء الساخن، رأيتُ شعر رجلها قد طال، «لماذا لم تخبريني؟ كنتُ سأصنعُ لكِ الحلوى». أخرجتُها من الحوض، مسحتُها جيّدًا بالفوطة، وضعتُها في غرفة النوم، فتحتُ جهاز التكييف وذهبتُ إلى المطبخ لأعدّ الحلوى، كنتُ أنظّفُ المطبخ بينما كانت الحلوى تجهز، أغسلُ الموسى بالماء والصابون مع بقيّةِ الأواني، أرمي المئزر والملابس المليئة بالدم في القمامة، أتذكّر جهاز الهاتف الملقى على الطاولة، تجهز الحلوى، أذهب إلى الغرفة مُجدَّدًا، أنزع شعر ساقيْها

وذراعيْها، أطلي أظافرها، وأضفر شعرها المجفّف، أقبّلها على وجنتيها، أغطّي بالبودرة والمكياج نحرها المذبوح، أغلقُ عينيها، وأتركُها تنام في الغرفة، لأنشغل ببقيّة أعمال المنزل مثلما أفعل دومًا. في اليوم التالي، اتّصلتُ بالمدام لأخبرها أنّني وافقتُ على عرضها بأحكي لك قصّتي.

هيّا لنتذوّق خبزنا الآن، نضعه على الطاولة ونحضر المربّى والزبد، هل تحتاج إلى تونة؟ بعد أن نأكل يمكننا أن نرى زينب، فهي لا تزال نائمةً في غرفة النوم.

لنأكل. «صحتين».

تاجوراء، أغسطس ٢٠٢٠

---

12 شهر الكانون: الشهر الثاني عشر من الأشهر الليبية الجماهيرية، وهي:

(١) النار/ (٢) النوار/ (٣) الربيع/ (٤) الطير/ (٥) الماء/ (٦) الصيف/ (٧) ناصر/

(٨) هانيبال/(٩) الفاتح/(١٠) التمور/(١١) الحرث/(١٢) الكانون.